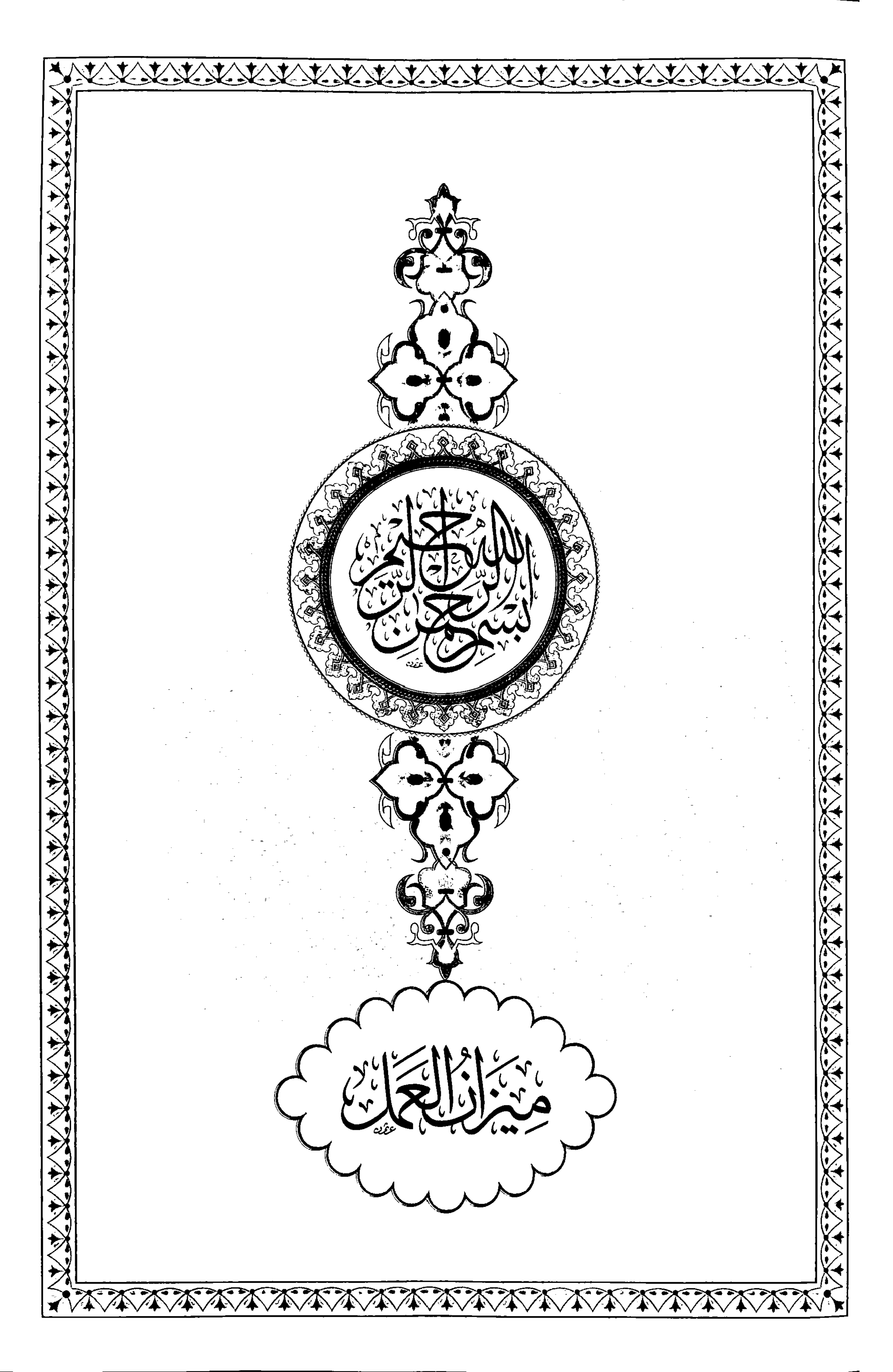

ميزان العمل
للإمام الغزالي
رضي الله عنه
دار المنهاج


بسم الله الرحمن الرحيم
ميزان العمل



دار المنهاج

لبنان ـ بيروت ـ هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الشَّرفية ـ شارع الملك فهد (الستين) ـ بجوار عماير الإسكان

هاتف رئيسي 00966126326666

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392 ـ ص ب 22943 ـ جدة 21416

www.alminhaj.com - e-mail:info@alminhaj.com

الإصدار الثاني ـ الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٣م

موضوع الكتاب : أخلاق وتربية تصنيف الكتاب : (٢١٨)

قياس الكتاب : (٢٢ سم) عدد الصفحات : (٣٠٤ صفحة) عدد المجلدات : (١)

نوع الورق : شاموا فاخر نوع التجليد : مجلَّد كرتوناج عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني



الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 60 - 0



تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠-٥٠٥هـ)

تشرفت بخدمته والعناية به
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

مكتبة جرير بجميع فروعها داخل المملكة وخارجها - هاتف عام 920000089

مكتبة دار كنوز المعرفة - جدة - 0126570628	مكتبة الشنقيطي - جدة - 0126893638
مكتبة الأسدي - مكة المكرمة - 0125570506	مكتبة المتنبي - الدمام - 0138344946
مكتبة الزمان - المدينة المنورة - 0148366666	دار التدمرية - الرياض - 0114459993

مكتبة الغريب - خميس مشيط - 0172273134

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

مكتبة تريم الحديثة - حضرموت - 417130	دار العلوم - مقديشو - 00252615573951
دار محمد دنديس - عمّان - 4653390	مكتبة دنديس - الضفة الغربية - 0097022225174
دار السنابل - دمشق - 0988156620	دار العلوم الإسلامية - سورابايا - 0062313522971
مكتبة الفاروق - المنامة - 17272204	مكتبة الحسن - دكا - 008801675399119
مكتبة الريان - المنامة - 0097339247759	مكتبة دار الرسالة - محج قلعة - 0079285708188
مكتبة الوراقين - صلاح الدين - 07706311103	مكتبة نور الإسلام - محج قلعة - 0079882124001
مكتبة روازن - مسقط - 0096891609993	مكتبة الشباب العلمية - لكنو - 00919198621671
دار الأمان - الرباط - 0537723276	مكتبة المدينة العربية - مومباي - 00917400262692
الدار العالمية - الدار البيضاء - 052282882	مكتبة الإمام الشافعي - جورجيا - 0017036723653
دار السلام - القاهرة - 22741578	دار مكة العالمية - برمنجهام - 07533177345
حروف للنشر والتوزيع - أبو ظبي - 5593007	الدار الأسمرية - زليتن - واتس 00218925540836
مكتبة دار البيان - حَوَلّي - 99521001	مكتبة توء كنالي - كوالا لمبور - 00601111764722
الدار العربية للعلوم - بيروت - 785107	دار الإمام البخاري - بينوني - 0027114210824
مكتبة التمام - بيروت - 01707039	مكتبة المدينة العربية - كراتشي - 00923102864568
مكتبة الثقافة - الدوحة - 44421132	مكتبة المدينة العربية - لاهور - 00923218188780
دار المشرق والمغرب - الجزائر - 0780380501	مكتبة الإرشاد - إستانبول - 02126381633
مكتبة دار الزاهر - مقديشو - 002525911310	المكتبة الإسلامية - أستراليا - 0061297584040

مكتبة سنا - باريس - 0148052928

لدينا خدمة توصيل داخل المملكة وخارجها

كتابك إلى بابك

dar_alminhaj

@dar_alminhaj

@daralminhaj

+966 12 6326666

ps@alminhaj.com


قال الله تعالى
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

تَنْبِيهٌ

رأتِ الدَّارُ أنَّهُ مِنَ الأفضلِ أنْ توضَعَ في آخِرِ الكتابِ مُقدِّماتُ التَّحقيقِ وما يتعلَّقُ بها مِنْ ترجمةِ المؤلِّفِ ووصفِ المخطوطاتِ ومنهجِ العنايةِ والضَّبطِ وغيرِها ممَّا لا يُحبِّذُهُ إلَّا المُتخصِّصونَ ؛ وذٰلكَ سَيْراً علىٰ سَنَنِ مَنْ تقدَّمَنا مِنْ جيلِ النَّاشرينَ الأوائلِ .

ليتسنَّىٰ للقارئِ الكريمِ الدُّخولُ إلىٰ نصِّ الكتابِ مباشرةً دونَ أن يكونَ هناكَ ما يُرهقُهُ ، وتجنُّباً للسَّآمةِ والمَلَلِ .

راجينَ مِنَ اللهِ أن يكونَ ذٰلكَ سبباً للانتفاعِ بالكتابِ وانتشارِهِ .

واللهُ وليُّ التَّوفيق

بين يدي الكتاب

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ ، وصلاتُهُ وسلامُهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ إمامِ الأوَّلينَ والآخِرينَ ، وقائدِ الغُرِّ المُحجَّلينَ إلىٰ جنَّاتِ النعيمِ ، وعلىٰ آلِهِ الطيّبينَ الطَّاهرينَ ، وصحابتِهِ أجمعينَ ، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلا يَقبلُ اللهُ العملَ إلَّا إذا كانَ صالحاً ، ولا يُوصَفُ العملُ بالصَّلاحِ إلَّا إذا كانَ وَفْقَ ما شَرَعَهُ اللهُ تعالىٰ وبيَّنَهُ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانَ صاحبُهُ للهِ مُخلِصاً .

ثمَّ العملُ المُخلَصُ علىٰ درجاتٍ كثيرةِ العددِ ، متباينةِ الأجرِ والفضلِ ؛ فليسَ مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ مُخلِصاً راجياً فضلَهُ وخائفاً عدلَهُ . . كمَن عبدَهُ تعالىٰ قياماً بحقِّ جليلِ أوصافِهِ العليَّةِ ، والأجرُ والفضلُ بعدَها حاصلٌ بالتَّبعيَّةِ .

وهٰذا الكتابُ القيِّمُ إنَّما يدورُ حولَ المبدأ الثَّاني مِن مبادئِ السُّلوكِ ؛ وهوَ : **العملُ** ؛ إذ إنَّ السُّلوكَ والتَّزكيةَ تقومُ علىٰ أساسينِ اثنينِ ؛ هما : العلمُ ، والعملُ ، واللَّذانِ هما وسيلتا السَّعادةِ الحقيقيَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ ، تلكَ السَّعادةُ المتمثِّلةُ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ حقّاً وصدقاً ويقيناً .

❀ ❀ ❀

وكمِ افتنَّ حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في تآليفِهِ ، مبتغياً بذٰلكَ توريثَ كتبٍ تَضمَنُ الحِفاظَ على المنهجِ السَّديدِ الرَّشيدِ ، وعدمَ الحيادِ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ ؛ **فكانَ مِن أبرزِ تلكَ الكتبِ في تحقيقِ هٰذا المَطلَبِ كتابانِ :**

أَوَّلُهُما : « **معيارُ العِلْمِ** » ؛ وهوَ الكتابُ الَّذي حَرَصَ فيهِ علىٰ ضبطِ العلومِ اليقينيَّةِ وتمييزِها عنِ الظُّنونِ والشُّكوكِ والأوهامِ ، وكشفِ حقائقِ الأمورِ ببيانِ قانونِ النَّظرِ[١] .

وثانيهِما : « **ميزانُ العملِ** » ؛ وهوَ الكتابُ الَّذي وعدَ بتصنيفِهِ في خاتمةِ « معيارِ العِلْمِ » ؛ إذ قالَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (وإذا كانَتِ السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ **لا تُنالُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ** ، وكانَ يَشتبِهُ العِلْمُ الحقيقيُّ بما لا حقيقةَ لهُ ، **وافتقرَ بسببِهِ إلىٰ معيارٍ** . . فكذٰلكَ يَشتبِهُ العملُ الصَّالحُ النَّافعُ في الآخرةِ بغيرِهِ ، **فيَفتقِرُ إلىٰ ميزانٍ تُدرَكُ بهِ حقيقتُهُ** ، فلنصنِّفْ كتاباً في ميزانِ العملِ كما صنَّفنا هٰذا في معيارِ العِلْمِ ، ولنُفرِدْ ذٰلكَ الكتابَ بنفْسِهِ ؛ ليتجرَّدَ لهُ مَن لا رغبةَ لهُ في هٰذا الكتابِ)[٢] .

وبهٰذهِ الكلماتِ تستبينُ الدَّواعي لوضعِ كتابِ « ميزانِ العملِ » ، فقد ضمنَ لنا عِلْمُ المنطقِ تمييزَ البهرجِ مِنَ النُّضارِ في الشُّؤونِ العلميَّةِ ، فكانَ لا بدَّ للإمامِ الغزاليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ

---

(١) وقد وفَّقَ اللهُ تعالىٰ دار المنهاج لإخراجه بطبعة رائقة ، فلله الحمد والمنة .

(٢) انظر « معيار العلم » (ص ٤٣٩) .

أن يتركَ كتاباً يكونُ معياراً في معرفةِ صحيحِ العملِ مِن سقيمِهِ ، ومقبولِهِ مِن مردودِهِ ؛ فالالتباسُ في العملِ يقعُ فيهِ فئةٌ مِنَ النَّاسِ ليسَتْ بالقليلةِ ؛ ولهٰذا كانَ أكثرُ المُؤلِّفينَ في ميدانِ العملِ هم ممَّن ينقلونَ النُّصوصَ الشَّرعيَّةَ مِن كتابٍ وسنَّةٍ ممزوجةٍ بأقوالِ السَّلفِ الصَّالحِ ، تاركينَ كلمةَ الفصلِ في ذٰلكَ لفقهاءَ مجتهدينَ وعلماءَ متمكِّنينَ .

وهٰذا الكتابُ يشتملُ علىٰ فصولٍ ، بلغَتْ اثنينِ وثلاثينَ فصلاً ، أطنبَ في بعضِها الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ حيثُ اقتضى المقامُ الإطنابَ ، وأسهبَ في بعضِها حيثُ اقتضى الحالُ الإسهابَ ، وتعمَّدَ في بعضِها الإيجازَ والإجمالَ ، عِلماً منهُ بقُصورِ الأفهامِ عنِ الاحتمالِ ؛ إذ إنَّ اللَّبيبَ تكفيهِ الإشارةُ .

ويندرجُ تحتَ كلِّ فصلٍ مِنَ الفصولِ فوائدُ جمَّةٌ ، ودقائقُ مهمَّةٌ ، وتحقيقاتٌ سديدةٌ ، وإيضاحاتٌ مفيدةٌ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعَ القارئَ بكلِّ ذٰلكَ ، ويوفِّقَهُ لفهمِ ما هنالِكَ .

❀ ❀ ❀

وما زالَتْ بفضلِ اللهِ تعالىٰ مسيرةُ العنايةِ بكتبِ الحُجَّةِ الإمامِ الغزاليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ متتابعةَ الأنفاسِ ، **وإنَّ دارَ المنهاجِ لفخورةٌ بهٰذهِ الخِدماتِ الجليلةِ الَّتي تُقدَّمُ لتلكَ الكتبِ النَّافعةِ .**

❀ ❀ ❀

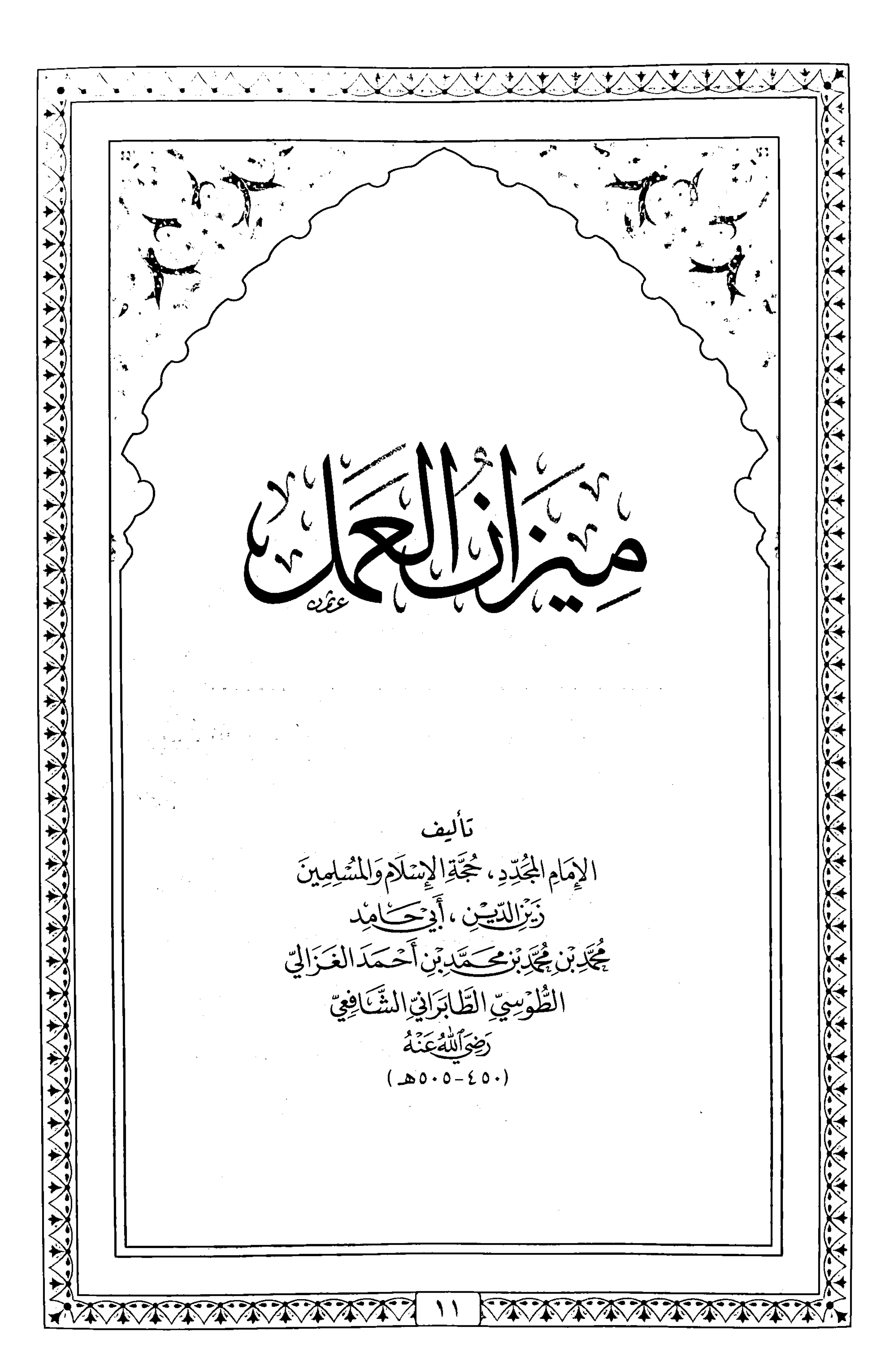
وها هيَ اليومَ تعيدُ إصدارَ هٰذا الكتابِ الجليلِ بمزيدٍ مِنَ العنايةِ والاهتمامِ والتَّصحيحِ والضَّبطِ والتَّعليقِ ؛ كما هوَ الشَّأنُ معَ جميعِ كتبِها ، ومنهُ سبحانَهُ وتعالىٰ نستمدُّ العونَ والتَّوفيقَ .

وختاماً : نسألُ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ متوسِّلينَ بأسمائِهِ الحُسنىٰ أن يُكلِّلَ أعمالَنا بالإخلاصِ والقَبولِ ؛ إنَّهُ سبحانَهُ خيرُ مأمولٍ ، وعليهِ الاتِّكالُ وهوَ خيرُ مسؤولٍ .

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم

١٥ محرّم الحرام ١٤٤٤هـ

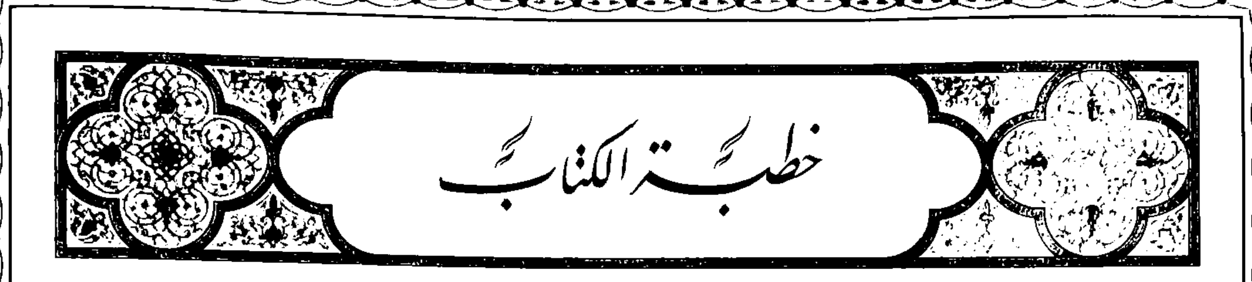
الناشر



مِيزانُ العَمَل

تأليف

الإمام المجدِّد، حُجّةِ الإسلام والمسلمين
زينِ الدين، أبي حامد
محمّدِ بن محمّدِ بن أحمدَ الغزاليّ
الطُّوسيّ الطّابرانيّ الشّافعيّ
رضي الله عنه
(٤٥٠-٥٠٥هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر يا كريم

قال الشَّيخ الإمام أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد حجّة الإسلام الغزاليّ رحمة الله عليه :

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِهِ محمَّدٍ وآلِهِ أجمعينَ .

أما بعد :

فلمَّا كانَتِ السَّعادةُ الَّتي هيَ مطلوبُ الأوَّلينَ والآخِرينَ **لا تُنالُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ** ، وافتقرَ كلُّ واحدٍ منهُما إلى الإحاطةِ بحقيقتِهِ ومقدارِهِ ، ووجبَ **معرفةُ العِلْمِ المُسعِدِ** ، والتَّمييزُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ بمعيارٍ (١) ، وفرغْنا منهُ (٢) . . وجبَ **معرفةُ العملِ المُسعِدِ** ، والتَّمييزُ

(١) أراد بغير العلم المسعد : العلمَ غيرَ الحقيقي ؛ وهو الخيال والظن ، والشك والوهم ، والمعيار : العِيار ؛ وهو المثقال أو المكيال الذي تعرف به الموزونات والمكيلات .

(٢) أي : من ذلك المعيار ؛ وهو كتابه الشهير « معيار العلم » .

بينَهُ وبينَ العملِ المُشقي ، فافتقرَ ذٰلكَ أيضاً إلىٰ ميزانٍ ، فأردْنا أن نخوضَ فيهِ ، ونُبيِّنَ أنَّ الفتورَ عن طلبِ السَّعادةِ حماقةٌ ، **ثمَّ نُبيِّنَ أن لا طريقَ إلى السَّعادةِ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ** ، ثمَّ نُبيِّنَ العِلْمَ المُسعِدَ وطريقَ تحصيلِهِ ، ثمَّ نُبيِّنَ العملَ المُسعِدَ وطريقَهُ .

وكلُّ ذٰلكَ بطريقٍ يَترقَّىٰ عن حدِّ التَّقليدِ إلىٰ حدٍّ في الوضوحِ لوِ استُقصِيَ تحقيقُهُ ، وطُوِّلَ الكلامُ فيهِ . . ارتقىٰ إلىٰ حدِّ البرهانِ على الشُّروطِ الَّتي ذكرْناها في « معيارِ العِلْمِ »[1] ، وإن كنَّا لسْنا نُطوِّلُ الكلامَ بهِ ، ولٰكنَّا نُرشِدُ إلىٰ أُصولِهِ وقوانينِهِ .

❋ ❋ ❋

(١) معيار العلم (ص ٧١) وما بعدها .

بيان أنّ الفتور عن طلب السّعادة حماقة

السَّعادةُ الأُخرويَّةُ : هيَ الَّتي نعني بها : بقاءً بلا فَناءٍ ، ولذَّةً بلا عَناءٍ ، وسروراً بلا كُدورةٍ ، وغِنىً بلا فقرٍ ، وكمالاً بلا نقصانٍ ، وعزّاً بلا ذلٍّ .

وبالجملةِ : كلُّ ما يُتصوَّرُ أن يكونَ مطلوبَ طالبٍ ، ومرغوبَ راغبٍ ، وذٰلكَ أبدَ الآبادِ ، علىٰ وجهٍ لا ينقصُهُ تصرُّمُ الأحقابِ والآمادِ .

بل لو قدَّرْنا الدُّنيا مملوءةً بالذُّرَةِ ، وقدَّرْنا طائراً يَختطِفُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً منها . . لفنيَتِ الذُّرَةُ ولم يَنقُصْ مِن أبدِ الآبادِ شيءٌ .

فهٰذا لا يحتاجُ إلى استحثاثٍ علىٰ طلبِهِ ، وتقبيحٍ للفتورِ فيهِ بعدَ اعتقادِ وجودِهِ ؛ **إذ كلُّ عاقلٍ يتسارعُ إلىٰ أقلَّ** منهُ ، ولا يَصرِفُ عنهُ كونُ الطَّريقِ إليهِ مُتوعِّراً ، ومُحوِجاً إلىٰ تركِ لذَّاتِ الدُّنيا ، واحتمالِ أنواعٍ مِنَ التَّعبِ نَقْداً ؛ فإنَّ المُدَّةَ في احتمالِ النَّصَبِ مُختصَرةٌ ، والفائتَ فيهِ قليلٌ ، واللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةَ مُتصرِّمةٌ مُنقضِيةٌ ، **والعاقلُ يَتيسَّرُ عليهِ تركُ القليلِ نَقْداً في طلبِ أضعافِهِ نسيئةً** .

ولذٰلكَ ترى الخَلْقَ كلَّهُم في التِّجاراتِ والصِّناعاتِ وحتَّىٰ في طلبِ العِلْمِ . . يحتملونَ مِنَ الذُّلِّ والخسرانِ ، والتَّعبِ والنَّصَبِ ما تعظُمُ مُقاساتُهُ ؛ **طمعاً في حصولِ لذَّةٍ لهُم في المُستقبَلِ تزيدُ علىٰ**

ما يفوتُهُم في الحالِ زيادةً محدودةً ، فكيفَ لا يسمحونَ بتركِ لذَّةٍ في الحالِ للتَّوصُّلِ إلىٰ مزايا غيرِ محدودةٍ ولا معدودةٍ ؟!

ولم يُخلَقْ في الدُّنيا عاقلٌ هوَ حريصٌ علىٰ طلبِ المالِ كُلِّفَ بذلَ دينارٍ وانتظارَ شهرٍ ليعتاضَ عنهُ بعدَ مضيِّ الشَّهرِ الإكسيرَ الأعظمَ الَّذي يَقلِبُ النُّحاسَ ذهباً إبريزاً[1] . . إلَّا وتسمحُ نفْسُهُ ببذلِهِ وإن كانَ ذٰلكَ فواتاً في الحالِ ، حتَّىٰ إنَّ مَن لا يحتملُ تعبَ الجوعِ مثلاً في مثلِ هٰذهِ المُدَّةِ للتَّوصُّلِ بهِ إلىٰ هٰذهِ النِّعمةِ الجسيمةِ . . لم يُعَدَّ عاقلاً .

ولعلَّ ذٰلكَ لا يُتصوَّرُ وجودُهُ في الخَلْقِ ، معَ أنَّ الموتَ للإنسانِ بالمِرصادِ ، والذَّهبَ لا ينفعُ في الآخرةِ ، وربَّما يموتُ في الشَّهرِ أو بعدَ الشَّهرِ بيومٍ فلا ينتفعُ بالذَّهبِ .

وكلُّ ذٰلكَ لا يُفتِّرُ رأيَهُ في البذلِ ؛ طمعاً في هٰذا العِوَضِ ، **فكيفَ يَفتُرُ رأيُ العاقلِ في مُقاساةِ تركِ الشَّهواتِ في أيَّامِ العُمرِ وأقصاها مئةُ سنةٍ ، والعِوَضُ الحاصلُ عنها سعادةٌ لا آخِرَ لها ؟!**

ولٰكنَّ فتورَ الخَلْقِ عن سلوكِ طريقِ السَّعادةِ . . **لضَعْفِ إيمانِهِم باليومِ الآخِرِ** ، وإلَّا . . فالعقلُ النَّاقصُ قاضٍ بالتَّشميرِ لسلوكِ سُبُلِ السَّعادةِ فضلاً عنِ الكاملِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) الإكسير : مادة عزيزة ، يطرح اليسير منها على المعادن الخسيسة ، فتنقلب إلىٰ نفيسة .

بيان أنّ فتور الإيمان به أيضاً حماقة

أقولُ : إنَّ فتورَ الإيمانِ أيضاً معَ أنَّهُ مِنَ الحماقةِ . . فليسَ يقتضي الفتورَ في سلوكِ سُبُلِ السَّعادةِ لولا الغفلةُ ؛ فإنَّ النَّاسَ في أمرِ الآخرةِ أربعُ فِرَقٍ :

فِرقةٌ : اعتقدَتِ الحَشْرَ والنَّشْرَ والجنَّةَ والنَّارَ كما نطقَتْ بهِ الشَّرائعُ ، وأفصحَ عن وصفِهِ القرآنُ ، وأثبتوا اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةَ الَّتي ترجعُ إلى المنكوحِ والمطعومِ ، والمشروبِ والمشمومِ ، والملموسِ والملبوسِ ، والمنظورِ إليهِ .

واعترفوا بأنَّهُ يَنضافُ إلىٰ ذٰلكَ أنواعٌ مِنَ السُّرورِ ، وأصنافٌ مِنَ اللَّذَّاتِ الَّتي لا يُحيطُ بها وصفُ الواصفينَ ؛ وهيَ ممَّا لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعَتْ ، ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، وأنَّ ذٰلكَ يجري أبداً لا انقطاعَ لهُ ، وأنَّهُ لا يُنالُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ .

وهٰؤلاءِ هُمُ المسلمونَ كافَّةً ، بلِ المُتَّبِعونَ للأنبياءِ على الأكثرِ مِنَ اليهودِ والنَّصارىٰ .



وفِرقةٌ ثانيةٌ ؛ وهُم بعضُ الإلٰهيِّينَ (١) مِنَ الفلاسفةِ : اعترفوا بنوعٍ

---

(١) في (د ، ز) زيادة : (الإسلاميين) ، وأقسام الفلاسفة ثلاثة : الإلـٰهيون ، والدهريون ، والطبيعيون ، وأعلام الفلاسفة الإسلاميين عند المصنف هما ابن سينا والفارابي .

مِنَ اللَّذَّةِ لا تَخطُرُ علىٰ قلبِ بشرٍ كيفيَّتُها ، وسمَّوها : لذَّةً عقليَّةً .

وأمَّا الحِسِّيَّاتُ . . فأنكروا وجودَها مِن خارجٍ ، ولـٰكنْ أثبتوها علىٰ طريقِ التَّخيُّلِ ؛ كما في حالةِ النَّومِ ، ولـٰكنَّ النَّومَ يَتكدَّرُ بالتَّنبُّهِ ، وذٰلكَ لا تكدُّرَ لهُ ، بل هوَ على التَّأبيدِ .

وزعموا : أنَّ ذٰلكَ يَثبُتُ لطائفةٍ مِنَ المشغوفينَ بالمحسوساتِ ، والتفاتُ نفوسِهِم مقصورٌ عليها ، ولا تسمو إلى اللَّذَّاتِ العقليَّةِ .

وهـٰذا ليسَ يُخالفُ في أمرٍ يُوجِبُ فتوراً في الطَّلبِ ؛ فإنَّ الالتذاذَ إنَّما يقعُ بما يحصلُ في نفسِ الإنسانِ مِنَ التَّأثُّرِ بالملموسِ والمُبصَرِ والمطعومِ وغيرِهِ ، والشَّيءُ الخارجُ سببٌ في حصولِ الأثرِ في النَّفْسِ ، وليسَتِ اللَّذَّةُ مِنَ السَّببِ الخارجِ ، بل مِنَ الأثرِ الحاصلِ عندَ حصولِ السَّببِ الخارجِ ، فإذا أمكنَ حصولُ الأثرِ في النَّفْسِ دونَ الشَّيءِ الخارجِ ؛ كما في حالِ النَّومِ . . فلا أَرَبَ في الشَّيءِ الخارجِ .

❁ ❁ ❁

وفِرقةٌ ثالثةٌ : ذهبوا إلىٰ إنكارِ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ جملةً بطريقِ الحقيقةِ والخيالِ .

وزعموا : أنَّ التَّخيُّلَ لا يحصلُ إلَّا بآلاتٍ جسمانيَّةٍ ، والموتُ يقطعُ العلاقةَ بينَ النَّفْسِ وبينَ البَدنِ الَّذي هوَ آلتُها في التَّخيُّلِ وسائرِ الإحساساتِ ، ولا يعودُ قطُّ إلىٰ تدبيرِ البَدنِ بعدَ أنِ اطَّرَحَهُ ، فلا يبقىٰ لهُ إلَّا آلامٌ ولذَّاتٌ ليسَتْ حِسِّيَّةً ، ولـٰكنَّها أعظمُ مِنَ الحِسِّيَّةِ ؛ فإنَّ

الإنسانَ في هٰذا العالَمِ أيضاً مَيلُهُ إلى اللَّذَّاتِ العقليَّةِ ، ونَفرتُهُ عنِ الآلامِ العقليَّةِ أشدُّ منها إلى الحِسِّيَّةِ .

ولذٰلكَ يألمونَ مِن إراقةِ ماءِ الوجهِ ، ويُؤثِرونَ الاحترازَ عنِ الافتضاحِ والاختزاءِ في قضاءِ شهوةِ الفرْجِ ، ومُقاساةِ الآلامِ والمَشقَّاتِ .

بل قد يُؤثِرُ الإنسانُ تركَ الطَّعامِ يوماً ويومَينِ ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ لذَّةِ الغلبةِ في الشِّطْرَنْجِ معَ خِسَّتِهِ ، ولذَّةُ الغلبةِ عقليَّةٌ .

وقد يَهجُمُ علىٰ عددٍ كثيرٍ مِنَ المُقاتِلينَ ليُقتَلَ ويَعتاضَ عنهُ ما يُقدِّرُهُ في نفْسِهِ مِن لذَّةِ الحمدِ والوصفِ بالشَّجاعةِ .

وزعموا : **أنَّ الحِسِّيَّاتِ بالإضافةِ إلى اللَّذَّاتِ الكائنةِ في الدَّارِ الآخرةِ في غايةِ القصورِ** ، وتكادُ تكونُ نِسبتُها إليها كنسبةِ إدراكِ رائحةِ الطُّعومِ اللَّذيذةِ إلىٰ ذوقِها ، ونسبةِ النَّظرِ في وجهِ المعشوقِ إلىٰ مُضاجَعتِهِ ومُجامَعتِهِ ، بل أبعدُ منهُ نسبةً .

وزعموا : **أنَّ ذٰلكَ لمَّا بَعُدَ عن فهمِ الجماهيرِ . . مُثِّلَتْ لهُم تلكَ اللَّذَّاتُ بما عرفوها بهِ مِنَ الحِسِّيَّاتِ** ؛ كما أنَّ الصَّبيَّ يشتغلُ بالتَّعلُّمِ لينالَ بهِ القضاءَ أوِ الوزارةَ وهوَ لا يُدرِكُ في الصِّبا لذَّتَها ، فيُوعَدُ بأُمورٍ خسيسةٍ يَلتذُّ هوَ بها ؛ كشراءِ صَوْلَجانٍ يلعبُ بهِ (١) ، أو عُصفورٍ يعبثُ بهِ ، وأمثالِهِ .

وأينَ لذَّةُ اللَّعبِ بالعُصفورِ مِن لذَّةِ المُلْكِ والوِزارةِ ؟!

---

(١) الصَّولَجان : العود المُعْوج .

ولـٰكنْ لمَّا قَصُرَ فهمُهُ عن دَرَكِ الأعلىٰ . . مُثِّلَ بالأخسِّ ورُغِّبَ فيهِ ؛ تلطُّفاً في استدراجِهِ إلىٰ ما فيهِ سعادتُهُ .

وهـٰذا أيضاً إن صحَّ . . فلا يُوجِبُ فتوراً في الطَّلبِ ، بل يُوجِبُ زيادةَ الجِدِّ .

وإلىٰ هـٰذا ذهبَ بعضُ الصُّوفيَّةِ ، والإلـٰهيُّونَ مِنَ الفلاسفةِ مِن عندِ آخِرِهِم ، حتَّىٰ إنَّ مشايخَ الصُّوفيَّةِ صرَّحوا ولم يتحاشَوا ، وقالوا : (مَن يعبدُ اللهَ لطلبِ الجنَّةِ أو للحَذَرِ مِنَ النَّارِ . . فهوَ لئيمٌ) ، وإنَّما مَطلَبُ القاصدينَ إلى اللهِ تعالىٰ أمرٌ أشرفُ مِن هـٰذا .

ومَن رأىٰ مشايخَهُم ، وبحثَ عن مُعتقَداتِهِم ، وتصفَّحَ كتبَ المُصنِّفينَ منهُم . . فهِمَ هـٰذا الاعتقادَ مِن مَجاري أحوالِهِم على القطعِ .



وفِرقةٌ رابعةٌ ؛ وهُم جماعةٌ مِنَ الحمقىٰ ، لا يُعرَفونَ بأساميهِم ، ولا يُعَدُّونَ في زمرةِ النُّظَّارِ[1] : **ذهبوا إلىٰ أنَّ الموتَ عدمٌ محضٌ ، وأنَّ الطَّاعةَ والمعصيةَ لا عاقبةَ لهُما ، ويرجعُ الإنسانُ بعدَ موتِهِ إلى العَدَمِ كما كانَ قبلَ وجودِهِ .**

وهـٰؤلاءِ لا يَحِلُّ تسميتُهُم فِرقةً ؛ فإنَّ الفِرقةَ عبارةٌ عن جمعٍ ، وليسَ هـٰذا مذهبَ جمعٍ ، ولا منسوباً إلىٰ ناظرٍ معروفٍ ، بل هوَ

---

(١) وهم الدهرية من قدماء الفلاسفة وغيرهم .

مُعتقَدُ أحمقَ بَطَّالٍ غلبَتْ عليهِ شهوتُهُ ، واستولىٰ عليهِ شيطانُهُ ، فلم يَقدِرْ علىٰ قمعِ هواهُ ، ولم تسمحْ لهُ رعونتُهُ بأن يعترفَ بالعجزِ عن مُقاوَمةِ الهوىٰ ، فتعلَّلَ لنقصانِهِ بأنَّ ذٰلكَ واجبٌ ، وأنَّهُ الحقُّ .

ثمَّ أحبَّ أن يساعدَهُ غيرُهُ ، فدعا إلى البَطالةِ وما جُبِلَتْ عليهِ النَّفْسُ مِنِ اتِّباعِ الهوى الَّذي هوَ أشدُّ حاملٍ للأحمقِ على المُسارَعةِ إلى التَّصديقِ بهِ ، لا سيَّما وقد يحتالُ بعضُ الفَسَقَةِ بنسبةِ هٰذا المُعتقَدِ إلىٰ معروفٍ بدقائقِ العلومِ ؛ كأرسطاطاليسَ وأفلاطونَ ، أو إلىٰ فِرقةٍ ؛ كالفلاسفةِ ، ويَستدرِجُ السَّامعَ بأنَّ معرفتَكَ لا تزيدُ علىٰ معرفتِهِم ، وقد بحثوا زماناً وما حصلوا علىٰ طائلٍ .

فلا يَشعُرُ ذٰلكَ المسكينُ بتلبيسِهِ ، فيُصدِّقُهُ لمُوافقتِهِ طبعَهُ ، ولا يطالبُهُ بالبرهانِ في نقلِ المذهبِ عمَّن نقلَهُ .

ولو أخبرَهُ بأمرٍ يَتعلَّقُ بهِ خسرانُ درهمٍ . . لكانَ لا يُصدِّقُهُ إلَّا ببرهانٍ ، ولو قالَ : إنَّ أباكَ أقرَّ لفلانٍ بعُشْرِ دارِهِ الَّتي خَلَّفَها عليكَ ، ومعَهُ بهِ سِجلٌّ فيهِ خطُّ الشُّهودِ . . لقالَ : ما الحُجَّةُ فيهِ ؟! وأينَ الشَّاهدُ الحيُّ الَّذي يَشهَدُ بهِ ؟! وأيُّ خيرٍ في السِّجلِّ المكتوبِ وفي نقلِ الخطوطِ ؟!

ثمَّ يُصدِّقُهُ في نقلِهِ مذهبَ مَن سمَّاهُ ؛ مِن غيرِ شاهدَينِ يشهدانِ علىٰ سماعِهِ ، ومِن غيرِ عَرضِ خطِّ ذٰلكَ المذكورِ ، ومِن غيرِ عَرْضِ تصنيفٍ مِن تصانيفِهِ ولو بخطِّ غيرِهِ !!

ثُمَّ لو سمعَ ذٰلكَ المذكورَ بأُذُنِهِ يُصرِّحُ بذٰلكَ . . لكانَ ينبغي أن يَتوقَّفَ في القَبولِ ؛ زاعماً أنَّهُ لا برهانَ عليهِ .

وإن كانَ أخذُهُ تقليداً . . فتقليدُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ ، بل تقليدُ الجماهيرِ والدَّهْماءِ مِنَ الخَلْقِ أَولىٰ مِن تقليدِ واحدٍ ليسَ معصوماً عنِ الخطأ .

❁ ❁ ❁

فأنتَ الآنَ ـ أيُّها المُسترشِدُ ـ بعدَ أن عرفتَ هٰذهِ المُعتقَداتِ . . لا يخلو حالُكَ في اعتقادِ الفِرقةِ الضَّالَّةِ عن أربعةِ أقسامٍ :

١ ـ إمَّا أن تكونَ قاطعاً ببطلانِهِ .

٢ ـ أو ظانّاً لبطلانِهِ .

٣ ـ أو ظانّاً لصحَّتِهِ ظنّاً غالباً ، ومُجوِّزاً لبطلانِهِ بطريقِ الإمكانِ البعيدِ .

٤ ـ أو قاطعاً بصحَّتِهِ .

وكيفَما كنتَ . . فعقلُكَ يُوجِبُ عليكَ الاشتغالَ بالعِلْمِ والعملِ ، والإعراضَ عن مَلاذِّ الدُّنيا إن سَلِمَ عقلُكَ ، وصحَّتْ نَحيزتُكَ [١] ، وذٰلكَ لا يخفىٰ إن كنتَ قاطعاً ببطلانِهِ .

❁ ❁ ❁

وإن كنتَ تظنُّ بطلانَهُ ظنّاً غالباً . . تقاضاكَ عقلُكَ التَّشميرَ

---

(١) النحيزة : الطبيعة والفطرة .

في طلبِهِ ؛ كما يتقاضى العقلُ تَجشُّمَ المصاعبِ في ركوبِ البحرِ لطلبِ الرِّبحِ ، وفي تعلُّمِ العِلْمِ في أوَّلِ الشَّبابِ لطلبِ الرِّئاسةِ عندَ مَن يطلبُها ، وفي نيلِ الوزارةِ أو بابٍ مِن أبوابِ الكرامةِ بمُقاساةِ مُقدِّماتِها .

وعواقبُ تلكَ الأُمورِ مظنونةٌ ، وليسَ مقطوعاً بها .

بل إذا غلبَ علىٰ ظنِّ الحريصِ على الدُّنيا أنَّ للكيمياءِ وجوداً ، واحتملَ عندَهُ عدمُهُ ، وعَلِمَ أنَّ تعبَ شهرٍ يوصلُهُ إليهِ إن كانَ لهُ وجودٌ ، ثمَّ يَتنعَّمُ بهِ بقيَّةَ عُمرِهِ الَّذي يمكنُ أن يكونَ أقلَّ مِن شهرٍ وأن يكونَ كثيراً . . تقاضاهُ عقلُهُ أن يحتملَ التَّعبَ في ذٰلكَ الشَّهرِ ويستحقرَهُ وإن كانَ معلوماً وعاجلاً بالإضافةِ إلىٰ ما يظنُّهُ ، وإن كانَ آجلاً ولم يكنْ مقطوعاً بهِ .

❀ ❀ ❀

وإن كنتَ تظنُّ صحَّتَهُ ظنّاً غالباً ، ولٰكنْ بقيَ في نفْسِكَ تجويزُ صدقِ الأنبياءِ والأولياءِ وجماهيرِ العلماءِ ولو علىٰ بُعْدٍ . . فعقلُكَ أيضاً يتقاضاكَ سلوكَ طريقِ الأمنِ ، واجتنابَ مثلِ هٰذا الخطرِ الهائلِ .

فإنَّكَ لو كنتَ في جوارِ مَلِكٍ ، وأمكنَكَ أن تتعاطىٰ في واحدٍ مِن محارمِهِ مثلاً عملاً مِنَ الأعمالِ تظنُّ ظنّاً غالباً أنَّهُ يقعُ منهُ مَوقِعَ الرِّضا ، فيعطيكَ عليهِ ديناراً ، وتحتملُ احتمالاً علىٰ خلافِ الظَّنِّ الغالبِ أنَّهُ يقعُ منهُ مَوقِعَ السُّخطِ ، فيُنكِّلُ بكَ ويفضحُكَ ، ويديمُ عقوبتَكَ طولَ عُمرِكَ . . أشارَ عليكَ عقلُكَ بأنَّ الصَّوابَ ألَّا تقتحمَ

هٰذا الخطرَ ؛ فإنَّكَ إن فعلتَ وأصبتَ . . فثمرتُهُ دينارٌ لا يطولُ بقاؤُهُ معَكَ ، وإن أخطأتَ . . فنَكالُهُ عظيمٌ يبقىٰ معَكَ طولَ عُمرِكَ ، فليسَ تفي ثمرةُ صوابِهِ بغائلةِ خَطئِهِ .

وكذا إذا وجدتَ طعاماً ، وأخبرَكَ جماعةٌ بأنَّهُ مسمومٌ ، أو شخصٌ واحدٌ حالُهُ دونَ حالِ نبيٍّ واحدٍ فضلاً عن أن تُقدِّرَ لهُ التَّأييدَ بمُعجِزةٍ ، وغلبَ علىٰ ظنِّكَ كذبُهُ كما غلبَ علىٰ ظنِّكَ الآنَ كذبُ الأنبياءِ كلِّهِم ، ولٰكنْ جوَّزتَ معَ ذٰلكَ صِدقَهُ ، وعلمتَ أنَّهُ ليسَ في أكلِهِ إلَّا التَّلذُّذُ بطعمِهِ وحلاوتِهِ وقتَ الذَّوقِ ، وإن كانَ مسموماً ففيهِ الهلاكُ . . فعقلُكَ أيضاً يُشيرُ عليكَ باجتنابِ الخطرِ إن كنتَ مِن زمرةِ العقلاءِ .

ولهٰذا قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَن كانَ يُشاغبُهُ ويُماريهِ في أمرِ الآخرةِ : (إن كانَ الأمرُ كما زعمتَ . . تخلَّصْنا جميعاً ، وإن كانَ الأمرُ كما قلتُ . . فقد هلكتَ ونجوتُ)[1] .

ولا ينبغي أن يُظَنَّ أنَّ هٰذا تشكُّكٌ منهُ في اليومِ الآخِرِ ، ولٰكنَّهُ ذكرَهُ علىٰ حدِّ جهلِ المُخاطَبِ القاصرِ عن معرفةِ ذٰلكَ بطريقِ البرهانِ ، **وهوَ الَّذي جرَّأَنا علىٰ سلوكِ هٰذا المنهاجِ ؛ ليسهُلَ تأمُّلُهُ علىٰ أهلِ البَطالةِ والتَّقصيرِ في الطَّاعةِ للهِ تعالىٰ .**

وقد تبيَّنَ **على القطعِ** : أنَّ العظيمَ الهائلَ وإن لم يكنْ معلوماً . . فبالاحتمالِ يُقدَّمُ على اليقينِ المُستحقَرِ ؛ فإنَّ كونَ الشَّيءِ عظيماً

---

(١) أورده الشريف في « نهج البلاغة » كما في « إتحاف السادة المتقين » (٤٣٢/٨) .

ومُستحقَراً إضافةً ، فلْيُنظَرْ إلىٰ مُنتهى العُمرِ وما يصفو مِنَ الدُّنيا للمُترفِّهينَ ، ولْيُنسَبْ إلىٰ ما اعتقدَهُ الفِرَقُ الثَّلاثُ مِن كمالِ السَّعادةِ الأُخرويَّةِ ودوامِها . . فيُعرَفُ بالبديهةِ استحقارُ ما يُعتاضُ عنها في الدُّنيا بالإضافةِ إليها .

❁ ❁ ❁

وإن كنتَ في الحالةِ الرَّابعةِ ؛ وهيَ **اعتقادُ صحَّةِ مذهبِ الفِرقةِ الرَّابعةِ . . فنخاطبُكَ علىٰ حدِّ جهلِكَ وقصورِكَ بوجهَينِ :**

أحدُهُما : أنَّكَ لم تَعتقِدْ هٰذا الاعتقادَ ببرهانٍ حقيقيٍّ ضروريٍّ لا يمكنُ الغَلَطُ فيهِ حتَّىٰ يُقالَ : تنبَّهتَ لنوعٍ مِنَ الدَّليلِ غفلَ عنهُ الأنبياءُ والأولياءُ والحكماءُ وكافَّةُ العقلاءِ ؛ فإنَّ الغلطَ إذا تطرَّقَ إلىٰ هٰؤلاءِ معَ كثرتِهِم وغزارةِ علومِهِم ، وطولِ نظرِهِم ، وكثرةِ مُعجِزاتِ أنبيائِهِم . . فبماذا تأمنُ الغلطَ في اعتقادِكَ ؟! وما الَّذي عصمَكَ ؟! فأقلُّ درجاتِكَ أن تُجوِّزَ الغلطَ علىٰ نفسِكَ .

وإنِ احتملَ عندَكَ صدقُ الجماهيرِ وغلطُكَ . . التحقتَ بالحالةِ الثَّالثةِ .

وإن لم تَتَّسِعْ نفْسُكَ لهٰذا التَّجويزِ[1] ؛ حتَّىٰ عرفتَ بطلانَ اعتقادِ الجماهيرِ ، واستحالةَ كونِ النَّفْسِ جوهراً باقياً بعدَ الموتِ ، أو مُعاداً بطريقِ البعثِ والنُّشورِ كما عرفتَ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، وأنَّ

---

(١) في (أ ، هـ) : (التحرير) بدل (التجويز) .

السَّوادَ والبياضَ لا يجتمعانِ . . فهٰذا الآنَ مِن سوءِ المِزاجِ وركاكةِ العقلِ ، ويَبعُدُ مثلُ هٰذا الأحمقِ عن قَبولِ العلاجِ ، ومثلُ هٰذا ممَّن قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ .

* * *

والوجهُ الثَّاني : أنَّ هٰذهِ الفِرقةَ إن أنكروا السَّعادةَ الأُخرويَّةَ . . لم ينكروا السَّعادةَ الدُّنيويَّةَ ، وأعلى السَّعاداتِ الدُّنيويَّةِ العزُّ والكرامةُ ، والمُكْنةُ والقدرةُ ، والسَّلامةُ مِنَ الغمومِ والهمومِ ، ودوامُ الرَّاحةِ والسُّرورِ ، وهٰذا أيضاً لا يفوزُ بهِ الإنسانُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ .

أمَّا العِلْمُ . . فليسَ يخفىٰ **دوامُ العِزِّ بهِ ؛ إذ لا يقبلُ العزلَ والإبطالَ** ؛ كعزلِ الولاةِ وإبطالِهِم ، ولا تخفىٰ لذَّةُ العالِمِ في عِلمِهِ ، وفيما ينكشفُ لهُ في كلِّ لحظةٍ مِن مُشكِلاتِ الأُمورِ ، لا سيَّما إذا كانَ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ والأُمورِ الإلٰهيَّةِ ، **وهٰذا لا يعرفُهُ مَن لم يَذُقْ لذَّةَ انكشافِ المُشكِلاتِ** .

ثمَّ إنَّها لذَّةٌ لا نهايةَ لها ؛ لأنَّ العلومَ لا نهايةَ لها ، ولا مُزاحَمةَ فيها ؛ لأنَّ المعلوماتِ تَتَّسِعُ للطُّلَّابِ وإن كثروا ، بلِ استئناسُ العالِمِ يزيدُ بكثرةِ شركائِهِ إذا كانَ يقصدُ بالعِلْمِ العِلْمَ دونَ حظٍّ مِنَ الدُّنيا ورئاستِها[1] ؛ فإنَّ الدُّنيا هيَ الَّتي تضيقُ عندَ المُزاحَمةِ ، وأمَّا اللَّذَّاتُ العقليَّةُ . . فلا تضيقُ بالمُزاحَمةِ ، بل تزدادُ سعةً بكثرةِ الطُّلَّابِ .

---

(١) في (ب ، ج ، د) : (حطام) بدل (حظ من) .

ثمَّ معَ أنَّها أوفى اللَّذَّاتِ عندَ مَن أَنِسَ بها . . **فهيَ أدومُها ؛ إذِ المُنعِمُ بها عليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ وملائكتُهُ** ، ولـٰكنْ عندَ إكبابِهِ على الطَّلبِ وتجرُّدِهِ لهُ .

ولذٰلكَ لا ترىٰ عاقلاً مِنَ الرُّؤساءِ والولاةِ إلَّا وهُم في خوفِ العزلِ يَتشوَّفونَ إلىٰ أن يكونَ عزُّهُم كعزِّ العلماءِ .

وأمَّا العملُ . . فلسْنا نعني بهِ : إلَّا رياضةَ الشَّهواتِ النَّفسانيَّةِ ، وضبطَ الغضبِ ، وكسرَ هـٰذهِ الصِّفاتِ لتصيرَ مُذعِنةً للعقلِ ، غيرَ مُستولِيةٍ عليهِ ، ومُستسخَرةٍ لهُ في ترتيبِ الحِيَلِ المُوصِلةِ إلىٰ قضاءِ الأوطارِ ؛ **فإنَّ مَن قهرَ شهوتَهُ . . فهوَ الحرُّ على التَّحقيقِ ، بل هوَ المَلِكُ** .

ولذٰلكَ قالَ بعضُ الزُّهَّادِ لبعضِ الملوكِ : (مُلْكي أعظمُ مِن مُلْكِكَ ، فقالَ : كيفَ ؟ قالَ : مَن أنتَ عبدُهُ . . فهوَ عبدي) ، **وأرادَ بهِ** : أنَّهُ عبدُ شهواتِهِ ، وشهواتُهُ صارَتْ مقهورةً لهُ ؛ **فعبدُ الشَّهواتِ العاجزُ عن كسرِها وقهرِها . . رقيقٌ وأسيرٌ بالطَّبعِ** ، لا يزالُ في عَناءٍ دائمٍ ، وتعبٍ مُتواترٍ ؛ إن قضىٰ وطرَهُ يوماً . . عَجزَ عنهُ أيَّاماً ، ثمَّ لا يخلو في قضائِهِ عن أخطارٍ وعلائقَ ومَشاقَّ يُضطَرُّ إلىٰ تقلُّدِها ، فتقليلُ الشَّهواتِ تقليلٌ لأسبابِ الغمومِ ، ولا سبيلَ إلىٰ إماطتِها إلَّا بالرِّياضةِ والمُجاهَدةِ ، وهوَ المرادُ بالعملِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً : العالِمُ العاملُ أحسنُ النَّاسِ حالاً عندَ مَن رأى السَّعادةَ مقصورةً على الدُّنيا ؛ فإنَّ الدُّنيا ليسَتْ تصفو لأحدٍ ، وليسَتْ تفي جدواها بمَشاقِّها (١) .

والمُمعِنُ في اتِّباعِ الشَّهواتِ والمُعرِضُ عنِ النَّظرِ في المعقولاتِ . . شقيٌّ في الدُّنيا بالاتِّفاقِ ، وشقيٌّ في الآخرةِ عندَ الفِرَقِ الثَّلاثِ ، إلَّا عندَ شِرذمةٍ مِنَ الحمقىٰ لا يُؤبَهُ لهُم ، ولا يُعبأُ بهِم ، ولا يُعَدُّونَ في زمرةِ العقلاءِ رأساً .

فقد بانَ : أنَّ الاستعدادَ للآخرةِ بالعِلْمِ والعملِ ضروريٌّ في العقلِ ، وأنَّ المُقصِّرَ فيهِ جاهلٌ .



فإن قلتَ : فما بالُ أكثرِ النَّاسِ يُقصِّرونَ فيهِ وهُم مؤمنونَ بالآخرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ سببَ ذٰلكَ : الغفلةُ عنِ التَّأمُّلِ في هٰذهِ الأُمورِ الَّتي ذكرْناها ، وأنَّ تلكَ الغفلةَ مُطَّردةٌ عليهِم ، مُستغرِقةٌ لأوقاتِهِم ، لا ينتهونَ عنها ما دامَتِ الشَّهواتُ مُتوالِيةً وهيَ كذٰلكَ ، وإنَّما المُنبِّهُ عليها واعظٌ زكيُّ السِّيرةِ ، وقد خلَتِ البلادُ عنهُ ، وإن فُرِضَ علىٰ ندورٍ . . لم يُلتفَتْ إليهِ .

وإنِ التُفِتَ إليهِ ، ووقعَ الإحساسُ بهِ في الحالِ ، وحسنَ العزمُ على التَّجرُّدِ للطَّاعةِ في الاستقبالِ . . هجمَتْ عَقِيبَ ذٰلكَ شهوةٌ مِنَ

---

(١) الجدوى : العطية ، والمستجدي : السائل .

الشَّهواتِ وأزالَتْ أثرَ التَّنبيهِ ، وأعادَتْ حجابَ الغفلةِ ، وعادَ الغافلُ لِمَا نُهِيَ عنهُ .

ولا يزالُ هٰكذا دأبُ كلِّ واحدٍ إلى الموتِ ، وعندَ ذٰلكَ لا يبقىٰ لهُ إلَّا التَّحسُّرُ بعدَ الفوتِ ، ولا يغني ذٰلكَ عنهُ شيئاً .

فنعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ ؛ فإنَّها مَنشَأُ كلِّ شقاوةٍ .

❋ ❋ ❋

بيان أنّ طريق السّعادة هو العلم والعمل

فإن قلتَ : قدِ اتَّضحَ لي أنَّ سلوكَ سبيلِ السَّعادةِ حزمُ العقلاءِ ، والتَّهاونَ بهِ غفلةُ الجُهَّالِ ، ولٰكنْ كيفَ يَسلُكُ الطَّريقَ مَن لا يَعرِفُهُ ؟! فبماذا أعلمُ أنَّ العِلْمَ والعملَ هوَ الطَّريقُ حتَّىٰ أشتغلَ بهِ ؟

فلكَ في معرفتِهِ طريقانِ :

أحدُهُما : جُمْليٌّ يُناسبُ المنهاجَ السَّابقَ ؛ وهوَ أن تلتفتَ إلىٰ ما اتَّفقَتْ عليهِ آراءُ الفِرَقِ الثَّلاثِ ، **وقد أجمعوا علىٰ أنَّ الفوزَ والنَّجاةَ لا تحصلُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ جميعاً** وإنِ اتَّفقوا علىٰ أنَّ العِلْمَ أشرفُ مِنَ العملِ ، وكأنَّ العملَ مُتمِّمٌ لهُ ، وسائقٌ بالعِلْمِ إلىٰ أن يقعَ موقعَهُ ؛ ولأجلِهِ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] ، **والكَلِمُ الطَّيِّبُ يرجعُ إلى العِلْمِ عندَ البحثِ** ؛ فهوَ الَّذي يصعدُ ويقعُ المَوقِعَ ، والعملُ كالخادمِ لهُ يرفعُهُ ويحملُهُ ، **وهٰذا تنبيهٌ علىٰ علوِّ رتبةِ العِلْمِ** .

ومذهبُ الفِرقةِ الأُولىٰ ـ وهُمُ المُتمسِّكونَ بالمفهومِ الأوَّلِ للجماهيرِ مِن ظواهرِ الشَّرعِ ـ غيرُ خافٍ في هٰذا ؛ إذ دلالةُ الشَّرعِ علىٰ ربطِ النَّجاةِ بالعِلْمِ والعملِ لا يمكنُ أن تُحصىٰ ، والصُّوفيَّةُ والفلاسفةُ والَّذينَ آمنوا باللهِ واليومِ الآخِرِ على الجملةِ وإنِ اختلفوا في الكيفيَّةِ . . **كلُّهُم مُتَّفِقونَ علىٰ أنَّ السَّعادةَ في العِلْمِ والعبادةِ** ، وإنَّما نظرُهُم

في تفصيلِ العِلْمِ والعملِ ، والتَّوقُّفُ معَ هٰذا الاتِّفاقِ حمقٌ .

فمَنِ استولَتْ عليهِ عِلَّةٌ ، واتَّفقَتْ كتبُ الأطبَّاءِ وأقوالُهُم على اختلافِ أصنافِهِم علىٰ أنَّ النَّافعَ لهٰذهِ العِلَّةِ المُبرِّداتُ . . فتوقُّفُ المريضِ فيهِ سَفَهٌ في عقلِهِ ، بل يقتضي عقلُهُ المُبادَرةَ إليهِ .

❋ ❋ ❋

نعم ؛ ربَّما يكونُ لهُ طريقٌ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ أن يَتحقَّقَ ذٰلكَ لا عن تقليدٍ للجماهيرِ ، بل عن تحقُّقٍ لحقيقةِ العِلَّةِ ، ووجهِ مُناسَبةِ المُبرِّداتِ لإزالتِها ، فينتهضُ بصيراً إذا نظرَ واستقلَّ ، وترقَّىٰ عن حضيضِ التَّقليدِ والاتِّباعِ إلىٰ ذروةِ الاستبصارِ .

فكذٰلكَ قدِ ادَّعى الصُّوفيَّةُ وفِرَقٌ سواهُم أنَّهُ يمكنُ الوصولُ إلىٰ دَرَكِ ذٰلكَ بالبصيرةِ والتَّحقيقِ ؛ **وذٰلكَ بأن تعرفَ ماهيَّةَ النَّفسِ** ، ثمَّ تعرفَ بقاءَها بعدَ تعطُّلِ البَدنِ بالموتِ ؛ **وذٰلكَ بأن تعرفَ حقيقةَ الموتِ** ، وأنَّهُ يرجعُ إلىٰ خروجِ الآلةِ عنِ الصُّلوحِ للاستعمالِ لا إلى انعدامِ المُستعمِلِ .

ثمَّ تعلمَ : أنَّ سعادةَ كلِّ شيءٍ ولذَّتَهُ وراحتَهُ في وصولِهِ إلىٰ كمالِهِ الخاصِّ بهِ .

ثمَّ تعلمَ : أنَّ الكمالَ الخاصَّ بالإنسانِ هوَ إدراكُ حقائقِ العقليَّاتِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، دونَ الشَّهواتِ والحِسِّيَّاتِ الَّتي تشاركُهُ الحيواناتُ فيها .

ثمَّ تعلمَ : أنَّ النَّفْسَ بالذَّاتِ مُتعطِّشةٌ إليهِ ، وبالفطرةِ مُستعِدَّةٌ لهُ ، وإنَّما يَصرِفُهُ عنهُ اشتغالُهُ بشهواتِ البَدنِ وعوارضِهِ مهما استولَتْ عليهِ .

ومهما كسرَ الشَّهواتِ وقهرَها ، وخَلَّصَ العقلَ عن رقِّها واستعبادِها إيَّاهُ ، وأكبَّ بالتَّفكُّرِ والنَّظرِ علىٰ مُطالَعةِ ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ ، بل علىٰ مُطالَعةِ نفْسِهِ وما خُلِقَ فيهِ مِنَ العجائبِ . . فقد وصلَ إلىٰ كمالِهِ الخاصِّ بهِ ، وقد سَعِدَ في الدُّنيا ؛ إذ لا معنىٰ للسَّعادةِ إلَّا نيلُ النَّفْسِ كمالَها المُمكِنَ لها ، وإن كانَتْ درجاتُ الكمالِ لا تنحصرُ .

ولٰكنْ لا يَشعُرُ بتلكَ اللَّذَّةِ ما دامَ في هٰذا العالَمِ ممنوعاً بالحسِّ والتَّخيُّلِ وعوارضِ النَّفْسِ ؛ كالَّذي عرضَ للطَّعمِ الألذِّ وفي ذوقِهِ خَدَرٌ ، فيزولُ الخدَرُ ، فيشعرُ باللَّذَّةِ المُفرِطةِ ، فالموتُ مثلُ زوالِ الخَدَرِ .

وقد سمعتُ مُقدَّماً مِن متبوعي الصُّوفيَّةِ يُصرِّحُ بأنَّ السَّالكَ إلى اللهِ تعالىٰ يرى الجنَّةَ وهوَ في الدُّنيا ، والفردوسُ الأعلىٰ معَهُ في قلبِهِ إن أمكنَهُ الوصولُ إليهِ ، وإنَّما الوصولُ إليهِ بالتَّجرُّدِ عن علائقِ الدُّنيا ، والإكبابِ بجملةِ همَّتِهِ على التَّفكُّرِ في الأُمورِ الإلٰهيَّةِ ؛ حتَّىٰ ينكشفَ لهُ بالإلهامِ الإلٰهيِّ جَلِيَّتُها ؛ وذٰلكَ عندَ تصفيتِهِ نفْسَهُ عن هٰذهِ الكدوراتِ .

والوصولُ إلىٰ ذٰلكَ هوَ السَّعادةُ ، والعملُ هوَ المُعينُ على الوصولِ إليهِ .

فهٰؤلاءِ فِرقةٌ ادَّعَـوُا المعرفةَ بمناسبةِ العِلْمِ والعملِ للسَّعادةِ ، فهٰذا هوَ المنهجُ الثَّاني ، والوصولُ إلى اليقينِ فيما قالوهُ شديدٌ ، وهوَ بزعمِهِم لا يُعرَفُ إلَّا بالمُجاهَدةِ والرِّياضةِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

فعليكَ بالمُجاهَدةِ ، والتَّجرُّدِ للطَّلبِ ، فربَّما ينكشفُ لكَ حقيقةُ الحالِ بالنَّفيِ أوِ الإثباتِ .

ويكفيكَ في الشُّروعِ في العِلْمِ والعملِ اتِّفاقُ الفِرَقِ الثَّلاثِ عليهِ إذا لم يكنْ غرضُكَ مِنَ السُّؤالِ الجدالَ ، بل كانَ غرضُكَ طلبَ الفوزِ ؛ كالمريضِ الَّذي يطلبُ الشِّفاءَ دونَ الجدالِ ؛ إذ يغنيهِ اتِّفاقُ أصنافِ الأطبَّاءِ فيهِ .

❋ ❋ ❋

بيان تزكية النفس وقواها واختلافها على سبيل المثال والإجمال

فإن قلتَ : قدِ اتَّضحَ لي أنَّ الاشتغالَ بالعِلْمِ والعملِ واجبٌ ، ولٰكنَّ العلومَ كثيرةٌ ، وكذا الأعمالُ ؛ فهيَ مُختلِفةٌ بالنَّوعِ ، ثمَّ بالمِقدارِ ، وليسَ يكفي العليلَ العِلْمُ بأنَّ العِلَّةَ تكفيها المُبرِّداتُ ما لم يَعلَمْ نوعَ المُبرِّدِ وقَدْرَهُ ، ووقتَ استعمالِهِ ، وترتيبَ استعمالِهِ في المُوالاةِ والتَّفريقِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يَتطرَّقُ إلىٰ تفاصيلِهِ مِنَ الاضطرابِ ، فلا بدَّ مِن بيانِ النَّوعِ ، ثمَّ بيانِ الكمِّيَّةِ ، ثمَّ بيانِ الكيفيَّةِ في الاشتغالِ بهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ النَّاسَ فيما سألتَهُ فريقانِ :

فريقٌ : قانعٌ بالتَّقليدِ ، وهوَ مُستغنٍ عنِ البحثِ ، ولٰكنْ ينهجُ السَّبيلَ الَّذي رسمَهُ لهُ مُقلِّدُهُ .

وفريقٌ آخَرُ : لا يُقلِّدونَ تقليدَ المريضِ للطَّبيبِ ، بل يَتشوَّفونَ إلىٰ أن ينالوا رتبةَ الأطبَّاءِ .

❀ ❀ ❀

والخَطْبُ في هٰذا عظيمٌ ، والمدىٰ طويلٌ ، وشروطُ هٰذا الأمرِ لا تظهرُ في الأعصارِ إلَّا لواحدٍ فردٍ شاذٍّ .

ولـكنَّا نُنبِّهُكَ بما يُرقِّيكَ عن حضيضِ التَّقليدِ ، ويهديكَ إلىٰ مَبدَأ الطَّريقِ ؛ فإن ساعدَكَ التَّوفيقُ ، وانبعثَ مِن نفْسِكَ داعيةُ الاستتمامِ . . توصَّلتَ إليهِ بالمُجاهَدةِ .

ولا يمكنُكَ معرفةُ ما تطلبُهُ إلَّا بأن تعرفَ أوَّلاً نفْسَكَ وقُواها وخواصَّها ، فكيفَ يَشتغِلُ بمعالجةِ زيدٍ مَن لا يعرفُ زيداً ؟!

والمُجاهَدةُ : مُعالَجةٌ للنَّفسِ بتزكيتِها لتفضيَ إلى الفلاحِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ ، ومَن لا يَعرِفُ الثَّوبَ . . لا يُتصوَّرُ منهُ السَّعيُ في إزالةِ وسخِهِ .

ولمَّا أن كانَ مِلاكُ الأمرِ معرفةَ النَّفْسِ . . عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَهُ ، ونسبَهُ إلىٰ نفْسِهِ تخصيصاً وإكراماً فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴿٧٢﴾ ﴾ ، فنبَّهَ بهِ علىٰ أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ مِن جسمٍ مُدرَكٍ بالبصرِ ، ونفْسٍ مُدرَكةٍ بالعقلِ والبصيرةِ لا بالحواسِّ ، وأضافَ جسدَهُ إلى الطِّينِ ، وروحَهُ إلىٰ نفْسِهِ ، **وأرادَ بالرُّوحِ** : ما نعنيهِ بالنَّفسِ ؛ **مُنبِّهاً أربابَ البصائرِ أنَّ النَّفْسَ الإنسانيَّةَ مِنَ الأُمورِ الإلـٰهيَّةِ** ، وأنَّها أجلُّ وأرفعُ مِنَ الأجسامِ الخسيسةِ الأرضيَّةِ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴿٨٥﴾ ﴾ .

وقيلَ : كانَ في كُتُبِ اللهِ المُنزَّلةِ : (اعرفْ نفْسَكَ يا إنسانُ . . تعرفْ ربَّكَ)[1] .

---

(١) انظر « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص٧٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ . . أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّهِ »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ تنبيهاً علىٰ تلازمِ الأمرَينِ ، وأنَّ نسيانَ أحدِهما معَ نسيانِ الآخرِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، وما أرادَ بهِ ظاهرَ الجسدِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ تبصرُهُ البهائمُ فضلاً عنِ النَّاسِ .

❀ ❀ ❀

وعلى الجملةِ : مَن جهلَ نفْسَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ .

ومِن رحمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ : أن جمعَ في شخصِ الإنسانِ علىٰ صِغَرِ حجمِهِ مِنَ العجائبِ ما يكادُ يُوازي عجائبَ كلِّ العالَمِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ نسخةٌ مُختصَرةٌ مِن هيئةِ العالَمِ ؛ ليَتوصَّلَ الإنسانُ بالفكرِ فيها إلى العِلْمِ باللهِ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

فإن قلتَ : فصِفْ لي مِن أمرِ النَّفْسِ جملةً مُشوِّقةً إلى التَّفصيلِ إن لم تَقدِرْ على استقصاءِ القولِ فيهِ حذراً مِنَ التَّطويلِ .

فاعلمْ : أنَّ للنَّفْسِ الحيوانيَّةِ على الجملةِ قُوَّتَينِ : إحداهُما : مُحرِّكةٌ ، والأُخرىٰ : مُدرِكةٌ .

---

(١) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص٧٣) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) .

والمُحرِّكةُ قسمانِ : باعثةٌ ، ومُباشِرةٌ للحركةِ .

فالمُباشِرةُ للحركةِ : هيَ القُوَّةُ الَّتي تنبعثُ في الأعصابِ والعضلاتِ ، ومِن شأنِها أن تُشنِّجَ العضلاتِ ؛ فتجذبَ الأوتارَ والرِّباطاتِ المُتَّصِلةَ بالأعصابِ إلىٰ نحوِ جهةِ المَبدَأ ، أو ترخيَها ؛ فتصيرَ الأعصابُ والرِّباطاتُ إلىٰ خلافِ جهةِ المَبدَأ ، وهـٰذهِ خادمةٌ للمُحرِّكةِ الباعثةِ .

❁ ❁ ❁

والمرادُ بالباعثةِ : القُوَّةُ النُّزوعيَّةُ الشَّوقيَّةُ الَّتي تبعثُ على الحركةِ مهما حصلَ في الخيالِ صورةُ شيءٍ مطلوبٍ أو مهروبٍ عنهُ ، فتَحمِلُ القُوَّةَ المُباشِرةَ للحركةِ على التَّحرُّكِ (١) .

ولهـٰذهِ الباعثةِ شُعبتانِ :

شُعبةٌ : تُسمَّىٰ : **شهوانيَّةً** ؛ وهيَ قُوَّةٌ تبعثُ علىٰ تحريكٍ يُقَرِّبُ بهِ مِنَ الأشياءِ الَّتي يعتقدُها صاحبُها ضروريَّةً أو نافعةً ؛ **طلباً للَّذَّةِ** .

والأُخرىٰ : تُسمَّىٰ : **غضبيَّةً** ؛ وهيَ قُوَّةٌ تبعثُ علىٰ تحريكٍ يَدفَعُ بهِ الشَّيءَ الَّذي يعتقدُ فيهِ أنَّهُ ضارٌّ أو مُفسِدٌ ؛ **طلباً للغلبةِ** .

❁ ❁ ❁

وأمَّا المُدرِكةُ . . فقسمانِ : ظاهرةٌ ، وباطنةٌ .

أمَّا الظَّاهرةُ . . **فهيَ الحواسُّ الخمسُ** ، ولسْنا نُطنِبُ في تحقيقِها

---

(١) قوله : (التحرك) : كذا في (أ) ، وفي باقي النسخ : (التحريك) .

وإن كانَ القولُ في معرفةِ حقائقِها طويلاً جدّاً ، ولـكنْ غرضُنا ذِكرُ المُجمَلِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الباطنةُ . . فخمسٌ :

الأُولى : الخياليَّةُ ؛ وهيَ الَّتي تبقىٰ فيها صورُ الأشياءِ المحسوسةِ بعدَ غيبتِها ؛ فإنَّ صورةَ المَرئيِّ تبقىٰ في الخيالِ بعدَ تغميضِ العينِ .

فتلكَ القُوَّةُ الَّتي فيها انطبعَ صورةُ المَرئيِّ تُسمَّىٰ : **خياليَّةً** ، وتُسمَّىٰ : **حِسّاً مُشترَكاً** ؛ إذ يبقىٰ فيهِ أثرُ المُدرَكاتِ بالحواسِّ الخمسِ كلِّها .

❁ ❁ ❁

الثَّانيةُ : الحافظةُ لذٰلكَ ؛ فإنَّ ما يُمسِكُ الشَّيءُ بهِ صورةَ الشَّيءِ غيرُ ما يقبلُهُ بهِ ؛ فالشَّمعُ يُمسِكُ النَّقْشَ بيُبوستِهِ ، ويقبلُهُ برطوبتِهِ ، والماءُ يقبلُ ولا يُمسِكُ .

وهٰذهِ القُوَّةُ ـ أعني : القابلَ لمُدرَكاتِ الحواسِّ الخمسِ والحافظَ لها ـ في التَّجويفِ الأوَّلِ مِن مُقدَّمِ الدِّماغِ ، فهوَ مَسكَنُهُ ، وبحلولِ آفةٍ بهِ تختلُّ هٰذهِ القُوَّةُ ، وعُرِفَ ذٰلكَ بعِلْمِ الطِّبِّ .

❁ ❁ ❁

الثَّالثةُ : القُوَّةُ الوهميَّةُ ؛ وهيَ قُوَّةٌ مُرتَّبةٌ في نهايةِ التَّجويفِ الأوسطِ مِنَ الدِّماغِ ، تُدرِكُ معانيَ غيرَ محسوسةٍ مِنَ المحسوساتِ

الجزئيَّةِ ؛ كالقُوَّةِ الحاكمةِ في الشَّاةِ بأنَّ الذِّئبَ مهروبٌ عنهُ ، وأنَّ الولدَ معطوفٌ عليهِ .

❁ ❁ ❁

الرَّابعةُ : الحافظةُ لهٰذهِ المعاني الَّتي ليسَتْ محسوسةً كما كانَ الثَّاني حافظاً للصُّوَرِ ؛ فهٰذهِ حافظةٌ للمعاني ، وتُسمَّىٰ : **ذاكرةً** ، ومَسكَنُهُ التَّجويفُ المُؤخَّرُ مِنَ الدِّماغِ .

❁ ❁ ❁

ولقد بقيَ التَّجويفُ الأوسطُ ؛ وهوَ مَسكَنُ **القُوَّةِ المُفكِّرةِ** ؛ وهيَ مُرتَّبةٌ بينَ خزانةِ الصُّوَرِ وخزانةِ المعاني ، **وشأنُها** : أن تُركِّبَ بعضَ ما في الخيالِ معَ بعضٍ ، وتَفصِلَ بعضاً عن بعضٍ ؛ بحسَبِ الاختيارِ .

والعادةُ جاريةٌ بذِكرِ هٰذا في القُوى المُدرِكةِ ، والأَولىٰ أن تُذكَرَ في جملةِ القُوى المُحرِّكةِ ؛ إذ ليسَ لها إدراكُ شيءٍ إلَّا بنوعِ حركةٍ ؛ بتفصيلِ مُركَّبٍ ، وتركيبِ مُفصَّلٍ ممَّا هوَ حاصلٌ في الخيالِ ، ولا يقدرُ علىٰ وضعِ شيءٍ مُستجَدٍّ ليسَ موجوداً في الخيالِ بحالٍ إلَّا بمُجرَّدِ التَّفصيلِ والتَّركيبِ .

وهٰذهِ القُوى الَّتي ذكرْناها تُشارِكُ فيها الحيواناتُ الإنسانَ إلَّا المُفكِّرةَ (١) ؛ فإنَّ في الحيوانِ شيئاً يقاربُهُ يُسمَّى : **المُتخيِّلةَ** ،

---

(١) والتي يعبَّر عنها بالناطقية ، وهي العلامة الفارقة لهٰذا الجنس .

ولا تنتهي قُوَّتُهُ إلىٰ حدِّ قُوَّةِ المُفكِّرةِ في الإنسانِ .

* * *

وأمَّا النَّفْسُ الإنسانيَّةُ مِن حيثُ إنَّها إنسانيَّةٌ . . فتنقسمُ قُواها : **إلىٰ قوَّةٍ عالِمةٍ ، وإلىٰ قوَّةٍ عاملةٍ** .

وقد يُسمَّىٰ كلُّ واحدٍ منهُما : **عقلاً** ، ولٰكنْ علىٰ سبيلِ الاسمِ المُشترَكِ ؛ إذِ العاملةُ سُمِّيَتْ (عقلاً) لكونِها خادمةً للعالِمةِ ، مُؤتمِرةً لها فيما ترسمُ .

فأمَّا العاملةُ . . فهيَ قُوَّةٌ ومعنىً للنَّفْسِ هوَ مَبدَأٌ لحركةِ بَدنِ الإنسانِ إلى الأفعالِ المُعيَّنةِ الجزئيَّةِ ، المُختصَّةِ بالفكرِ والرَّويَّةِ علىٰ ما تقتضيهِ مصلحتُها ، وهٰذهِ القُوَّةُ هيَ الَّتي ينبغي أن تتسلَّطَ علىٰ سائرِ قُوى البَدنِ ، وتسلُّطُها ينبغي أن يكونَ علىٰ ما تقتضيهِ القُوَّةُ العالِمةُ النَّظريَّةُ الَّتي سنذكرُها(١) ، وينبغي أن يكونَ سائرُ قُوى البَدنِ مقموعةً مغلوبةً دونَ هٰذهِ القُوَّةِ العمليَّةِ ؛ بحيثُ لا تنفعلُ هٰذهِ القُوَّةُ عنها ، وتلكَ القُوىٰ كلُّها تسكنُ وتتحرَّكُ بحسَبِ تأديبِ هٰذهِ القُوَّةِ وإشارتِها .

فإن صارَتْ مقهورةً . . حدثَ فيها هيئاتٌ انقياديَّةٌ للشَّهواتِ تُسمَّىٰ تلكَ الهيئاتُ : **أخلاقاً رديَّةً** .

وإذا كانَتْ مُتسلِّطةً . . حصلَتْ لها هيئاتٌ استيلائيَّةٌ تُسمَّىٰ : **فضيلةً ، وخُلُقاً حسناً** .

---

(١) انظر ما سيأتي (ص ٤٠ ـ ٤٣) .

ولا يَبعُدُ أن يُجعَلَ الخُلُقُ اسماً لِمَا يحصلُ في سائرِ الشَّهواتِ والقُوىٰ مِنَ الانقيادِ والتَّأدُّبِ ، أو لهٰذهِ القُوَّةِ مِنَ الاستيلاءِ والتَّأديبِ .

وبالجملةِ : لا يَبعُدُ أن يكونَ الخُلُقُ واحداً ولهُ نسبتانِ ؛ إذ هيئةُ الاستيلاءِ مِن هٰذهِ القُوَّةِ تلازمُها هيئةُ الانقيادِ مِن سائرِ القُوىٰ ، وهوَ المرادُ بالخُلُقِ المحمودِ .

❁ ❁ ❁

وعلى الجملةِ : فالنَّفْسُ أمرٌ شريفٌ إلٰهيٌّ أجلُّ مِن أن يُدرَكَ بالحواسِّ الخمسِ ، بل يُدرَكُ بالعقلِ ؛ أي : يُستدَلُّ عليها بآثارِها وأفعالِها .

ولها نسبتانِ : نسبةٌ إلى **الجَنْبَةِ الَّتي تحتَهُ** ، ونسبةٌ إلى **الجَنْبَةِ الَّتي هيَ فوقَهُ** .

ولها بحسَبِ كلِّ جَنْبَةٍ قُوَّةٌ بها تنتظمُ العلاقةُ بينَها وبينَ تلكَ الجَنْبَةِ .

فهٰذهِ القُوَّةُ العمليَّةُ هيَ القُوَّةُ الَّتي لها بالقياسِ إلى الجَنْبَةِ الَّتي دونَها ؛ وهوَ البَدنُ وتدبيرُهُ وسياستُهُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا القُوَّةُ العالِمةُ النَّظريَّةُ الَّتي سنذكرُها(١) .. فهيَ لها بالقياسِ

---

(١) أي : التي نبه على ذِكرها في الصفحة السابقة .

إلى الجَنْبةِ الَّتي فوقَها ؛ لتنفعلَ وتستفيدَ منها ؛ أعني : جَنْبةَ الملائكةِ المُوكَّلةِ بالنُّفوسِ الإنسانيَّةِ لإفاضةِ العلومِ عليها ؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تحصلُ فينا مِنَ اللهِ تعالىٰ بواسطةٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا . . . ﴿٥١﴾ ﴾ الآيَة .

فكانَ للنَّفْسِ منها وجهانِ :

وجهٌ إلى البَدنِ : ويجبُ أن يكونَ هٰذا الوجهُ مُستولِياً غيرَ قابلٍ ألبتَّةَ ، ولا مُنفعِلٍ عن عوارضِ البَدنِ وشهواتِهِ .

ووجهٌ إلى الجَنْبةِ الشَّريفةِ العاليةِ : ويجبُ أن يكونَ هٰذا الوجهُ دائمَ القَبولِ عمَّا هنالكَ ، مُستمِرَّ التَّأثُّرِ بهِ ؛ فإنَّها مَهبِطُ أسبابِ سعادتِهِ .

وهٰذهِ القُوَّةُ النَّظريَّةُ العالِمةُ هيَ الَّتي مِن شأنِها أن تَتلقَّى المعانيَ الكلِّيَّةَ المُجرَّدةَ عنِ العوارضِ الَّتي تجعلُها محسوسةً جزئيَّةً ، كما ذكرْنا معنى الكلِّيِّ في كتابِ « معيارِ العِلْمِ »[1] .

❁ ❁ ❁

ثمَّ هٰذهِ القُوَّةُ بالنِّسبةِ إلى العلومِ الَّتي تحصلُ فيها على ثلاثِ مراتبَ :

أُولاها : نسبةُ حالِ الطِّفلِ ؛ فإنَّ الطِّفلَ فيهِ قُوَّةٌ للكتابةِ ، ولٰكنْ قُوَّةٌ بعيدةٌ مِنَ الفعلِ ، فكذا قُوَّةُ العِلْمِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) معيار العلم (ص ٧٥) .

الرُّتبةُ الثَّانيةُ : أن يَحصُلَ فيها جملةٌ مِنَ المعقولاتِ الأوَّليَّةِ الضَّروريَّةِ ؛ كحالِ الصَّبيِّ المُميِّزِ المُراهِقِ للبلوغِ ، وتكونُ هٰذهِ كقُوَّةِ الصَّبيِّ بالإضافةِ إلى الكتابةِ بعدَ أن عرفَ الدَّواةَ ، والقلمَ ، والحروفَ المُفرَدةَ دونَ المُركَّبةِ ؛ فإنَّهُ قاربَ الأمرَ ، لا كابنِ المهدِ ؛ إذ ليسَ فيهِ على الكتابةِ إلَّا قُوَّةٌ مُطلَقةٌ بعيدةٌ عنِ الفعلِ .

❀ ❀ ❀

الرُّتبةُ الثَّالثةُ : أن تَحصُلَ المعقولاتُ المُكتسَبةُ كلُّها بالفعلِ ، وتكونَ كالمخزونةِ عندَهُ ؛ فإذا شاءَ . . رجعَ إليها ، ومهما رجعَ . . تَمكَّنَ منها ، وحالُهُ في العلومِ حالُ الكاتبِ الحاذقِ الصَّانعِ الغافلِ عنِ الكتابةِ ؛ فإنَّهُ مُستعِدٌّ لها بالقُوَّةِ القريبةِ استعداداً في غايةِ الكمالِ .

وهٰذهِ نهايةُ رتبةِ الدَّرجةِ الإنسانيَّةِ ، ولٰكنْ في هٰذهِ الرُّتبةِ درجاتٌ لا تُحصىٰ ، تختلفُ بكثرةِ المعلوماتِ وقِلَّتِها ، وبشرفِ المعلوماتِ وخِسَّتِها ، وبطريقِ تحصيلِها ؛ أنَّها تحصلُ : بإلهامٍ إلٰهيٍّ ، أو بتعلُّمٍ واكتسابٍ ، وأنَّهُ سريعُ الحصولِ ، أو بطيءُ الحصولِ .

وفي هٰذا العِلْمِ تتباينُ منازلُ العلماءِ والحكماءِ ، والأولياءِ والأنبياءِ ، وبحسَبِ التَّفاوتِ فيهِ تتفاوتُ مناصبُهُم ، ودرجاتُ الرُّقيِّ فيهِ غيرُ محدودةٍ ولا محصورةٍ .

وأقصى الرُّتَبِ : درجةُ النَّبيِّ الَّذي تنكشفُ لهُ كلُّ الحقائقِ أو أكثرُها مِن غيرِ اكتسابٍ وتكلُّفٍ ، بل بكشفٍ إلٰهيٍّ في أسرعِ وقتٍ ، وهٰذهِ

هيَ السَّعادةُ الَّتي تحصلُ للإنسانِ فتُقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ زُلفىٰ ، تقريباً لا بالمكانِ والمسافةِ ، ولٰكنْ بالمعنىٰ والحقيقةِ .

* * *

والأدبُ يقتضي قَبْضَ عِنانِ البيانِ في هٰذا المقامِ ؛ فقدِ انتهى الأمرُ بطائفةٍ إلىٰ أنِ ادَّعَوُا اتِّحاداً وراءَ القُرْبِ ؛ فقالَ بعضُهُم : (سبحاني) ، وقالَ آخَرُ : (أنا الحقُّ) ، وعَبَّرَ آخَرُ بالحلولِ ، وعبَّرَ النَّصارىٰ عنهُ باتِّحادِ اللَّاهوتِ بالنَّاسوتِ [١] ؛ حتَّىٰ قالوا في عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِ : (إنَّهُ ابنُ اللهِ) تعالى اللهُ عن قولِ الظَّالمينَ عُلُوّاً كبيراً [٢] .

* * *

وبالجملةِ : فمنازلُ السَّائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ لا تنحصرُ ، وإنَّما يَعرِفُ كلُّ سالكٍ المَنزلَ الَّذي بلغَهُ في سلوكِهِ ، فيَعرِفُهُ ، ويَعرِفُ ما خلفَهُ مِنَ المنازلِ ، وأمَّا ما هوَ بينَ يدَيهِ . . فلا يُحيطُ بحقيقتِهِ إلَّا بطريقِ الجملةِ والإيمانِ بالغيبِ ، **فلا يَعرِفُ حقيقةَ رتبةِ النُّبوَّةِ إلَّا النَّبيُّ** .

وكما لا يَعرِفُ الجنينُ حالَ الطِّفلِ ، ولا الطِّفلُ حالَ المُميِّزِ وما انفتحَ لهُ مِنَ العلومِ الضَّروريَّةِ ، ولا المُميِّزُ حالَ العاقلِ وما اكتسبَهُ مِنَ العلومِ النَّظريَّةِ . . **فلا يَعرِفُ عاقلٌ ما انفتحَ علىٰ أولياءِ اللهِ**

---

(١) اللاهوت : الخالق ، والناسوت : المخلوق .

(٢) قوله : (ابن) : كذا في (د) ، وفي باقي النسخ : (نصف) .

تعالىٰ وأنبيائِهِ مِن مزايا لطفِهِ ورحمتِهِ ، و﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

فهٰذِهِ الرَّحمةُ مبذولةٌ بحُكمِ الجُودِ الإلٰهيِّ ، غيرُ مضنونٍ بها علىٰ أحدٍ ، ولٰكنْ لا بدَّ مِنَ الاستعدادِ للقَبولِ ؛ بتزكيةِ النَّفْسِ ، وتطهيرِها عنِ الخبثِ والكدورةِ .

وكما أنَّ الصُّورةَ المُتلوِّنةَ ليسَ فيها منعٌ مِن أن تنطبعَ في الحديدِ الخبيثِ ، بلِ الحجابُ مِن جهةِ الحديدِ في صَدَئِهِ وخبثِهِ ، وافتقارِهِ إلىٰ صيقلٍ يجلوهُ ويزيلُ خبثَهُ وينحِّيهِ[1] . . **فهٰكذا ينبغي أن تعتقدَ الأمرَ مِن جانبِكَ ومِن جانبِ الرَّحمةِ الإلٰهيَّةِ** ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا »[2] .

ولذٰلكَ عَبَّرَ عن غايةِ الجُودِ والبذلِ مِن ذٰلكَ الجانبِ بأدلِّ العباراتِ على الشَّوقِ والرَّغبةِ ، فقالَ : « يَنْزِلُ ٱللهُ تَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ ٱلدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَرْحِمٍ فَأَرْحَمَهُ ؟ »[3] .

وقالَ : « لَقَدْ طَالَ شَوْقُ ٱلْأَبْرَارِ إِلَىٰ لِقَائِي ، وَإِنِّي إِلَىٰ لِقَائِهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقاً »[4] .

---

(١) الصيقل : الذي يشحذ السيوف ويجلوها .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/٢٣٣ ـ ٢٣٤) عن سيدنا محمد بن مسلمة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

(٤) أورده أبو شجاع الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٨٠٦٧) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه ، وانظر « المغني عن حمل الأسفار » (٢٥٨٦) .

وقالَ : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً . . تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي . . أَتَيْتُهُ أُهَرْوِلُ »[1] .

وعليكَ أن تستقريَ مِنَ القرآنِ والأخبارِ ما يُناظرُ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ خارجٌ عنِ الحصرِ والإحصاءِ .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٨/٩١) برقم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

بيان كيفيّة ارتباط قوى النّفس بعضها ببعض

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ القُوىٰ مُتفاوِتةُ الرُّتَبِ ؛ فإنَّ بعضَها أُرِيدَتْ لنفْسِها ، وبعضَها أُرِيدَتْ لغيرِها ، وبعضَها خادمةٌ ، وبعضَها مخدومةٌ .

والرَّئيسُ المُطلَقُ منها : هيَ الَّتي تُرادُ لنفْسِها ، ويُرادُ غيرُها لها ، وليسَ ذٰلكَ إلَّا للرُّتبةِ الأخيرةِ في القُوَّةِ النَّظريَّةِ الَّتي هيَ مَنبَعُ كشفِ الحقائقِ الإلٰهيَّةِ ، وفيها تتفاوتُ رُتَبُ الأولياءِ والأنبياءِ ؛ فإنَّ الإنسانَ لم يُخلَقْ إلَّا لِمَا هوَ مِن خاصِّيَّتِهِ ، وما عدا القُوى المخصوصةَ بالنَّفْسِ الإنسانيَّةِ يُشارِكُها فيهِ الحيواناتُ .

فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ علىٰ رتبةٍ بينَ البهيمةِ والمَلَكِ ، وفيهِ جملةٌ مِنَ القُوىٰ والصِّفاتِ ، فهوَ مِن حيثُ يَتغذَّىٰ ويَنْسِلُ . . فنباتٌ ، ومِن حيثُ يُحِسُّ ويتحرَّكُ . . فحيوانٌ ، ومِن حيثُ صورتُهُ وقامتُهُ . . فكالصُّورةِ المنقوشةِ علىٰ حائطٍ ، **وإنَّما خاصِّيَّتُهُ الَّتي لأجلِها خُلِقَ : قُوَّةُ العقلِ ، ودَرَكُ حقائقِ الأشياءِ** .

فمَنِ استعملَ جميعَ قُواهُ علىٰ وجهِ التَّوصُّلِ بها إلى العِلْمِ والعملِ . . فقد تَشبَّهَ بالملائكةِ ، فحقيقٌ بأن يلحقَ بهِم ، وجديرٌ بأن يُسمَّىٰ : مَلَكاً وربَّانيّاً ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ومَن صرفَ همَّتَهُ إلى اتِّباعِ اللَّذَّاتِ البدنيَّةِ يأكلُ كما تأكلُ الأنعامُ . .

فقد نزلَ إلىٰ أُفقِ البهائمِ ، فيصيرُ : **إمَّا غُمْراً** ؛ كثورٍ ، **وإمَّا شَرِهاً**[1] ؛ كخنزيرٍ ، **وإمَّا ضَرِعاً**[2] ؛ ككلبٍ ، **أو حَقوداً** ؛ كجَمَلٍ ، **أو مُتكبِّراً** ؛ كنَمِرٍ ، **أو ذا رَوَغانٍ** ؛ كثعلبٍ ، **أو يجمعُ ذٰلكَ كلَّهُ** ؛ كشيطانٍ مَريدٍ .

* * *

وبالجملةِ : مَن تَصفَّحَ القُوى الَّتي ذكرْناها . . عرفَ أنَّ مُقتضياتِ العقلِ مِن أرفعِها وأعلاها ، فلْينظرْ بعينِ التَّعجُّبِ كيفَ يَخدُمُ بعضُها بعضاً خدمةً ضروريَّةً عليها فُطِرَتْ ، ولا تستطيعُ مُخالَفةَ أمرِ اللهِ تعالىٰ فيها .

فإنَّ العقلَ هوَ الرَّئيسُ المخدومُ ، ويَخدُمُهُ وزيرُهُ ، وهوَ أقربُ الأشياءِ إليهِ ؛ وهوَ العقلُ العمليُّ الَّذي سمَّيْناهُ : قُوَّةً عاملةً بحسَبِ مراسمِ العقلِ ؛ لأنَّ العقلَ العمليَّ لأجلِ تدبيرِ البَدنِ ، والبَدنُ آلةُ النَّفْسِ ومَركَبُهُ ؛ ليقتنصَ بهِ بواسطةِ الحواسِّ مبادئَ العلومِ ، ويستنبطَ منهُ حقائقَ الأُمورِ .

ثمَّ العقلُ العمليُّ يَخدُمُهُ الوهمُ ، والوهمُ يَخدُمُهُ قُوَّتانِ : **قُوَّةٌ بعدَهُ ، وقُوَّةٌ قبلَهُ** .

فالقُوَّةُ الَّتي بعدَهُ : هيَ القُوَّةُ الحافظةُ لِمَا أدركَهُ الوهمُ وأدَّاهُ إليهِ .

والقُوَّةُ الَّتي قبلَهُ : هيَ جميعُ القُوى الحيوانيَّةِ على التَّرتيبِ الَّذي سنذكرُهُ .

---

(١) الشَّرِه : شديد الحرص .

(٢) الضَّرِع : الضعيف المغلوب الذليل .

ومِن جملتِها : المُتخيّلةُ ؛ أعني : المُفكِّرةَ ، ويَخدُمُها قُوّتانِ مُختلِفتا المَأخَذِ .

فالقُوَّةُ النُّزوعيَّةُ الشَّوقيَّةُ تَخدُمُها قُوَّتانِ بالائتمارِ ؛ لأنَّ انبعاثَها إلى الحركةِ بالتَّخيُّلِ والفكرِ .

والقُوَّةُ الحافظةُ للصُّوَرِ الَّتي في الحسِّ المُشترَكِ تَخدُمُها بقَبولِ التَّركيبِ والتَّفصيلِ فيما فيهِ مِن صورِها .

ثمَّ هٰذانِ رئيسانِ لطائفتَينِ :

أمَّا الحافظةُ للصُّوَرِ . . فيَخدُمُها المُشترَكُ برفعِ الصُّوَرِ إليها حتَّىٰ تحفظَ .

وأمَّا القُوَّةُ النُّزوعيَّةُ . . فتَخدُمُها الشَّهوةُ والغضبُ .

والشَّهوةُ والغضبُ تَخدُمُهُما القُوَّةُ المُحرِّكةُ للعَضَلِ ، وعندَ هٰذا تفنى القُوى الحيوانيَّةُ .

والقُوى الحيوانيَّةُ بالجملةِ تَخدُمُها النَّباتيَّةُ .

والقُوى النَّباتيَّةُ ثلاثٌ : المُولِّدةُ ، والمُربِّيةُ المُنمِّيةُ ، والمُغذِّيةُ .

وأرأسُها المُولِّدةُ ، وتَخدُمُها المُربِّيةُ ، والغاذيةُ تخدُمُهُما جميعاً .

ثمَّ يَخدُمُ هٰذهِ[1] القُوى الأربعُ الَّتي هيَ : **الجاذبةُ ، والماسكةُ ، والهاضمةُ ، والدَّافعةُ** ؛ إذ لا بدَّ في النَّباتِ مِن قُوَّةٍ جاذبةٍ للغذاءِ إليها ،

---

(١) أي : القوة الغاذية ؛ فهو مفعول (يخدم) ، وما بعده فاعله .

ثمَّ ماسكةٍ لهُ ، ثمَّ هاضمةٍ تهضِمُ ما أمسكَتْهُ الماسكةُ ، ثمَّ دافعةٍ تدفعُ الفَضْلةَ .

والدَّافعةُ هيَ الخادمةُ الَّتي لا خادمَ لها ، وكأنَّها كالكَنَّاسِ في نظامِ أمرِ البلدِ .

ثمَّ الحرارةُ والبُرودةُ والرُّطوبةُ واليُبوسةُ تَخدُمُ القُوَّةَ الهاضمةَ ، والجاذبةَ ، والماسكةَ ، والدَّافعةَ ، وهٰذهِ آخِرُ درجاتِ القُوىٰ في الأجسامِ .

❁ ❁ ❁

وقد ضُرِبَ للقُوى المُدرِكةِ مثالٌ يُقرِّبُها إلىٰ أفهامِ العوامِّ ، فقيلَ :

القُوَّةُ المُفكِّرةُ ومَسكَنُها وَسَطُ الدِّماغِ : بمنزلةِ المَلِكِ يسكنُ وَسَطَ المملكةِ .

والخياليَّةُ ومَسكَنُها مُقدَّمُ الدِّماغِ : جاريةٌ مَجرىٰ صاحبِ بريدِهِ ؛ إذ تجتمعُ الأخبارُ عندَهُ .

والحافظةُ الَّتي مَسكَنُها مُؤخَّرُ الدِّماغِ : جاريةٌ مَجرىٰ خازنِهِ .

والقُوَّةُ النَّاطقةُ : جاريةٌ مَجرىٰ تُرْجُمانِهِ .

والعاملةُ : جاريةٌ مَجرىٰ كاتبِهِ .

والحواسُّ : جاريةٌ مَجرى الجواسيسِ وأصحابِ الأخبارِ الصَّادقي اللَّهجةِ فيما يرفعونَهُ مِنَ الأخبارِ ، فيلتقطُ كلُّ واحدٍ الخبرَ مِنَ الصُّقْعِ

الَّذي وُكِلَ بهِ[1] ؛ إذِ البصرُ مُوكَّلٌ بعالَمِ الألوانِ ، والسَّمعُ مُوكَّلٌ بعالَمِ الأصواتِ ، وهٰكذا الجميعُ ، فيرفعونَ هٰذهِ الأخبارَ إلىٰ صاحبِ البريدِ ، وصاحبُ البريدِ يُسقِطُ ما يراهُ حَشْواً ، ويرفعُ الباقيَ صافياً إلىٰ حضرةِ المَلِكِ ، فيُميِّزُهُ ويَعرِفُ منافعَهُ ومَضارَّهُ ، ويُسلِّمُهُ إلىٰ خازنِهِ إلىٰ وقتِ الحاجةِ إليهِ ، فحينئذٍ يَتقدَّمُ بإخراجِهِ .

وكما أنَّ الأعمالَ الَّتي يتولَّاها المَلِكُ بنفْسِهِ أشرفُ ممَّا يَستعمِلُ فيهِ غيرَهُ . . فكذٰلكَ ما تتولَّاهُ النَّفْسُ الَّتي هيَ المَلِكُ بالحقيقةِ بواسطةِ الفكرةِ ؛ مِنَ الرَّويَّةِ والاعتبارِ ، والقياسِ والفِراسةِ ، واستنباطِ المجهولِ بتوسُّطِ المعلومِ ، والاطِّلاعِ على الأسرارِ الخفيَّةِ . . أشرفُ ممَّا تستعملُ فيهِ هٰذهِ الخدمَ .

وهٰذا المثالُ قريبٌ ممَّا رُوِيَ : أنَّ كعبَ الأحبارِ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ ، فقلتُ : « ٱلْإِنْسَانُ عَيْنَاهُ هَادٍ ، وَأُذُنَاهُ قِمْعٌ ، وَلِسَانُهُ تُرْجُمَانٌ ، وَيَدَاهُ جَنَاحَانِ ، وَرِجْلَاهُ بَرِيدٌ ، وَٱلْقَلْبُ مَلِكٌ ، فَإِذَا طَابَ ٱلْمَلِكُ . . طَابَ جُنُودُهُ » ، فقالَتْ : (هٰكذا سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ)[2] .

فهٰذهِ جُمَلٌ مِن أحوالِ النَّفْسِ تلوْناها عليكَ علىٰ سبيلِ الاقتصارِ ، وإنَّها بعضُ عجائبِ النَّفْسِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) الصُّقْع : الناحية من البلاد ، والجهة ، والمحلة .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٨٥١) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٧٣٨) .

ولو نظرتَ في تشريحِ الأعضاءِ ، وفحصتَ عن عددِ العروقِ والأعصابِ ، والعضلِ والعظامِ ، والشَّرايينِ والأوردةِ ، ثمَّ إلى الأعضاءِ الآليَّةِ الَّتي أُعِدَّتْ للنَّفْسِ ، ولجذبِ الطَّعامِ ، ثمَّ لهضمِهِ ، ثمَّ لدفعِهِ ، وإلى الآلاتِ الَّتي خُلِقَتْ للتَّناسلِ ، ورأيتَ العجائبَ في خدمةِ بعضِها لبعضٍ بالضَّرورةِ ، ثمَّ بعدَ فراغِكَ مِن تشريحِ الأجسامِ نظرتَ في تفصيلِ قُوىٰ تلكَ الأجسامِ ، واستقصيتَهُ بمعرفةِ حقائقِ العلومِ الطِّبِّيَّةِ . . **لقضيتَ منها آخِرَ العجبِ .**

فتعساً لمَن كفرَ باللهِ ، وغفَلَ عن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ، بل وفي كلِّ شيءٍ لهُ شاهدٌ يدلُّ علىٰ أنَّهُ واحدٌ .

ومَن لم يؤمنْ باللهِ تعالىٰ على الجملةِ . . فليسَ مِنَ العقلاءِ ، وهوَ أخسُّ مِن أن يُخاطَبَ بمثلِ هٰذهِ الكلماتِ ، وإنَّما كلامُنا معَ مَن صَدَّقَ بالجملةِ ، فندعوهُ إلى البحثِ عن صنعِ اللهِ لتزدادَ في قلبِهِ عظمةُ اللهِ وجلالُهُ ، ويزدادَ بسببِهِ يقينُهُ وإيمانُهُ ، ويتفاقمَ بهِ تعظيمُهُ وإجلالُهُ .

وكلُّ ما لا يُدرَكُ بالحواسِّ ، وإنَّما يُدرَكُ بالعقلِ بواسطةِ آثارِهِ . . فسبيلُ استقصاءِ معرفتِهِ استقصاءُ النَّظرِ في آثارِهِ .

بل نضربُ مثالاً يَقرُبُ مِن فهمِ الخَلْقِ كافَّةً :

فما مِن فقيهٍ إلَّا وقدِ اعتقدَ في المذكورينَ مِنَ العلماءِ ؛ مثلِ الشَّافعيِّ وأبي حنيفةَ وغيرِهما . . رتبةً تتقاضاهُ التَّعظيمَ ، وهٰذا يَشترِكُ فيهِ الخَلْقُ ، ولٰكنْ ليسَ مَن يَتصفَّحُ تصنيفَ مُصنِّفٍ ، فيرىٰ فيهِ

عجائبَ صنعتِهِ ، وبدائعَ حِذْقِهِ . . يبقى اعتقادُهُ في التَّعظيمِ علىٰ ما كانَ عليهِ قبلَ معرفتِهِ ، بل لا يزالُ يَطَّلعُ علىٰ صنعةٍ غريبةٍ لهُ في كلامِهِ وتصنيفِهِ أو شعرِهِ ، وتزدادُ نفْسُهُ لهُ تعظيماً وتوقيراً واعتقاداً .

فمَن عرفَ أنَّ اللهَ تعالىٰ صانعُ العالَمِ . . كمَن عرفَ أنَّ زيداً مُتميّزٌ عن غيرِهِ بكونِهِ ناظمَ ديوانٍ ومُصنِّفَ كتابٍ ، وأينَ هـٰذا مِنِ اعتقادِ مَن تَصفَّحَ الشِّعرَ ؛ فرأىٰ عجائبَهُ ، وطالعَ التَّصنيفَ وهوَ مِن أهلِ الفضلِ ؛ فرأىٰ غرائبَهُ ؟! فهـٰذا يعتقدُ عظمتَهُ ورتبتَهُ اعتقاداً راسخاً عن تحقيقٍ وبصيرةٍ ، والآخَرُ يعتقدُهُ اعتقاداً ضعيفاً مُجمَلاً ، غيرَ مُؤكَّدٍ بالبصيرةِ والتَّحقيقِ (١) .

فهـٰذا هوَ الفرقُ بينَ رتبةِ العوامِّ وذوي البصائرِ في هـٰذا الأمرِ الواحدِ .

والعالَمُ بما فيهِ مِنَ العجائبِ تصنيفُ اللهِ تعالىٰ وتأليفُهُ ، وإبداعُهُ واختراعُهُ ، والنَّفْسُ جزءٌ مِن أجزاءِ العالَمِ ، وكلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ العالَمِ مشحونٌ بالعجائبِ ، فلا يزالُ الباحثُ عنها مُستفيداً زيادةَ اعتقادٍ وتأكيدَ إيمانٍ ؛ ولذٰلكَ حثَّ اللهُ تعالىٰ على التَّفكُّرِ في الأنفُسِ والآفاقِ ، وملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ .

* * *

(١) في هامش (ب) : (قوبلت) .

بيان نسبة العمل من العلم وإنتاج السّعادة

الَّـذي اتَّـفقَ عليهِ الـمُتصوِّفونَ مِـنَ الـصُّـوفيَّةِ بأجمعِهِـم[1] ، وساعدَهُم مِنَ النُّظَّارِ طوائفُ سواهُـم . . أنَّ تأثيرَ العملِ لإزالةِ ما لا ينبغي ، والسَّعيَ في العِلْمِ سعيٌ في تحصيلِ ما ينبغي ، وإزالةَ ما لا ينبغي شرطٌ لتفريغِ المحلِّ لِمَا ينبغي ، والمشروطُ هوَ المقصودُ ، وهوَ أشرفُ مِنَ الشَّرطِ .

ومثالُهُ : أنَّ مَن أرادَ استيلادَ امرأةٍ بها عِلَّةٌ تمنعُ العُلوقَ . . **فعليهِ وظيفتانِ** :

إحداهُما : إماطةُ العِلَّةِ المُفسِدةِ للمحلِّ ، المانعةِ مِنَ العُلوقِ .

والأُخرىٰ : إيداعُ النُّطفةِ بعدَ إزالةِ العِلَّةِ المانعةِ .

فالأُولىٰ شرطٌ للثَّانيةِ ، والثَّانيةُ هيَ الغايةُ المطلوبةُ .

وإذا فرضتَ داراً بُنِيَتْ لمَلِكٍ ، وزُيِّنَتْ بأنواعِ الزِّينةِ لنزولِ المَلِكِ في تلكَ الدَّارِ ، وقدِ اغتصبَها القردةُ والخنازيرُ . . **فجمالُ الدَّارِ وكمالُها موقوفٌ علىٰ أمرَينِ** :

أحدُهُما : إزعاجُ النَّازلينَ فيها بغيرِ حقٍّ .

والآخَرُ : نزولُ المُستحِقِّ .

---

(١) في (ج ، د) : (المتصرفون) بدل (المتصوفون) .

وإذا فرضْنا مِرآةً صَدِئةً سترَ الخبثُ صفاءَها ، ومنعَ انطباعَ صورِنا فيها . . فكمالُ المِرآةِ في أن تستعِدَّ لقَبولِ الصُّورِ فتحكيَها كما هيَ عليهِ ، **وعلىٰ مُكمِّلِها وظيفتانِ** :

إحداهُما : الجِلاءُ والصَّقْلُ ؛ وهوَ إزالةُ الخبثِ الَّذي ينبغي ألَّا يكونَ .

والثَّانية : أن يحاذيَ بها نحوَ المطلوبِ حكايةُ صورتِهِ .

فكذٰلكَ نفْسُ الآدميِّ بالقُوَّةِ مُستعِدَّةٌ لأن تصيرَ مِرآةً يُحاذىٰ بها شطرُ الحقِّ في كلِّ شيءٍ ، فتنطبعُ بهِ كأنَّها هوَ مِن وجهٍ وإن كانَتْ غيرَهُ مِن وجهٍ آخَرَ ؛ كما في الصُّوَرِ والمِرآةِ .

وكمالُها في مثلِ هٰذهِ الدَّرجةِ ، وهٰذهِ خاصِّيَّتُها الَّتي فارقَتْ بها ما تحتَها مِنَ الحيواناتِ ؛ **إذ هٰذا الاستعدادُ مسلوبٌ عنِ الحيواناتِ كلِّها ـ سوى الآدميِّ ـ بالقُوَّةِ والفعلِ جميعاً** ؛ كما انسلبَ عنِ التُّرابِ والخشبِ الاستعدادُ لحكايةِ الصُّوَرِ ، وأن يكونَ مرآةً لها .

وهوَ موجودٌ بالفعلِ أبداً للملائكةِ لا يفارقُها ؛ كما أنَّهُ موجودٌ للماءِ الصَّافي ؛ فإنَّهُ يحكي الصُّورَ بطبعِهِ حكايةً مخصوصةً .

وهوَ موجودٌ للآدميِّ بالقُوَّةِ لا بالفعلِ :

فإن جاهدَ نفْسَهُ حتَّىٰ أخرجَ ما فُطِرَ فيهِ بالقُوَّةِ إلى الفعلِ . . فقد كَمَّلَ نفْسَهُ ، والتحقَ بأُفُقِ الملائكةِ .

وإنِ استمرَّ على الأسبابِ المُوجبةِ لتراكُمِ الخبثِ علىٰ مِرآةِ نفْسِهِ

باتِّباعِ الشَّهواتِ . . اسودَّ قلبُهُ ، وتراكمَتْ ظلمتُهُ ، وبطَلَ بالكلِّيَّةِ استعدادُهُ ، والتحقَ بأُفُقِ البهائمِ ، وحُرِمَ عن سعادتِهِ وكمالِهِ حرماناً أبديّاً لا تداركَ لهُ .

فإذاً : **العملُ معناهُ**(١) : كسرُ الشَّهواتِ ؛ بصرفِ النَّفْسِ عن صَوْبِها إلى الجَنْبَةِ العاليةِ الإلـٰهيَّةِ(٢) ؛ لتنمحيَ عنِ النَّفْسِ الهيئاتُ الخبيثةُ ، والعلائقُ الرَّديَّةُ الَّتي ربطَتْها بالجَنْبَةِ السَّافلةِ ، حتَّىٰ إذا انمحَتْ تلكَ العلائقُ أو ضَعُفَتْ . . حُوذِيَ بها نحوَ النَّظرِ في الحقائقِ الإلـٰهيَّةِ ، **ففاضَتْ عليهِ مِن جهةِ اللهِ تعالىٰ تلكَ الأُمورُ الشَّريفةُ كما فاضَتْ على الأنبياءِ والأولياءِ والصِّدِّيقينَ** .

وذٰلكَ صيدٌ يَتَّفقُ علىٰ قَدْرِ الرِّزقِ ، وبحُكمِ الأصلِ فيهِ يزيدُ الاستعدادُ ، كما يَعرِضُ مِن زيادةِ الاستعدادِ بالأسبابِ في اقتناصِ الصَّيدِ ، بل في اقتناصِ الرِّبحِ في التِّجارةِ ، بل في اقتناصِ فِقْهِ النَّفْسِ ؛ فإنَّ القليلَ الاجتهادِ قد يجاوزُ حدَّ المُجتهِدِ بمزيدِ ذكاءٍ فطريٍّ . . فكذا طهارةُ النَّفْسِ عن هـٰذهِ العلائقِ في أوَّلِ الفطرةِ في غايةِ الاختلافِ ، ثمَّ الجهدُ أيضاً يختلفُ ، وينشأُ مِن ذٰلكَ تفاوتٌ لا ينحصرُ ، فكذا سعادةُ الآخرةِ .

وفيضانُ هـٰذهِ الرَّحمةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ على النَّفْسِ غايةُ

---

(١) في (أ) : (معيار) بدل (معناه) .

(٢) الصوب : الجهة .

المطلوبِ ، وهوَ عينُ السَّعادةِ الَّتي تبقىٰ للنَّفْسِ بعدَ الموتِ ، ولـٰكنَّها مشروطةٌ بإزالةِ العلائقِ ، ومَحْوِ الصِّفاتِ الرَّديَّةِ الَّتي تأكَّدَتْ في النَّفْسِ باتِّباعِ الشَّهواتِ .

❊ ❊ ❊

فإذاً : العملُ يرجعُ إلى المُجاهَدةِ بإزالةِ ما لا ينبغي .

وإذا نُسِبَ إلىٰ إزالةِ اتِّباعِ الشَّهواتِ . . ظهرَتْ فضيلتُهُ .

وإن نُسِبَ إلىٰ تحصيلِ ما ينبغي . . كانَ رتبتُهُ منهُ مرتبةَ الشَّرطِ مِنَ المشروطِ ، والخادمِ مِنَ المخدومِ ، وما أُريدَ لغيرِهِ بالنِّسبةِ إلىٰ ما أُريدَ لنفْسِهِ .

وعليهِ نَبَّهَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذ قالَ : « ٱلْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً ، أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ ٱلْأَذَىٰ عَنِ ٱلطَّرِيقِ »[1] ، والمُجاهَدةُ بالعباداتِ أكثرُ أغراضِها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطَّريقِ .

ولقائلٍ أن يقولَ : المرادُ بالحديثِ : التقاطُ الزُّجاجِ والعَظْمِ والحجارةِ مِنَ الشَّوارعِ ، وإنَّ هـٰذا هوَ السَّابقُ إلىٰ فهمِ الأكثرينَ .

ولقائلٍ آخَرَ أن يقولَ : إنَّ النَّاسَ يتفاوتونَ في فهمِ معاني الألفاظِ علىٰ حسَبِ تفاوتِ رُتبِهِم ؛ ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نَضَّرَ ٱللهُ ٱمْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ، ثُمَّ أَدَّاهَا كَمَا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

سَمِعَهَا ؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »[1] ، فلولا أنَّ في ألفاظِهِ ما يسبقُ إلىٰ فهمِ غيرِ الفقيهِ ، خلافَ ما يسبقُ إلىٰ فهمِ الفقيهِ . . لَمَا كَثُرَتِ الوصيَّةُ بذٰلكَ .

ثمَّ ليتَ شِعري ؛ إذا رُوعِيَتِ الكثرةُ . . وُجِدَتْ في جانبِ الفقيهِ أوِ الأفقهِ أو في جانبِ غيرِهِم ؟!

ولا شكَّ أنَّ هٰذا عزيزٌ نادرٌ ، والغالبُ خلافُهُ ؛ وهُمُ الجماهيرُ .

فالسَّابقُ إلىٰ فهمِ الجماهيرِ يكادُ الحقُّ يُجانبُهُ ويَنحازُ إلىٰ ما يفهمُهُ الفقيهُ أوِ الأفقهُ ، لا سيَّما في لفظٍ لا يُصرِّحُ بالتَّخصيصِ ؛ فإنَّ لفظَ (الأذىٰ) عامٌّ ، ولفظَ (الطَّريقِ) عامٌّ ، ولو أُريدَ الخاصُّ . . لذَكَرَ الزُّجاجَ أوِ المدرَ ، ونَبَّهَ بهِ علىٰ أمثالِهِ .

وذٰلكَ الظَّاهرُ أيضاً مُندرِجٌ تحتَ العمومِ ؛ فإنَّهُ بذٰلكَ العملِ أيضاً يُصلِحُ نفسَهُ ويُهذِّبُ خُلُقَهُ[2] ، ويُميطُ عنِ النَّفْسِ رذيلةَ الغفلةِ والقساوةِ وقِلَّةِ الشَّفقةِ علىٰ ما سنذكرُهُ في تفصيلِ سوءِ الأخلاقِ وحسنِها[3] .

فقد عرفتَ : أنَّ سعادةَ النَّفْسِ كمالُها ، وأنَّ كمالَها أن تَنْتَقِشَ بحقائقِ الأُمورِ الإلٰهيَّةِ ، وتَتَّحدَ بها حتَّىٰ كأنَّها هيَ ، وأنَّ ذٰلكَ لا يكونُ إلَّا بعدَ تطهيرِ النَّفْسِ عن هيئاتٍ رديَّةٍ تقتضيها الشَّهوةُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وابن ماجه (٢٤٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) في (أ) : (العلم) بدل (العمل) .

(٣) انظر ما سيأتي (ص ٩٩) وما بعدها .

والغضبُ ؛ وذٰلكَ بالـمُجاهَدةِ والعملِ ، فالعملُ للطَّهارةِ ، والطَّهارةُ شرطُ ذٰلكَ الكمالِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ ٱلدِّينُ عَلَى ٱلنَّظَافَةِ »(١) .

* * *

(١) أخرجه أبو الصعاليك الطرسوسي في « جزئه » كما في « التدوين في أخبار قزوين » (١/١٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

بيان مفارقة طريق الصّوفيّة في جانب العلم طريق غيرهم

اعلمْ : أنَّ جانبَ العملِ مُتَّفَقٌ عليهِ ، وأنَّهُ مقصودٌ لمحوِ الصِّفاتِ الرَّديَّةِ ، وتطهيرِ النَّفْسِ مِنَ الأخلاقِ السَّيِّئةِ ، **ولـٰكنْ جانبُ العِلْمِ مُختلَفٌ فيهِ** ، ويُبايِنُ فيهِ طريقُ الصُّوفيَّةِ طريقَ النُّظَّارِ مِن أهلِ العِلْمِ ؛ **فإنَّ الصُّوفيَّةَ لم يُحرِّضوا علىٰ تعلُّمِ العلومِ ودراستِها ، وتحصيلِ ما صَنَّفَهُ المُصنِّفونَ في البحثِ عن حقائقِ الأُمورِ .**

بل قالوا : الطَّريقُ تقديمُ المُجاهَدةِ بمحوِ الصِّفاتِ المذمومةِ ، وقطعِ العلائقِ كلِّها ، والإقبالِ بكُنْهِ الهِمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، ومهما حصلَ ذٰلكَ . . فاضَتْ عليهِ الرَّحمةُ ، وانكشفَ لهُ سرُّ الملكوتِ ، وظهرَتْ لهُ الحقائقُ .

وليسَ عليهِ إلَّا الاستعدادُ بالتَّصفيةِ المُجرَّدةِ ، وإحضارُ الهِمَّةِ معَ الإرادةِ الصَّادقةِ ، والتَّعطُّشُ التَّامُّ ، والتَّرصُّدُ بالانتظارِ لِمَا يفتحُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الرَّحمةِ ؛ إذِ الأنبياءُ والأولياءُ انكشفَتْ لهُمُ الأُمورُ ، وسَعِدَتْ نفوسُهُم بنيلِ كمالِها المُمكِنِ لها لا بالتَّعلُّمِ ، بل بالزُّهدِ في الدُّنيا ، والإعراضِ والتَّبرّي عن علائقِها ، والإقبالِ بكُنْهِ الهِمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، فمَن كانَ للهِ . . كانَ اللهُ تعالىٰ لهُ .

حتَّىٰ إنَّ في الوقتِ الَّذي صدقَتْ فيهِ رغبتي بسلوكِ هـٰذا الطَّريقِ . . شاورتُ متبوعاً مُقدَّماً في الصُّوفيَّةِ في المواظبةِ علىٰ تلاوةِ القرآنِ ، فمنعَني عنهُ وقالَ :

السَّبيلُ : أن تقطعَ علائقَكَ عنِ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ ؛ بحيثُ لا يَلتفِتُ قلبُكَ إلىٰ أهلٍ وولدٍ ، ومالٍ ووطنٍ ، وعِلْمٍ وولايةٍ ، بل تصيرُ إلىٰ حالةٍ يستوي عندَكَ وجودُها وعدمُها .

ثـمَّ تخلوَ بنفْسِكَ في زاويـةٍ تقتصرُ مِنَ العبادةِ على الفرائضِ والرَّواتبِ ، وتجلسُ فارغَ القلبِ ، مجموعَ الهمِّ ، مُقبِلاً بذِكرِكَ على اللهِ تعالىٰ .

وذٰلكَ في أوَّلِ الأمرِ ؛ بأن تواظبَ باللِّسانِ علىٰ ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تزالُ تقولُ : (الله ، الله ، الله) معَ حضورِ القلبِ وإدراكِهِ لمعناهُ إلىٰ أن تنتهيَ إلىٰ حالةٍ لو تركتَ تحريكَ اللِّسانِ . . لرأيتَ كأنَّ الكلمةَ جاريةٌ علىٰ لسانِكَ ؛ لكثرةِ اعتيادِهِ .

ثمَّ تصيرَ مواظباً عليهِ إلىٰ أن ينمحيَ أثرُ اللِّسانِ ، فتصادفَ نفْسَكَ وقلبَكَ مُواظِبَينِ علىٰ هٰذا الذِّكرِ مِن غيرِ حركةِ اللِّسانِ .

ثـمَّ تواظبَ إلىٰ ألَّا يبقىٰ في قلبِكَ إلَّا معنى اللَّفظِ ، ولا يَخطُرَ ببالِكَ حروفُ اللَّفظِ وهيئاتُ الكلمةِ ، بل يبقى المعنى المُجرَّدُ حاضراً في قلبِكَ على اللُّزومِ والدَّوامِ .

ولكَ اختيارٌ إلىٰ هٰذا الحدِّ فقطْ ، ولا اختيارَ بعدَهُ لكَ إلَّا في الاستدامةِ بدفعِ الوساوسِ الصَّارفةِ ، ثمَّ ينقطعُ اختيارُكَ ، فلا يبقىٰ لكَ إلَّا الانتظارُ لِمَا يظهرُ مِن فتوحٍ ظهرَ مِثلُهُ للأنبياءِ والأولياءِ (١) .

---

(١) في (هـ) : (. . . ظهر مثله للأولياء ، وهو بعض ما يظهر للأنبياء) .

ثَمَّ ما يظهرُ : قد يكونُ أمراً كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ثمَّ يعودُ ، وقد يَتأَخَّرُ ، وإن عادَ . . فقد يثبتُ ، وقد يكونُ مُختطَفاً ، وإن ثبتَ . . فقد يطولُ ثباتُهُ ، وقد لا يطولُ ، وقد يتظاهرُ أمثالُهُ على التَّلاحقِ ، وقد يقتصرُ علىٰ فنٍّ واحدٍ .

ومنازلُ أولياءِ اللهِ فيهِ لا تُحصىٰ ؛ كما لا يُحصىٰ تفاوتُ صورِهم وخلقِهِم وأخلاقِهِم .

فهٰذا منهاجُ الصُّوفيَّةِ ، وقد ردُّوا الأمرَ إلىٰ تطهيرٍ محضٍ مِن جانبِكَ ، وتصفيةٍ وجِلاءٍ ، ثمَّ استعدادٍ وانتظارٍ فقطْ .



وأمَّا النُّظَّارُ . . فلم يُنكروا وجودَ هٰذا الطَّريقِ ، وإفضاءَهُ إلى المقصودِ ، وهوَ أكثرُ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ ، ولٰكنِ استوعروا هٰذا الطَّريقَ ، واستبعدوا إفضاءَهُ إلى المقصودِ ، **وزعموا** : أنَّ محوَ العلائقِ إلىٰ ذٰلكَ الحدِّ بالاجتهادِ . . كالمُمتنِعِ ، وإن حصلَ في حالةٍ . . فثباتُهُ أبعدُ منهُ ؛ إذ أدنىٰ وسواسٍ وخاطرٍ يُشوِّشُ ، وفي أثناءِ هٰذهِ المُجاهَدةِ قد يَفسُدُ المِزاجُ ، ويختلطُ العقلُ ، ويمرضُ البَدنُ ، ويُفضي إلى المالَنْخُوليا (١) .

وإذا لم تكنِ النَّفْسُ قدِ ارتاضَتْ بالعلومِ الحقيقيَّةِ البرهانيَّةِ . . تشبَّثَتْ بالخاطرِ خيالاتٌ يظنُّها حقائقَ ، فينزلُ عليها ، فكم مِن صوفيٍّ

(١) المالنخوليا : مرض عقليٌّ ، يُفسد التفكير ، ويغلب على المصاب به الغم والحزن والتشاؤم .

بقيَ في خيالٍ واحدٍ عشرَ سنينَ إلىٰ أن تَخلَّصَ عنهُ !! ولو كانَ قد أتقنَ العلومَ أوَّلاً . . لَتخلَّصَ منهُ على البديهةِ .

❁ ❁ ❁

فالاشتغالُ بتحصيلِ العلومِ بمعرفةِ معيارِ العِلْمِ ، وبتحصيلِ براهينِ العلومِ المُفصَّلةِ أوَّلاً ؛ فإنَّهُ يسوقُ إلى المقصودِ سِياقةً موثوقاً بها ، كما يُوثَقُ بالاجتهادِ في أن يُحَصِّلَ فقهَ النَّفْسِ .

وقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقيهَ النَّفْسِ مِن غيرِ اجتهادٍ ، ولـٰكنْ لو أرادَ مُريدٌ أن ينالَ رتبتَهُ بمُجرَّدِ الرِّياضةِ فقطْ . . لوقعَ موقعاً بعيداً .

فلا بدَّ مِن تحصيلِ نقْشِ العلومِ الحقيقيَّةِ في النَّفْسِ بطريقِ البحثِ والنَّظرِ علىٰ غايةِ الإمكانِ ؛ وذٰلكَ بتحصيلِ ما حَصَّلَهُ الأوَّلونَ أوَّلاً ، ثمَّ لا بأسَ بعدَ ذٰلكَ بالانتظارِ لِمَا لم ينكشفْ للعلماءِ الباحثينَ ؛ فإنَّ ما لم ينكشفْ مِنَ الأُمورِ الإلـٰهيَّةِ للخَلْقِ أكثرُ ممَّا انكشفَ .

فهـٰذا بيانُ تباينِ الفريقَينِ .

❁ ❁ ❁

وقد خطرَ لي مثالٌ لا يَبعُدُ أن يكونَ مُنبِّهاً للأفهامِ الضَّعيفةِ المُفتقِرةِ إلى الأمثلةِ المحسوسةِ في دَرَكِ الحقائقِ العقليَّةِ ، ومُعرِّفاً لوجهِ الفَرْقِ بينَ المقامَينِ : **فقد حُكِيَ أنَّ أهلَ الصِّينِ والرُّومِ تباهَوا بحُسْنِ صناعةِ النَّقْشِ والصُّوَرِ بينَ يدَيْ بعضِ الملوكِ** ، فاستقرَّ رأيُ المَلِكِ علىٰ أن

يُسلِّمَ إليهِم صُفَّةً يَنقُشُ أهلُ الصِّينِ منها جانباً ، وأهلُ الرُّومِ جانباً ، ويُرخىٰ بينَهُم حجابٌ بحيثُ لا يَطَّلِعُ كلُّ فريقٍ علىٰ صاحبِهِ ، فإذا فرغوا . . رُفِعَ الحجابُ ، ونُظِرَ إلى الجانبَينِ ، وعُرِفَ رجحانُ مَن رجحَ مِنَ الفريقَينِ .

ففُعِلَ ذٰلكَ ، وجمعَ أهلُ الرُّومِ مِنَ الأصباغِ الغريبةِ ما لا ينحصرُ ، ودخلَ أهلُ الصِّينِ وراءَ الحجابِ مِن غيرِ صِبْغٍ ، وهُم يَجْلونَ جانبَهُم ويَصقُلونَهُ ، والنَّاسُ يَتعجَّبونَ مِن توانيهِم في طلبِ الصِّبْغِ .

فلمَّا فرغَ أهلُ الرُّومِ . . ادَّعىٰ أهلُ الصِّينِ أنَّا أيضاً قد فرغْنا ، فقيلَ لهُم : كيفَ فرغتُم ولم يكنْ معَكُم صِبْغٌ ، ولا اشتغلتُم بنقْشٍ ؟! فقالوا : ما عليكُمْ ، ارفعوا الحجابَ ، وعلينا تصحيحُ دعوانا .

فرفعوا الحجابَ ؛ فإذا بجانبِهِم قد تلألأَ فيهِ جميعُ الصَّنائعِ الرُّوميَّةِ الغريبةِ ؛ إذ كانَ قد صارَ كالمِرآةِ بكثرةِ التَّصفيةِ والجِلاءِ ، فازدادَ حُسْنُ جانبِهِم بمزيدِ الصَّفاءِ ، وظهرَ فيهِ ما شَقِيَ في تحصيلِهِ غيرُهُم .

❀ ❀ ❀

فقدِّرْ كأنَّ النَّفْسَ محلُّ نقْشِ العلومِ الإلٰهيَّةِ ، **ولكَ في تحصيلِهِ طريقانِ** :

أحدُهُما : تحصيلُ عينِ النَّقْشِ بطريقِ أهلِ الرُّومِ .

والثَّاني : الاستعدادُ لقَبولِ النَّقْشِ مِن خارجٍ .

والخارجُ ها هنا : اللَّوحُ المحفوظُ ، ونفوسُ الملائكةِ ؛ فإنَّها منقوشةٌ

بالعلومِ الحقيقيَّةِ نقْشاً بالفعلِ على الدَّوامِ ، كما أنَّ دماغَكَ منقوشٌ بالقرآنِ كلِّهِ إن كنتَ حافظاً لهُ ، وكذٰلكَ جملةُ علومِكَ ، لا نقْشاً يُحَسُّ ويُبصَرُ ، ولٰكنْ نوعاً مِنَ الانتقاشِ عقليّاً يُنكرُهُ مَنِ اقتصرَتْ بهِ خساسةُ نفْسِهِ على المحسوساتِ ، ولم يَترقَّ عنها .

❋ ❋ ❋

بيان الأولى من الطريقين

فإن قلتَ : فقد مَهَّدتَ للسَّعادةِ طريقَينِ مُتباينَينِ ، فأيُّهُما أَولىٰ عندَكَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الحُكمَ في مثلِ هٰذهِ الأُمورِ بحسَبِ الاجتهادِ الَّذي يقتضيهِ حالُ المُجتهِدِ ومقامُهُ الَّذي هوَ فيهِ .

والحقُّ الَّذي يلوحُ لي ـ والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ فيهِ : أنَّ الحُكمَ بالنَّفيِ والإثباتِ في هٰذا على الإطلاقِ خطأٌ ، بل يختلفُ بالإضافةِ إلى الأشخاصِ والأحوالِ .

فكلُّ مَن رغبَ في السُّلوكِ بعدَ كِبَرِ سنِّهِ . . فالأَولىٰ بهِ أن يقتصرَ علىٰ طريقِ الصُّوفيَّةِ ؛ وهوَ المواظبةُ على العبادةِ ، وقطعُ العلائقِ ؛ فإنَّ البحثَ عنِ العلومِ الكسبيَّةِ لتَحصُلَ مَلَكَةٌ ثابتةٌ في النَّفْسِ أيضاً شديدٌ ، ولا يَتيسَّرُ إلَّا في عنفوانِ العُمرِ ، فالتَّعلُّمُ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ في الحَجَرِ ، ومِنَ العَناءِ رياضةُ الهَرِمِ .

وقيلَ لمَن كانَ يُعلِّمُ شيخاً : ماذا تفعلُ ؟ فقالَ : أغسلُ مِسْحاً ، فعساهُ يبيضُّ .

وقد خرجَ مِن هٰذا : أنَّ الأَولىٰ بأكثرِ الخَلْقِ الاشتغالُ بالعملِ ، والاقتصارُ مِنَ العِلْمِ على القَدْرِ الَّذي يَعرِفُ بهِ العملَ ؛ فإنَّ الأكثرَ لا ينتبهونَ لهٰذا الأمرِ في عنفوانِ الشَّبابِ .

وإن تَنبَّهَ في عنفوانِ الشَّبابِ . . نَظَرَ إلىٰ طبعِهِ وذكائِهِ ؛ فإن عَلِمَ أنَّهُ لا يَستعِدُّ لفهمِ الحقائقِ العقليَّةِ الدَّقيقةِ . . وجبَ عليهِ أن يشتغلَ بالعملِ أيضاً ، فلا فائدةَ في اشتغالِهِ بالعلومِ النَّظريَّةِ الحقيقيَّةِ ، وهُمُ الأكثرونَ مِنَ الأقلِّ الَّذي نَعتْناهُ .

فإن كانَ ذكيّاً قابلاً للعلومِ ؛ فإن لم يكنْ في بلدِهِ أو في العصرِ مُستقِلٌّ بالعلومِ النَّظريَّةِ الحقيقيَّةِ مُترَقٍّ عن رتبةِ تقليدِ مَن سبَقَهُ[1] . . فالأَولىٰ بهِ العملُ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العلومَ لا يمكنُ تحصيلُها إلَّا بمُعلِّمٍ ، وإلَّا . . فليسَ في القُوَّةِ البشريَّةِ في شخصٍ واحدٍ الوصولُ فيها إلَّا إلىٰ قليلٍ بطولِ الزَّمانِ .

ولذٰلكَ لو لم يكنْ عِلْمُ الطِّبِّ مثلاً صارَ مُفنَّناً مُرتَّباً مُتقَناً بالخواطرِ المُتعاونةِ في الأزمنةِ المُتطاولةِ . . لَافتقرَ أذكى النَّاسِ إلىٰ عُمرٍ طويلٍ في معرفةِ علاجِ عِلَّةٍ واحدةٍ فضلاً عنِ الجميعِ .

والغالبُ في البلادِ الخلوُّ عن مثلِ هـٰذا العالِمِ المُستقِلِّ .

❁ ❁ ❁

فإذاً : لم يبقَ إلَّا **قليلٌ مِن قليلٍ** ؛ وهوَ ذكيٌّ تَنبَّهَ في عنفوانِ عُمرِهِ لهـٰذا الأمرِ ، وهوَ مُستعِدٌّ لفهمِ العلومِ ، وصادفَ عالِماً مُستقِلّاً بالعلومِ تحقيقاً ، لا اسماً ورسماً كما ترىٰ مِن أكثرِ العلماءِ ؛ فإنَّهُم إمَّا مُقلِّدونَ في أعيانِ المذاهبِ ، أو في أعيانِ المذاهبِ وأدلَّةِ تلكَ

---

(١) مستقل بالعلوم : ضابط لها ، ومنفرد بها انفراداً لا مشارك له فيه .

المذاهبِ جميعاً على الوجهِ الَّذي يَتلقَّونَها مِن أربابِ المذاهبِ ، وكلُّ مُقلِّدٍ أعمىٰ ، فلا خيرَ في متابعةِ العميانِ وأتباعِهِم .

أو شابٌّ نشأَ في طلبِ العِلْمِ وهوَ ذكيٌّ في نفْسِهِ ، وتَنبَّهَ لهُ بعدَ الارتياضِ بأنواعِ العلومِ ، ولٰكنْ لا بهٰذا النَّوعِ مِنَ العِلْمِ الَّذي نبغيهِ .

فمِثلُ هٰذا الشَّخصِ مُستعِدٌّ للطَّريقَينِ جميعاً ، فالأَولىٰ بهِ أن يُقدِّمَ طريقَ التَّعلُّمِ ، فيُحصِّلَ مِنَ العلومِ البرهانيَّةِ الحقيقيَّةِ ما بالقُوَّةِ البشريَّةِ إدراكُها بالجهدِ والتَّعلُّمِ ، فقد كفى المؤونةَ فيهِ تعبُ مَن قبلَهُ .

فإذا حَصَّلَ ذٰلكَ علىٰ قَدْرِ إمكانِهِ ، حتَّىٰ لم يبقَ مِن جنسِ هٰذهِ العلومِ إلَّا وقد حَصَّلَهُ . . فلا بأسَ بعدَهُ أن يُؤثِرَ الاعتزالَ عنِ الخَلْقِ ، والإعراضَ عنِ الدُّنيا ، والتَّجرُّدَ للهِ تعالىٰ ، وأن ينتظرَ ؛ فعساهُ ينفتحُ لهُ بذٰلكَ الطَّريقِ ما التبسَ علىٰ سالكي هٰذا الطَّريقِ .

هٰذا ما أراهُ ، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

وقد خرجَ منهُ : أنَّ الصَّوابَ لأكثرِ الخَلْقِ الاشتغالُ بالعملِ ، **ومِنَ العِلْمِ** : بالعِلْمِ العمليِّ ؛ أعني : ما يُعرَفُ بهِ كيفيَّةُ العملِ ؛ فإنَّ العِلْمَ العمليَّ ليسَ بأشرفَ مِنَ العملِ ، بل هوَ دونَهُ ؛ فإنَّهُ مرادٌ لهُ ، دونَ العِلْمِ الَّذي يُرادُ منهُ المعلومُ لا ليعملَ ؛ كالعِلْمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، والعِلْمِ بالنَّفْسِ وصفاتِها ، والعِلْمِ بملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ وغيرِهِ ؛ فهٰذهِ العلومُ نظريَّةٌ وليسَتْ بعمليَّةٍ وإن كانَ

قد يَنتفِعُ بها في العملِ علىٰ سبيلِ العَرَضِ لا علىٰ سبيلِ القصدِ .

ولكونِ الصَّوابِ في العملِ لأكثرِ الخَلْقِ . . استقصى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأمرَ فيهِ تفصيلاً وتأصيلاً ، حتَّىٰ عَلَّمَ الخَلْقَ الاستنجاءَ وكيفيَّتَهُ ، ولمَّا آلَ الأمرُ إلى العلومِ النَّظريَّةِ . . أجملَ ولم يُفصِّلْ ، ولم يذكرْ مِن صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلَّا أنَّهُ : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ .

نعم ؛ بعدَ إجمالِ العِلْمِ ذَكَرَ مِن تعظيمِهِ وتشريفِهِ وتقديمِهِ على العملِ ما لا يكادُ يُحصىٰ ؛ كقولِهِ : « تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً »(١) .

وكقولِهِ : « فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِ ٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ [عَلَىٰ سَائِرِ ٱلْكَوَاكِبِ] »(٢) . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

ثمَّ ذٰلكَ العِلْمُ المُقدَّمُ على العملِ لا يخلو :

إمَّا أن يكونَ هوَ العِلْمَ بكيفيَّةِ العملِ ؛ وهوَ عِلْمُ الفقهِ ، وعِلْمُ كيفيَّةِ العباداتِ .

وإمَّا أن يكونَ عِلْماً سواهُ .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ، وأبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٢١) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٦٣٦) ، والترمذي (٢٦٨٢) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه مطولاً .

وباطلٌ أن يكونَ الأَوَّلُ هوَ المرادَ ؛ لوجهَينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ فَضَّلَ العالِمَ على العابدِ ، والعابدُ هوَ الَّذي لهُ عِلْمٌ بالعبادةِ ، فإن كانَ جاهلاً . . فهوَ عابثٌ فاسقٌ .

والثَّاني : أنَّ العِلْمَ بالعملِ لا يكونُ أشرفَ مِنَ العملِ ؛ لأنَّ العِلْمَ العمليَّ لا يُرادُ لنفْسِهِ ، وإنَّما يُرادُ للعملِ ، وما يُرادُ لغيرِهِ يستحيلُ أن يكونَ أشرفَ منهُ .

❋ ❋ ❋

بيان جنس العلم والعمل الموصلَيْن إلى جنة المأوى

فإن قلتَ : العلومُ أصنافُها كثيرةٌ ، والأعمالُ أنواعُها مُختلِفةٌ ، وليسَ الكلُّ مطلوباً ، فما الصِّنفُ النَّافعُ حتَّىٰ أشتغلَ بهِ ؟

فأقولُ : **أمَّا العِلْمُ** . . فينقسمُ إلى : **العمليّ** ، **والنَّظريّ** .

أمَّا النَّظريُّ . . فكثيرٌ ، ولٰكنْ كلُّ عِلْمٍ يُتصوَّرُ أن يختلفَ بالأعصارِ والبلدانِ والأُممِ . . فلا يبقىٰ كمالاً في النَّفْسِ أبدَ الدَّهرِ ، ونحنُ نبتغي مِنَ العِلْمِ تبليغَ النَّفْسِ كمالَها ؛ لتَسعَدَ بكمالِها مُبتهِجةً بما لها مِنَ الجمالِ والبهاءِ أبدَ الدَّهرِ .

فخرجَ عنِ الحسابِ : العِلْمُ باللُّغاتِ ومُوجَباتِ الألفاظِ ؛ كالعِلْمِ باللُّغةِ والإعرابِ والنَّحْوِ ، والشِّعرِ والتَّرسُّلِ ، وشرحِ الألفاظِ وتفصيلِها .

فإنِ افتقرَ إلىٰ شيءٍ منهُ . . فيُطلَبُ لا لنفْسِهِ ، بل ليكونَ ذريعةً إلى العِلْمِ المقصودِ ، ونحنُ الآنَ في طلبِ العِلْمِ المقصودِ ؛ فإنَّا إذا أردْنا أن نعرفَ ذاتَ الحجِّ . . لم يلزمْنا ذِكرُ الخُفِّ والمِطهَرةِ وإن كانَ يُحتاجُ إليهِما في التَّوصُّلِ إليهِ .

فإذاً : يجبُ أن تُلتمَسَ العلومُ الَّتي تبقىٰ معلوماتُها أبدَ الآبدِينَ لا تزولُ ولا تحولُ ، ومِثلُ ذٰلكَ لا يختلفُ باختلافِ الأعصارِ والأُممِ ، وذٰلكَ يرجعُ إلى العِلْمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ،

وملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ النُّفوسِ الإنسانيَّةِ والحيوانيَّةِ ؛ مِن حيثُ إنَّها مُرتبِطةٌ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ لا مِن حيثُ ذواتُها .

فالمقصودُ الأقصىٰ : هوَ العِلْمُ باللهِ تعالىٰ ، وملائكةُ اللهِ لا بدَّ مِن معرفتِهِم ؛ لأنَّهُم واسطةٌ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ النَّبيِّ ، وكذٰلكَ معرفةُ النُّبوَّةِ والنَّبيِّ ؛ لأنَّ النَّبيَّ واسطةٌ بينَ الخَلْقِ والملائكةِ كما أنَّ المَلَكَ واسطةٌ بينَ اللهِ تعالىٰ والنَّبيِّ .

وهٰكذا يَتسلسلُ إلىٰ آخِرِ العلومِ النَّظريَّةِ ، **وغايتُها وأقصاها** : العِلْمُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، ولٰكنْ يَنشعبُ القولُ فيهِ انشعاباً كثيراً ؛ إذ يلزمُ بعضُها عنِ البعضِ ، ولذٰلكَ يكثرُ التَّفصيلُ فيهِ .



والقسمُ الثَّاني : **العِلْمُ العمليُّ ؛ وهوَ ثلاثةُ أقسامٍ** :

١ ـ **عِلْمٌ بعملِ النَّفْسِ معَ صفاتِها وأخلاقِها** ؛ وهوَ الرِّياضةُ ، ومُجاهَدةُ الهوىٰ ، وهوَ أكبرُ مقصودِ **هٰذا الكتابِ** .

٢ ـ **وعِلْمٌ بكيفيَّةِ المعيشةِ معَ الأهلِ والولدِ والخَدَمِ والعبيدِ** ؛ فإنَّهُم خدمُكَ أيضاً ، كأطرافِكَ وصفاتِكَ وقُواكَ ، وكما لا بدَّ مِن سياسةِ قُوىٰ بَدنِكَ مِنَ الشَّهوةِ والغضبِ وغيرِهِما . . فلا بدَّ مِن سياسةِ هٰؤلاءِ .

٣ ـ **وعِلْمٌ بسياسةِ أهلِ البلدِ والنَّاحيةِ وضبطِهِم** ؛ ولأجلِهِ يُرادُ عِلْمُ الفقهِ في الأكثرِ ، إلَّا ما يَتعلَّقُ برُبعِ العباداتِ مِن جملةِ العباداتِ

الخاصَّةِ بالنَّفْسِ ، وفيهِ أدبُ القضاءِ ، ولا يَتِمُّ إلَّا بمعرفةِ رُبعِ النِّكاحِ والبيعِ والجراحِ [1] .

وأهمُّ هٰذهِ الثَّلاثةِ : تهذيبُ النَّفْسِ ، وسياسةُ البَدنِ ، ورعايةُ العدلِ بينَ هٰذهِ الصِّفاتِ ، حتَّىٰ إذا اعتدلَتْ . . تَعدَّتْ عدالتُها إلى الرَّعيَّةِ البعيدةِ ؛ مِنَ الأهلِ والولدِ ، ثمَّ إلىٰ أهلِ البلدِ ، فكلُّكُم راعٍ ، وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ .

وما سواهُ يجري منهُ مَجرى الزَّكاةِ مِنَ النِّصابِ ، والضَّوءِ مِنَ الشَّمسِ ، والظِّلِّ مِنَ الشَّخصِ ، وكيفَ يُتوقَّعُ استقامةُ الظِّلِّ معَ اعوجاجِ ذي الظِّلِّ ؟!

وإذا لم يَقدِرِ الإنسانُ علىٰ سياسةِ نفْسِهِ وضبطِهِ . . فكيفَ يَقدِرُ علىٰ سياسةِ غيرِهِ ؟!

فهٰذهِ مجامعُ العلومِ العمليَّةِ .

❀ ❀ ❀

ولْنذكرْ جُمَلَ العِلْمِ الأخصِّ مِن هٰذهِ العلومِ السِّياسيَّةِ ؛ **فإنَّهُ المقصودُ بالبيانِ .**

ومجامعُ القُوى الَّتي لا بدَّ مِن تهذيبِها ثلاثٌ : قُوَّةُ التَّفكُّرِ ، وقُوَّةُ الشَّهوةِ ، وقُوَّةُ الغضبِ .

ومهما هُذِّبَتْ **قُوَّةُ الفكرِ** وأُصلِحَتْ كما ينبغي . . حصلَتْ بهِ

---

(١) في (د ، و ، ز) : (والخراج) بدل (والجراح) .

الحكمةُ الَّتي أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنها حيثُ قالَ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

وثمرتُهُ : أن يَتيسَّرَ لهُ الفَرْقُ بينَ الحقِّ والباطلِ في الاعتقادِ ، وبينَ الصِّدقِ والكذبِ في المقالِ ، وبينَ الجميلِ والقبيحِ في الأفعالِ ، ولا يلتبسَ عليهِ شيءٌ مِن ذٰلكَ معَ أنَّهُ الأمرُ المُلتبِسُ علىٰ أكثرِ الخَلْقِ .

ويعينُ علىٰ إصلاحِ هٰذهِ القُوَّةِ وتهذيبِها ما أودعْناهُ كتابَ « معيارِ العِلْمِ » .

❁ ❁ ❁

والقُوَّةُ الثَّانيةُ : **هيَ الشَّهوةُ** ، وبإصلاحِها تَحصُلُ العِفَّةُ ؛ حتَّىٰ تنزجرَ النَّفْسُ عنِ الفواحشِ ، وتنقادَ للمواساةِ والإيثارِ المحمودِ بقَدْرِ الطَّاقةِ .

❁ ❁ ❁

والثَّالثةُ : **الحميَّةُ الغضبيَّةُ** ، وبقهرِها وإسلاسِها يحصلُ الحِلْمُ ؛ وهوَ كظمُ الغيظِ ، وكفُّ النَّفْسِ عنِ البغيِ والتَّشفِّي ، وتحصلُ الشَّجاعةُ ؛ وهوَ كفُّ النَّفْسِ عنِ الخوفِ والحرصِ المذمومَينِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ (١) .

❁ ❁ ❁

---

(١) بمثل قوله تعالىٰ في ذم الخوف : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ، وقوله تعالىٰ في ذم الحرص : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

ومهما أُصلِحَتِ القُوى الثَّلاثُ ، وضُبِطَتْ على الوجهِ الَّذي ينبغي ، وإلى الحدِّ الَّذي ينبغي ، وجُعِلَتِ القُوَّتانِ مُنقادتَينِ للثَّالثةِ الَّتي هيَ الفكريَّةُ العقليَّةُ . . فقد حصلَتِ العدالةُ .

وبمثلِ هٰذا العدلِ قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ ، وهيَ جِماعُ مكارمِ أخلاقِ الشَّريعةِ ، وطهارةِ النَّفْسِ ، وحُسنِ الخُلُقِ المحمودِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَكْمَلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقاً ، وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ »[1] ، وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً ؛ ٱلْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافاً ، ٱلَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ »[2] .

وثناءُ الشَّرعِ على الخُلُقِ الحَسنِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، ومعناهُ : إصلاحُ هٰذهِ القُوى الثَّلاثِ ، وقد جمعَ اللهُ سبحانَهُ ذٰلكَ في قولِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] .

فدلَّ بالإيمانِ باللهِ ورسولِهِ معَ نفيِ الارتيابِ على : العِلْمِ اليقينيِّ والحكمةِ الحقيقيَّةِ الَّتي لا يُتصوَّرُ حصولُها إلَّا بإصلاحِ قُوَّةِ الفكرِ .

ودلَّ بالمُجاهَدةِ بالأموالِ على : العِفَّةِ والجُودِ اللَّذَينِ هُما تابعانِ بالضَّرورةِ لإصلاحِ الشَّهوةِ .

ودلَّ بالمُجاهَدةِ بالأنفُسِ على : الشَّجاعةِ والحِلْمِ اللَّذَينِ هُما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٢) ، والنسائي في « السنن الكبير » (٩١٠٩) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٦٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

تابعانِ لإصلاحِ الحميَّةِ وإسلاسِها للدِّينِ والعقلِ ؛ حتَّىٰ تنبعثَ مهما استُثِيرَتْ ، وتسكنَ مهما سكنَتْ ، وعليهِ دلَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في تفسيرِهِ : « هُوَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ »[1] .

فالعفوُ عمَّن ظلمَكَ هوَ نهايةُ الحِلْمِ والشَّجاعةِ ، **وإعطاءُ مَن حرمَكَ** هوَ نهايةُ الجُودِ ، **ووصلُ مَن قطعَكَ** هوَ نهايةُ الإحسانِ .

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أُمَيّ الصيرفي رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

بيان مثال النّفس مع هذه القوى المتنازعة

مَثَلُ نفْسِ الإنسانِ في بَدنِهِ كمَثَلِ والٍ في مدينتِهِ ومملكتِهِ .

وقُواهُ وجوارحُهُ الخادمةُ للبَدنِ بمنزلةِ الصُّنَّاعِ والعَمَلَةِ .

والقُوَّةُ العقليَّةُ المُفكِّرةُ لهُ كالمُشيرِ النَّاصحِ والوزيرِ العاقلِ .

والشَّهوةُ لهُ كعبدِ سوءٍ يَجلِبُ المِيرةَ والطَّعامَ[1] .

والحميَّةُ لهُ كصاحبِ شُرْطَةٍ .

والعبدُ الجالبُ للمِيرةِ مَكَّارٌ خَدَّاعٌ ، خبيثٌ مُلبِّسٌ ، يَتمثَّلُ بصورةِ النَّاصحِ ، وتحتَ نصحِهِ الدَّاءُ العُضالُ ، والشَّرُّ الشِّمِرُّ[2] ، وديدنُهُ مُنازَعةُ الوزيرِ في التَّدبيرِ ، حتَّىٰ لا يَغفُلُ عن مُنازَعتِهِ ومُعارَضتِهِ في آرائِهِ ساعةً .

فكما أنَّ الواليَ في مملكتِهِ متى استشارَ في تدبيراتِهِ وزيرَهُ مُعرِضاً عن إشارةِ هٰذا العبدِ الخبيثِ ، بل مُستدِلّاً بإشارتِهِ علىٰ أنَّ الصَّوابَ في نقيضِ رأيِهِ ، وأدَّبَ صاحبَ شُرْطتِهِ ، وأسلسَهُ لوزيرِهِ ، وجعلَهُ مُؤتمِراً لهُ ، ومُسلَّطاً مِن جهتِهِ علىٰ هٰذا العبدِ الخبيثِ وأتباعِهِ وأنصارِهِ ، حتَّىٰ يكونَ العبدُ مَسُوساً لا سائساً ، ومأموراً مُدبَّراً لا آمراً مُدبِّراً . . استقامَ أمرُ بلدِهِ ، وانتظمَ قيامُ العدلِ بسببِهِ .

---

(١) المِيرة : الطعام ، فعطف (الطعام) عليه من باب عطف التفسير .

(٢) الشِّمِرُّ : الشديد .

كذٰلكَ **النَّفْسُ** متى استعانَتْ بالعقلِ ، وأدَّبَتِ الحميَّةَ الغضبيَّةَ ، وسلَّطَتْها على الشَّهوةِ ، واستعانَتْ بإحداهُما على الأُخرىٰ ؛ تارةً بأن تُقلِّلَ مِن تيهِ الغضبِ وغُلَوائِهِ ؛ بخِلَابةِ الشَّهوةِ واستدراجِها [1] ، وتارةً بقمعِ الشَّهوةِ وبقهرِها ؛ بتسليطِ الغضبِ والحميَّةِ عليها ، وتقبيحِ مُقتضَياتِها استشاطةً عليها . . اعتدلَتْ قُواهُ ، وحَسُنَتْ أخلاقُهُ .

ومَن عَدَلَ عن هٰذهِ الطَّريقةِ . . كانَ كمَن قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لَكَ نَفْسُكَ ٱلَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » [2] .

وقالَ تعالىٰ لمَن قَهرَ هَواهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وليسَ الأمرُ كما ظنَّهُ فريقٌ مِنَ النَّاسِ مِن لزومِ قَمْعِ الغضبِ وإماطتِهِ بالكلِّيَّةِ ، وقَمْعِ الشَّهوةِ وإماتتِها بالكلِّيَّةِ ، بلِ الواجبُ ضبطُها وتأديبُها ؛ فإنَّ العقلَ لا يَقدِرُ على التَّأديبِ دونَ الحميَّةِ الغضبيَّةِ ؛ إذ ليسَ لهُ إلَّا الإشارةُ بالصَّوابِ ، وهوَ أشرفُ القُوىٰ ، وبهِ صارَ الإنسانُ خليفةَ اللهِ في أرضِهِ ، ولٰكنَّهُ كطبيبٍ مُشيرٍ إلىٰ ما فيهِ البُرْءُ ، فإن لم يُمَدَّ بالغضبِ والحميَّةِ الَّتي تُرهَقُ الشَّهوةُ بها

---

(١) الخِلَابة : الخداع بالقول اللطيف .

(٢) أخرجه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٢) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

إلى الطَّاعةِ ، وتَنتهِضُ خادمةً للعقلِ في الزَّجرِ والكسرِ . . لم تُفِدْ إشارتُهُ[١] .

ولذٰلكَ لا تَتبيَّنُ فضيلةُ العقلِ لمَن لا حميَّةَ لهُ ، ولٰكنْ ينبغي أن يتأدَّبَ بحيثُ لا ينبعثُ إلَّا بإشارةِ العقلِ .

وكذا الشَّهوةُ ؛ فإنَّ إماتتَها عنِ الجماعِ عُنَّةٌ قاطعةٌ للتَّناسلِ الَّذي بهِ بقاءُ النَّوعِ ، وعنِ الطَّعامِ فإنَّهُ ضَعْفٌ ينقطعُ بهِ بقاءُ الشَّخصِ ، ولٰكنْ بكسرِ الشَّرَهِ في الطَّعامِ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ المقصودُ مِنَ الطَّعامِ التَّلذُّذَ بالتَّناولِ ، بلِ استبقاءَ القُوَّةِ للتَّوصُّلِ بهِ إلى العِلْمِ والعملِ ، فيكونَ هوَ في أكلِهِ كهوَ في إعلافِهِ دابَّتَهُ إذا انتهضَ للجهادِ ، فمقصودُهُ التَّوصُّلُ فقطْ ، ويَوَدُّ لوِ استغنىٰ عنِ الطَّعامِ ، وبقيَتْ قُوَّتُهُ على العِلْمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخَرُ للإنسانِ مِن حيثُ خُلِقَ بنفسِهِ عالَماً كبيراً في المعنىٰ ، صغيراً في الحجمِ :

فبَدنُهُ كمدينةٍ .

والعقلُ كمَلِكٍ مُدبِّرٍ لها .

وقُواها المُدرِكةُ مِنَ الحواسِّ الظَّاهرةِ والباطنةِ كجنودِهِ وأعوانِهِ .

وأعضاؤُهُ كرعيَّتِهِ .

---

(١) في (د ، ز) : (تنفذ) بدل (تفد) .

والنَّفْسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ الَّتي هيَ الشَّهوةُ والغضبُ كعدوٍّ يُنازِعُهُ في مملكتِهِ ، ويسعىٰ في إهلاكِ رعيَّتِهِ .

فصارَ بَدنُهُ كرباطٍ وثغرٍ ، ونفْسُهُ كمُقيمٍ فيهِ مُرابِطٍ .

فإن جاهدَ عدوَّهُ وأسرَهُ أو قهرَهُ علىٰ ما يجبُ وكما يجبُ . . حُمِدَ أثرُهُ إذا عادَ إلىٰ حضرتِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

وإن ضَيَّعَ ثغرَهُ ، وأهملَ رعيَّتَهُ . . ذُمَّ أثرُهُ ، وانتُقِمَ منهُ عندَ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ اللهُ لهُ يومَ القيامةِ كما وردَ في الخبرِ : (يَا رَاعِيَ ٱلسُّوءِ ؛ أَكَلْتَ ٱللَّحْمَ ، وَشَرِبْتَ ٱللَّبَنَ ، وَلَمْ تُؤْوِ ٱلضَّالَّةَ ، وَلَمْ تَجْبُرِ ٱلْكَسِيرَ ، ٱلْيَوْمَ أَنْتَقِمُ مِنْكَ)[١] .

وهـٰذا الجِهادُ ذِكْرُهُ باللِّسانِ تَفرُّجٌ وغذاءُ روحٍ ، وتحقيقُهُ بالعملِ بالحقيقةِ هوَ نزعُ الرُّوحِ ، ولن يَعرِفَ ذٰلكَ إلَّا مَن طالَبَ نفْسَهُ بتركِ شهواتِهِ ؛ ولذٰلكَ قالَتِ الصَّحابةُ : (رجعْنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ)[٢] ، فسَمَّوا مُجاهَدةَ الكُفَّارِ بالسَّيفِ : الجهادَ الأصغرَ .

ولذٰلكَ سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الجهادِ أفضلُ ؟ فقالَ : « جِهَادُكَ هَوَاكَ »[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٩٠٣) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٢٨٧) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) لـٰكن مرفوعاً عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/٢٤٩) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

ولذٰلك قالَ : « لَيْسَ ٱلشَّدِيدُ بِٱلصُّرَعَةِ ، إِنَّمَا ٱلشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ »[1] .

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخَرُ :

مَثَلُ العقلِ مَثَلُ فارسٍ مُتصيِّدٍ .

وشهوتُهُ كفرسِهِ .

وغضبُهُ ككلبِهِ .

فمتىٰ كانَ الفارسُ حاذقاً ، وفرسُهُ مُروَّضاً ، وكلبُهُ مُؤدَّباً مُعلَّماً مُنقاداً . . **فهوَ جديرٌ بالنُّجْحِ** .

ومتىٰ كانَ هوَ في نفْسِهِ أخرقَ ، وكانَ الفرسُ جَموحاً ، والكلبُ عَقوراً ، فلا فرسُهُ ينبعثُ تحتَهُ مُنقاداً ، ولا كلبُهُ يسترسلُ بإشارتِهِ مُطيعاً . . **فهوَ خليقٌ بأن يَعطَبَ** ، فضلاً عن أن ينالَ ما طَلَبَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

بيان مراتب النفس في مجاهدة الهوىٰ والفرق بين إشارة الهوىٰ وإشارة العقل

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ في مُجاهَدةِ الهوىٰ ثلاثةَ أحوالٍ :

الأُولىٰ : أن يَغلِبَهُ الهوىٰ ، فيَملِكَهُ ولا يستطيعَ لهُ خِلافاً ، وهوَ حالُ أكثرِ الخَلْقِ ، وهوَ الَّذي قالَ فيهِ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ؛ إذ لا معنىٰ للإلٰـهِ إلَّا المعبودُ ، **والمعبودُ** : هوَ المتبوعُ إشارتُهُ ، فمَن كانَ تردُّدُهُ في جميعِ أطوارِهِ خَلْفَ أغراضِهِ البَدنيَّةِ وأوطارِهِ . . **فقدِ اتَّخذَ إلـٰهَهُ هواهُ** .



الثَّانيةُ : **أن تكونَ الحربُ بينَهُما سِجالاً ؛ تارةً لها اليدُ ، وتارةً عليها اليدُ** ، فهـٰذا الرَّجلُ مِنَ المُجاهِدينَ ، فإنِ اخترمَتْهُ المنيَّةُ في هـٰذهِ الحالِ . . **فهوَ مِنَ الشُّهداءِ** ؛ لأنَّهُ مشغولٌ بامتثالِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تُجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ »(١) ، **وهـٰذهِ المرتبةُ العليا للخَلْقِ سوى الأنبياءِ والأولياءِ** .



(١) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٩١) ، وأخرج معناه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » .

الثَّالثةُ : أن يَغلِبَ هواهُ ، فيَصِيرَ مُستولِياً عليهِ لا يَقهَرُهُ بحالٍ مِنَ الأحوالِ ، وهـٰذا هوَ المُلْكُ الكبيرُ ، والنَّعيمُ الحاضرُ ، والحرِّيَّةُ التَّامَّةُ ، والخَلاصُ عنِ الرِّقِّ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ ، وَإِنَّ ٱللهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَىٰ شَيْطَانِي حَتَّىٰ مَلَكْتُهُ »(1) .

وقالَ في حقِّ عمرَ : « مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجّاً إِلَّا سَلَكَ ٱلشَّيْطَانُ فَجّاً غَيْرَهُ »(2) .

وهـٰذا الآنَ مَزِلَّةُ قَدَمٍ ، فكم مِن إنسانٍ يظنُّ أنَّهُ نالَ هـٰذهِ الرُّتبةَ وهوَ في الحقيقةِ شيطانٌ مَريدٌ ؛ فإنَّهُ يتبعُ أغراضَهُ ، ولـٰكنْ يَتعلَّلُ لأغراضِهِ بأنَّها مِنَ الدِّينِ ، وأنَّ طلبَهُ لها لأجلِ الدِّينِ !!

حتَّىٰ رأيتُ جماعةً اشتغلوا بالوعظِ والتَّدريسِ والقضاءِ والخَطابةِ وأنواعِ الرِّئاسةِ وهُم فيهِ مُتَّبِعونَ الهوىٰ ، ويزعمونَ أنَّ باعثَهُمُ الدِّينُ ، ومُحرِّكَهُم طلبُ الثَّوابِ ، ومُنافَستَهُم عليها مِن جهةِ الشَّرعِ(3) ، **وهوَ نهايةُ الحمقِ والغُرورِ** .

وإنَّما تُعرَفُ حقيقةُ ذٰلكَ بأمرٍ ؛ وهوَ أنَّ الواعظَ المقبولَ إذا كانَ يعظُ للهِ لا لطلبِ القَبولِ ، وقصدُهُ دعوةُ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ . . **فعلامتُهُ** : أنَّهُ لو جلسَ علىٰ مكانِهِ واعظٌ أحسنُ منهُ سيرةً ، وأغزرُ منهُ عِلْماً ، وأطيبُ منهُ لهجةً ، وتضاعفَ قَبولُ النَّاسِ لهُ بالنِّسبةِ إلىٰ

---

(1) أخرجه مسلم (٢٨١٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنحوه .

(2) أخرجه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(3) في (ج ، د ، ز) : (حميَّة) بدل (جهة) .

قَبولِهِ . . فرحَ بهِ ، وشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسقاطِ هٰذا الفرضِ عنهُ بغيرِهِ وبمَن هوَ أقومُ بهِ منهُ ؛ كمَن تَعيَّنَ عليهِ جهادُ كافرٍ وقتلُهُ[1] لانفرادِهِ ، فنزلَتْ بالكافرِ صاعقةٌ فأحرقَتْهُ ، وكفَتْهُ مُؤْنَةَ التَّعبِ والجهادِ . . فرحَ بهِ وشكرَ اللهَ تعالىٰ .

وهٰذهِ الحالُ لا يُصادِفُها مِن نفْسِهِ إلَّا أولياءُ اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ أحدُ آثارِهِ الاحترازَ بأقصى الإمكانِ ، وتصريحَهُ كلَّ ساعةٍ بقولِهِ : (أقيلوني أقيلوني ؛ فلستُ بخيرِكُم) كما نُقِلَ عنِ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ[2] .



فإن قلتَ : فإذا كنَّا لا نأمَنُ مثلَ هٰذا التَّلبيسِ والانخداعِ بتزويرِ الشَّيطانِ ، والتَّدلِّي بحبلِ غرورِهِ كما حُكِيَ عن هٰؤلاءِ . . فبِمَ نُميِّزُ بينَ إشارةِ العقلِ وإشارةِ الهوىٰ ؟

فاعلَمْ : أنَّ هٰذا مَطلَبٌ عويصٌ ، ولا خلاصَ عنهُ إلَّا بالعلومِ الحقيقيَّةِ ، ولا مُعينَ فيهِ مثلُ ما أودعْناهُ « معيارَ العِلْمِ » ؛ إذ بهِ ينكشفُ التَّلبيسُ عنِ الحقِّ .

ولٰكنِ القَدْرُ الَّذي ينبغي أن يُفزَعَ إليهِ عندَ التَّحيُّرِ : أن تعلمَ أنَّ العقلَ في أكثرِ الأمرِ يُشيرُ بالأصلحِ للعواقبِ وإن كانَ فيهِ كُلْفةٌ

---

(١) في (هـ) زيادة : (ولم يقدر علىٰ ذٰلك) .

(٢) أخرج أحمد في « فضائل الصحابة » (١٣٣) عن أبي الجحاف رحمه الله تعالىٰ أنه قال : لما بويع أبو بكر . . أغلق بابه ثلاثاً يقول : (أيها الناس ؛ أقيلوني بيعتكم) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣١) عن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالىٰ أنه قال : خطبنا أبو بكر قال : (وليت أمركم ولست بخيركم) .

ومَشقَّةٌ في الحالِ ، والهوىٰ يُشيرُ بالاستراحةِ وتركِ التَّكلُّفِ .

فمهما عرضَ لكَ أمرانِ ، ولم تدرِ أيُّهما أصوبُ . . فعليكَ بما تكرهُهُ ، لا بما تهواهُ ، فأكثرُ الخيرِ في الكراهةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ »(١) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ .

فكلُّ ما يُشيرُ عليكَ بالدَّعَةِ والرَّفاهيةِ وحطِّ الكُلْفةِ وإيثارِ الرَّاحةِ في الحالِ . . **فاتَّهِمْ فيهِ نفْسَكَ ؛ فإنَّ حُبَّكَ الشَّيءَ يُعمِي ويُصِمُّ** .

❁ ❁ ❁

وبالجملةِ : فما يُشيرُ إليهِ العقلُ . . يُقوِّيهِ الفزعُ إلى العبادةِ ، والاستخارةُ بهِ ، فينشرحُ لهُ الصَّدرُ ، ويَعضُدُهُ الاستشارةُ إذا استُشِيرَ فيهِ أهلُهُ ، وأكثرُ ما يُلبِّسُ بهِ الهوىٰ معاذيرُ مُزخرَفةٌ ، والعقلُ يُرشِدُ بحُجَجٍ حقيقيَّةٍ ، والعاشقُ لشخصٍ قبيحٍ أوِ المُتناوِلُ لطعامٍ بشيعٍ شُغِفَ بهِ لعادتِهِ لو رُوجِعَ(٢) . . لزخرفَ فيهِ معاذيرَ مُموَّهةً يشهدُ لها العقلُ بأنَّهُ مُتصنِّعٌ مُتكلِّفٌ .

❁ ❁ ❁

وبالجملةِ : إدراكُ هٰذا بالحقيقةِ لا يكونُ إلَّا بنورٍ إلٰهيٍّ وتأييدٍ سماويٍّ ، فلْيكنِ الفزعُ إلى اللهِ تعالىٰ في مظانِّ الحَيْرةِ ؛ فقد قالَ بعضُ العلماءِ : إذا مالَ العقلُ إلىٰ مُؤلِمٍ في الحالِ ، نافعٍ في العاقبةِ ، ومالَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) البشيع : الكريه الجاف اليابس .

الهوىٰ نحوَ نقيضِهِ المَلَذِّ في الحالِ ، الوخيمِ في العُقبىٰ ، وتنازعا وتحاكما إلى القُوَّةِ المُدبّرةِ المُفكّرةِ . . سارعَ نورُ اللهِ تعالىٰ إلىٰ نُصرةِ العقلِ ، وبادرَ وسواسُ الشَّيطانِ وأولياؤُهُ إلىٰ نُصرةِ الهوىٰ ، وقامَ صفُّ القتالِ بينَهُما .

فإن كانَتِ القُوَّةُ المُدبّرةُ مِن حزبِ الشَّيطانِ وأوليائِهِ . . ذَهَلَتْ عن نورِ الحقِّ ، وعَمِيَتْ عن نفعِ الآجلِ ، واغترَّتْ بلذَّةِ العاجلِ ، وجنحَتْ إليهِ ، وقهرَتْ أولياءَ اللهِ .

وإن كانَتْ مِن حزبِ اللهِ وأوليائِهِ . . اهتدَتْ بنورِهِ ، واستهانَتْ بالعاجلةِ ، وطلبَتِ الآجلةَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ .

وشَبَّهَ اللهُ تعالى العقلَ بشجرةٍ طيّبةٍ ، والهوىٰ بشجرةٍ خبيثةٍ ، فقالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . ﴿٢٤﴾ ﴾ الآيةَ [1] .

فعندَ قيامِ الصَّفِّ ، والتحامِ القتالِ بينَ هـٰذينِ الجُندَينِ اللَّذَينِ أحدُهُما مِن أعداءِ اللهِ ، والآخرُ مِن أوليائِهِ . . لا سبيلَ إلَّا إلى الفزعِ إلى اللهِ تعالىٰ ، والاستعاذةِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ،

---

(١) المراد بـ (الآية) : الآيات ؛ وهي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ .

* * *

فإن قلتَ : فهل مِن فرقٍ بينَ الهوىٰ والشَّهوةِ ؟

قلْنا : لا حَجْرَ في العباراتِ ، **ولـٰكنَّا نعني بالهوى** : المذمومَ مِن جملةِ الشَّهواتِ دونَ المحمودِ .

والمحمودُ : مِن فعلِ اللهِ تعالىٰ ؛ وهوَ قُوَّةٌ جُعِلَتْ في الإنسانِ لتنبعثَ بها النَّفْسُ لنيلِ ما فيهِ صلاحُ بَدنِهِ : إمَّا بإبقاءِ بَدنِهِ ، أو إبقاءِ نوعِهِ ، أو إصلاحِهِما جميعاً .

والمذمومُ : مِن فعلِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ؛ وهوَ استجابتُها لِمَا فيهِ لذَّتُها البَدنيَّةُ .

وهـٰذهِ الشَّهوةُ إذا غلبَتْ . . سُمِّيَتْ : هوىً ؛ فإنَّها تستتبعُ الفكرةَ وتستخدمُها لتستغرقَ وقتَها في الاحتيالِ لأجلِهِ ، والفكرةُ مُتردِّدةٌ بينَ الشَّهوةِ والعقلِ تخدمُهُما [1] ؛ العقلُ فوقَها ، والشَّهوةُ تحتَها ؛ فمتىٰ مالَتِ الفكرةُ نحوَ العقلِ . . ارتفعَتْ وشَرُفَتْ ، وولَّدَتِ المحاسنَ ، وإذا مالَتْ إلى الشَّهوةِ . . اتَّضعَتْ إلىٰ أسفلِ السَّافلينَ ، وولَّدَتِ المقابحَ .

* * *

---

(١) في (و) : (يجذبانها) بدل (تخدمهما) .

بيان إمكان تغيير الخُلُق

لقد ظنَّ بعضُ المائلينَ إلى البَطالةِ **أنَّ الخُلُقَ كالخَلْقِ ؛ فلا يقبلُ التَّغييرَ** ، والتفتَ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَرَغَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْخَلْقِ وَٱلْخُلُقِ »[1] ، وظنَّ **أنَّ الطَّمعَ في تغييرِ الخُلُقِ طمعٌ في تغييرِ خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، وذَهَلَ عن قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ »[2] ، وأنَّ ذٰلكَ لو لم يكنْ مُمكِناً . . لَمَا أَمَرَ بِهِ ، بل لوِ امتنعَ ذٰلكَ . . لبطَلَتِ الوصايا والمواعظُ ، والتَّرغيبُ والتَّرهيبُ ؛ فإنَّ الأفعالَ نتائجُ الأخلاقِ ، كما أنَّ الهُوِيَّ إلىٰ أسفلَ نتيجةُ الثِّقلِ الطَّبيعيِّ ، فلماذا يَتوجَّهُ المَلامُ علىٰ أحدِهِما دونَ الآخَرِ ؟!

بل كيفَ يُنكَرُ هٰذا في الإنسانِ معَ استيلاءِ عقلِهِ وتغييرُ خُلُقِ البهائمِ مُمكِنٌ ؛ إذ يُنقَلُ الصَّيدُ مِنَ التَّوحُّشِ إلى التَّأنُّسِ ، والكلبُ مِنَ الأكلِ إلى التَّأدُّبِ ، والفرسُ مِنَ الجِماحِ إلى السَّلاسةِ ، وكلُّ ذٰلكَ تغييرُ خُلُقٍ ؟!

والقولُ الشَّافي فيهِ : أنَّ ما خَلَقَهُ اللهُ سبحانَهُ قسمانِ :

قسمٌ : لا فِعلَ لنا فيهِ ؛ كالسَّماءِ والكواكبِ ، بل أعضاءِ بَدنِنا وأجزائِهِ وما هوَ حاصلٌ بالفعلِ .

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٦٠١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن حبان في « الصحيح » (٤٥٤٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٢٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بنحوه .

والقسمُ الثَّاني : ما خُلِقَ وجُعِلَ فيهِ قُوَّةٌ لقَبولِ كمالٍ بعدَهُ إن وُجِدَ شرطُ التَّربيةِ ، وتربيتُهُ قد تَتعلَّقُ بالاختيارِ ؛ فإنَّ النَّوىٰ ليسَ بتفَّاحٍ ولا نخلٍ ، ولـٰكنَّهُ قابلٌ بالقُوَّةِ لأن يصيرَ نخلاً بالتَّربيةِ وغيرُ قابلٍ لأن يصيرَ تفَّاحاً ، وإنَّما يصيرُ نخلاً إذا تَعلَّقَ بهِ اختيارُ الآدميّ في تربيتِهِ .

فكذٰلكَ لو أردْنا أن نَقْلَعَ بالكلِّيَّةِ الغضبَ والشَّهوةَ مِن أنفُسِنا ونحنُ في هـٰذا العالَمِ . . عجَزْنا عنهُ ، ولـٰكنْ لو أردْنا قهرَهُما وإسلاسَهُما بالرِّياضةِ والمُجاهَدةِ . . قَدَرْنا عليهِ ، وقد أُمِرْنا بهـٰذا ، وصارَ ذٰلكَ شرطَ سعادتِنا ونجاتِنا .

نعم ؛ الجِبِلَّاتُ مُختلِفةٌ ؛ فبعضُها سريعةُ القَبولِ ، وبعضُها بطيئةُ القَبولِ ، ولاختلافِها سببانِ :

أحدُهُما : باعتبارِ التَّقدُّمِ في الوجودِ ؛ فإنَّ قُوَّةَ الشَّهوةِ ، وقُوَّةَ الغضبِ ، وقُوَّةَ التَّفكُّرِ موجودةٌ في الإنسانِ ، وأصعبُها تغييراً وأعصاها على الإنسانِ قُوَّةُ الشَّهوةِ ؛ فإنَّها أقدمُ القُوىٰ وجوداً ، وأشدُّها تشبُّثاً والتصاقاً ؛ فإنَّها تُوجَدُ معَهُ في أوَّلِ الأمرِ ، حتَّىٰ تُوجَدُ في الحيوانِ الَّذي هوَ جنسُهُ ، ثمَّ تُوجَدُ قُوَّةُ الغضبِ والحميَّةِ بعدَهُ ، وأمَّا قُوَّةُ التَّفكُّرِ . . فإنَّها تُوجَدُ آخِراً .

❀ ❀ ❀

والسَّببُ الثَّاني : أنَّ تأكُّدَ الخُلُقِ إنَّما هوَ بكثرةِ العملِ بمُوجَبِهِ ، والطَّاعةِ لهُ ، وباعتقادِ كونِهِ حَسَناً مَرْضِيّاً ، والنَّاسُ فيهِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأُولىٰ : هوَ الإنسانُ الغُفْلُ الَّذي لا يَعرِفُ الحقَّ مِنَ الباطلِ ، والجميلَ مِنَ القبيحِ ، فيبقىٰ خالياً عنِ الاعتقادِ ، وخالياً أيضاً عن تشميرِ شهوتِهِ باتِّباعِ اللَّذَّاتِ ، فهٰذا أقبلُ الأقسامِ للعلاجِ ، فلا يحتاجُ إلَّا إلىٰ تعليمٍ يسيرٍ مِن مُرشِدٍ ، وإلىٰ باعثٍ مِن نفْسِهِ يحملُهُ على الاتِّباعِ ، فيَحسُنُ خُلُقُهُ في أقربِ زمانٍ .

والثَّانيةُ : أن يكونَ قد عرفَ قُبحَ القبيحِ ، ولٰكنَّهُ لم يَتعوَّدِ العملَ الصَّالحَ ، بل زُيِّنَ لهُ سُوءُ عملِهِ ، فتعاطاهُ انقياداً لشهواتِهِ ، وإعراضاً عن صوابِ رأيِهِ ، فأمرُهُ أصعبُ مِنَ الأوَّلِ ؛ إذ تضاعفَتِ الوظيفةُ عليهِ :

إحداهُما : قلعُ ما رسخَ فيهِ مِن كثرةِ التَّعوُّدِ للفسادِ .

والأُخرىٰ : صرفُ النَّفْسِ إلىٰ ضدِّهِ .

وعلى الجملةِ : هوَ في محلِّ قَبولِ الرِّياضةِ إنِ انتهضَ لهُ عن جِدٍّ كاملٍ .

والثَّالثةُ : أن يَعتقِدَ في الأخلاقِ القبيحةِ أنَّها الواجبةُ المُستحسَنةُ ، وأنَّ ذٰلكَ حقٌّ وجميلٌ ، ثمَّ تَربَّىٰ عليهِ ؛ فهٰذا يكادُ يمتنعُ معالجتُهُ ، ولن يُرجىٰ صلاحُهُ إلَّا على النُّدورِ ؛ إذ تضاعفَتْ عليهِ أسبابُ الضَّلالِ .

والرَّابعةُ : أن يكونَ معَ وقوعِ نشوئِهِ على الاعتقادِ الفاسدِ وتربيتِهِ على العملِ بهِ . . يرىٰ فضلَهُ في كثرةِ الشَّرِّ واستهلاكِ النُّفوسِ ، ويُباهي

بِهِ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ يرفعُ مِن قَدْرِهِ ، وهٰذا أصعبُ المراتبِ ، وفي مثلِهِ قيلَ : (مِنَ التَّعذيبِ تهذيبُ الذِّيبِ ليتأدَّبَ ، وغسلُ المِسْحِ ليبيضَّ) .

فالأوَّلُ مِن هٰؤلاءِ يُقالُ لهُ : جاهلٌ .

والثَّاني يُقالُ لهُ : جاهلٌ وضالٌّ .

والثَّالثُ يُقالُ لهُ : جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ .

والرَّابعُ يُقالُ لهُ : جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ وشرّيرٌ .

❋ ❋ ❋

بيان الطّريق الجُمليّ في تغيير الأخلاق ومعالجة الهوىٰ

اعلمْ : أنَّ المقصودَ مِنَ المُجاهَدةِ والرِّياضةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ . . تكميلُ النَّفْسِ وتزكيتُها وتصفيتُها بتهذيبِ أخلاقِها ، وبينَ النَّفْسِ وبينَ هٰذهِ القُوىٰ نوعٌ مِنَ العلاقةِ تضيقُ العبارةُ عن تعريفِها علىٰ وجهٍ يَتشكَّلُ في خزانةِ التَّخيُّلِ ؛ لأنَّ هٰذهِ العلاقةَ ليسَتْ محسوسةً ، بل معقولةٌ ، وليسَ مِن غرضِنا بيانُ تلكَ العلاقةِ ، **ولٰكنْ كلٌّ واحدٍ مِنَ النَّفْسِ والبَدنِ مُتأثِّرٌ بسببِ صاحبِهِ** ؛ فإنَّ النَّفْسَ إن كَمُلَتْ وكانَتْ زاكيةً . . حَسُنَتْ أفعالُ البَدنِ ، وأفعالُ البَدنِ إن حَسُنَتْ وكانَتْ جميلةً . . حدثَ منها في النَّفْسِ هيئاتٌ حسنةٌ ، وأخلاقٌ مرضيَّةٌ .



فإذاً : الطَّريقُ إلىٰ تزكيةِ النَّفْسِ اعتيادُ الأفعالِ الصَّادرةِ مِنَ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ الكاملةِ ، حتَّىٰ إذا صارَ ذٰلكَ مُعتاداً بالتَّكرُّرِ معَ تقاربِ الزَّمانِ . . حدثَ منها هيئةٌ للنَّفْسِ راسخةٌ تقتضي تلكَ الأفعالَ وتتقاضاها بحيثُ يصيرُ ذٰلكَ لهُ بالعادةِ كالطَّبعِ ، فيَخِفُّ عليهِ ما كانَ يستثقلُهُ مِنَ الخيرِ .

فمَن أرادَ مثلاً أن يُحصِّلَ لنفسِهِ خُلُقَ الجُودِ . . فطريقُهُ : أن يَتكلَّفَ تعاطيَ فعلِ الجُودِ ؛ وهوَ بذلُ المالِ .

ولا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يَتيسَّرَ عليهِ ، فيصيرَ بنفْسِهِ جواداً .

وكذا مَن أرادَ أن يُحصِّلَ لنفْسِهِ خُلُقَ التَّواضعِ وغلبَ عليهِ التَّكبُّرُ . . فطريقُهُ في المُجاهَدةِ : أن يُواظِبَ علىٰ أفعالِ المُتواضعينَ مُواظَبةً دائمةً على التَّكرارِ معَ تقاربِ الأوقاتِ .

والعَجَبُ : أنَّ الأمرَ بينَ النَّفْسِ والبَدنِ دورٌ ؛ إذ بأفعالِ البَدنِ تكلُّفاً يَحصُلُ للنَّفْسِ صفةٌ ، فإذا حصلَتِ الصِّفةُ . . فاضَتْ على البَدنِ ، فاقتضىٰ وقوعَ الفعلِ الَّذي تَعوَّدَهُ طبعاً بعدَ أن كانَ يَتعاطاهُ في الابتداءِ تكلُّفاً !!

والأمرُ فيهِ كالأمرِ في سائرِ الصِّناعاتِ ؛ فإنَّ مَن أرادَ أن يصيرَ لهُ الحِذْقُ في الكتابةِ صفةً نفسيَّةً ثابتةً . . فطريقُهُ : أن يَتعاطىٰ ما يَتعاطاهُ الكاتبُ الحاذقُ ؛ وهوَ حكايةُ الخطِّ الحَسنِ مُتكلِّفاً ومُتشبِّهاً .

ثمَّ لا يزالُ يُواظِبُ علىٰ تعاطي الخطِّ الحَسنِ مُتكلِّفاً حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ لهُ مَلَكَةً راسخةً ، ويصيرَ الحِذْقُ فيهِ صفةً نفسانيَّةً ، فيَصدُرَ منهُ بالأَخرَةِ بالطَّبعِ ما كانَ يَتكلَّفُهُ ابتداءً بالتَّصنُّعِ ، فكأنَّ الخطَّ الحَسنَ هوَ الَّذي جعلَ خطَّهُ حسناً ، ولٰكنَّ الأوَّلَ مُتكلَّفٌ والآخِرَ طبعٌ ، وذٰلكَ بواسطةِ تأثُّرِ النَّفْسِ .

وكذٰلكَ مَن أرادَ أن يصيرَ فقيهَ النَّفْسِ . . فلا طريقَ لهُ إلَّا مُمارَسةُ الفقهِ وحفظُهُ وتَكرارُهُ ، وهوَ في الابتداءِ مُتكلِّفٌ حتَّىٰ ينعطفَ منهُ علىٰ نفْسِهِ وصفُ الفقهِ ، فيصيرَ فقيهَ النَّفْسِ ؛ بمعنىٰ : أنَّهُ يَحصُلُ للنَّفْسِ هيئةٌ مُستعِدَّةٌ نحوَ تخريجِ الفقهِ ، فيَتيسَّرَ لهُ ذٰلكَ طبعاً مهما حاولَهُ .

وكذٰلكَ الأمرُ في جميعِ صفاتِ النَّفْسِ .

وكما أنَّ طالِبَ رتبةِ الفقهِ لا يُحرَمُ هٰذهِ الرُّتبةَ بتعطيلِ ليلةٍ ، ولا ينالُها بتَكرارِ ليلةٍ . . فكذٰلكَ طالِبُ كمالِ النَّفْسِ لا ينالُها بعبادةِ يومٍ ، ولا يُحرَمُ عنها بعصيانِ يومٍ ، ولٰكنِ العُطلةُ في يومٍ واحدٍ تدعو إلىٰ مثلِها ، ثمَّ يتداعىٰ قليلاً قليلاً حتَّىٰ تأنسَ النَّفْسُ بالكسلِ ، وتهجرَ التَّحصيلَ ، فتفوتَهُ فضيلةُ الفقهِ .

فكذا صغائرُ المعاصي يَجُرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ .

وكما أنَّ تَكرارَ ليلةٍ لا يُحَسُّ تأثيرُهُ في تفقيهِ النَّفْسِ ؛ فإنَّهُ يظهرُ شيئاً فشيئاً مثلَ نُمُوِّ البَدنِ وارتفاعِ القامةِ . . فكذٰلكَ الطَّاعةُ الواحدةُ قد لا يُحَسُّ أثرُها في النَّفْسِ وكمالُها في الحالِ ، ولٰكنْ لا ينبغي أن يُستهانَ بها ؛ فإنَّ الجملةَ مُؤثِّرةٌ ، وإنَّما اجتمعَتْ مِنَ الآحادِ ، فلكلِّ واحدٍ تأثيرٌ .

ثمَّ ما مِن طاعةٍ إلَّا ولها أثرٌ ما وإن خَفِيَ ، وكذٰلكَ المعصيةُ .

وكم مِن فقيهٍ مُسوِّفٍ يَستهينُ بتعطيلِ يومٍ وليلةٍ ، وهٰكذا على التَّوالي حتَّىٰ يُحرَمَ كمالَ العِلْمِ !! فكذا مَن يَستهينُ بصغائرِ المعاصي ينتهي بهِ الأمرُ إلىٰ حِرمانِ السَّعادةِ .

وكم مِن فقيهٍ مُوفَّقٍ لا يَستهينُ بتعطيلِ يومٍ وليلةٍ ، وهٰكذا على التَّوالي ، فيُحرِزُ كمالَ النَّفْسِ والعِلْمِ !! فكذا مَن لا يَستهينُ بصغائرِ المعاصي ينتهي بهِ الأمرُ إلىٰ درجاتِ السَّعادةِ ؛ إذِ القليلُ يدعو إلى الكثيرِ .

ولذٰلكَ قالَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (**الإيمانُ يبدو في القلبِ نُكتةً بيضاءَ** ؛ كلَّما ازدادَ الإيمانُ . . ازدادَ ذٰلكَ البياضُ ، فإذا استكملَ العبدُ الإيمانَ . . ابيضَّ القلبُ كلُّهُ ، **وإنَّ النِّفاقَ يبدو في القلبِ لُمعةً سوداءَ** ؛ كلَّما ازدادَ النِّفاقُ . . ازدادَ ذٰلكَ السَّوادُ ، فإذا استكملَ النِّفاقَ . . اسودَّ القلبُ كلُّهُ)[1] .

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٧) .

بيان مجامع الفضائل التي بتحصيلها تُنال السعادة

إذا عرفتَ أنَّ السَّعادةَ تُنالُ بتزكيةِ النَّفْسِ وتكميلِها ، وأنَّ تكميلَها باكتسابِ الفضائلِ لها . . **فلا بدَّ أن تَعرِفَ الفضائلَ جملةً وتفصيلاً ، وتَعرِفَ طُرُقَ اكتسابِها جملةً وتفصيلاً** .

فأمَّا الفضائلُ بجملتِها . . فتَنحصِرُ في مَعنيَينِ :

أحدُهُما : جُودةُ الذِّهنِ والتَّمييزِ .

والآخَرُ : حُسْنُ الخُلُقِ .

أمَّا جُودةُ الذِّهنِ . . فلِيُميِّزَ بينَ طريقِ السَّعادةِ وطريقِ الشَّقاوةِ فيعملَ بهِ ، ولِيعتقدَ الحقَّ في الأشياءِ علىٰ ما هوَ عليهِ عن براهينَ قاطعةٍ مُفيدةٍ لليقينِ ، لا عن تقليداتٍ ضعيفةٍ ، ولا عن تخيُّلاتٍ مُقنِّعةٍ واهيةٍ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا حُسْنُ الخُلُقِ . . فبأن يَترُكَ جميعَ العاداتِ السَّيِّئةِ الَّتي عَرَّفَ الشَّرعُ تفاصيلَها ، ويجعلَها بحيثُ يُبغِضُها ، فيجتنبَها كما يجتنبُ المُستقذَراتِ ، وأن يَتعوَّدَ العاداتِ الحسنةَ ويَشتاقَ إليها ، فيُؤثِرَها ويَتنعَّمَ بها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه النسائي (٧/٦١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

ومهما كانَتِ العباداتُ وتركُ المحظوراتِ معَ استثقالٍ وكراهيةٍ . . فذٰلكَ لنقصانٍ ، ولا يُنالُ كمالُ السَّعادةِ بهِ .

نعم ؛ المُواظَبةُ عليهِ بالمُجاهَدةِ غايةُ الخيرِ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ تركِهِ ، لا بالإضافةِ إلىٰ فعلِهِ عن طوعٍ ورغبةٍ ، وإنَّما قيلَ : (الحقُّ مُرٌّ) بالإضافةِ إلىٰ مَن لم تتهذَّبْ نفْسُهُ فبقيَ فيهِ صوارفُ عنِ الحقِّ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ﴾ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ فِي ٱلرِّضَا لِلهِ . . فَٱعْمَلْ ، وَإِلَّا . . فَفِي ٱلصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »[1] .

ثمَّ لا يكفي في نيلِ السَّعادةِ استلذاذُ الطَّاعةِ واستكراهُ المعصيةِ في زمانٍ دونَ زمانٍ ، بل ينبغي أن يكونَ ذٰلكَ على الدَّوامِ وفي جملةِ العُمرِ ، وكلَّما كانَ العُمرُ أطولَ . . كانَتِ الفضيلةُ أرسخَ وأكملَ ؛ ولذٰلكَ لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السَّعادةِ . . قالَ : « طُولُ ٱلْعُمُرِ فِي طَاعَةِ ٱللهِ »[2] .

ولذٰلكَ كرهَ الأنبياءُ والأولياءُ الموتَ ؛ فإنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وكلَّما كانَتِ العباداتُ أكثرَ بطولِ العُمرِ . . كانَ الثَّوابُ أكثرَ ، والنَّفْسُ أزكىٰ وأطهرَ ، وكمالُها أتمَّ وأظهرَ ، وابتهاجُ صاحبِها بجمالِها عندَ

---

(١) أخرجه هناد في « الزهد » (٥٣٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٢٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، وأبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٢١١) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

التَّجرُّدِ عن علائقِ البَدنِ أشدَّ وأوفرَ ، وذٰلكَ إذا تَنبَّهَ عن نومِهِ الَّذي أغفلَهُ عن إدراكِ حالِ نفْسِهِ ؛ مِن جمالٍ يَبتهِجُ بهِ ، أو خِزْيٍ وخَبالٍ يَفتَضِحُ بهِ ، وذٰلكَ التَّنبُّهُ باطِّراحِ شواغلِ البَدنِ ، والنَّاسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا .

فهٰذهِ مجامعُ الفضائلِ .

❁ ❁ ❁

وغايتُها : أن تصيرَ بحيثُ تَصدُرُ منهُ الفضائلُ أبداً بغيرِ فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ وتعبٍ ، ويَطَّلعَ على الحقِّ بغيرِ تعبٍ طويلٍ ، حتَّىٰ كأنَّهُ يَصدُرُ منهُ وهوَ في غفلتِهِ ؛ كالصَّانعِ الحاذقِ في الخياطةِ والكتابةِ .

وغايةُ الرَّذيلةِ : أن تَترشَّحَ منهُ الرَّذائلُ بغيرِ تَكلُّفٍ ولا فِكْرٍ ولا رَوِيَّةٍ .

❁ ❁ ❁

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الفضائلَ المحصورةَ في فنٍّ نظريٍّ وفي فنٍّ عمليٍّ تحصيلُ كلِّ واحدٍ منهُما علىٰ وجهَينِ :

أحدُهُما : بتعلُّمٍ بَشَرِيٍّ وتَكلُّفٍ اختياريٍّ ، يحتاجُ فيهِ إلىٰ زمانٍ وتدرُّبٍ ومُمارَسةٍ ، وتَتقوَّى الفضيلةُ فيهِ شيئاً فشيئاً تقوِّياً خفيَّ التَّدريجِ ؛ كتدرُّجِ شخصٍ في النُّموِّ وإن كانَ في النَّاسِ مَن يكفيهِ أدنىٰ مُمارَسةٍ[١] ، وذٰلكَ بحسَبِ الذَّكاءِ والبلادةِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (د ، و ، ز) : (في القوة) بدل (في النمو) .

والثَّاني : يحصلُ بجودٍ إلٰهيٍّ ؛ نحوُ أن يُولَدَ الإنسانُ فيصيرَ بغيرِ مُعلِّمٍ عالِماً ؛ كعيسى ابنِ مريمَ ويحيى بنِ زكريَّا صلواتُ اللهِ عليهِم ، وكذا سائرُ الأنبياءِ الَّذينَ حصلَ لهُم مِنَ الإحاطةِ بحقائقِ الأُمورِ ما لم يَحصُلْ لطلَّابِ العلومِ بالتَّعلُّمِ .

وقيلَ : إنَّ ذٰلكَ قد يَحصُلُ أيضاً لغيرِ الأنبياءِ ؛ **وهُمُ الَّذينَ يُعبَّرُ عنهُم بالأولياءِ** ، وهٰذا الآنَ رزقٌ لا يمكنُ اكتسابُهُ بالجهدِ ، فمَن حُرِمَ ذٰلكَ . . فلْيجتهدْ أن يكونَ مِنَ الفريقِ الثَّاني ، ولْيعلمْ نزولَ رتبتِهِ عن رتبةِ أُولٰئكَ ، فليسَ التَّكحُّلُ في العينَينِ كالكَحَلِ (١) .

ولا ينبغي أن تَستبعِدَ أن يكونَ بالطَّبعِ في مَبدَأ الفطرةِ مِنَ العلومِ ما يَحصُلُ بغيرِ تَعلُّمٍ ، وأن يكونَ بخلافِهِ فيصيرَ عالِماً بالجهدِ والاكتسابِ ، كما تُشاهِدُ ذٰلكَ في الأخلاقِ ؛ فربَّ صبيٍّ يُخلَقُ صادقَ اللَّهجةِ سخيّاً جريئاً ، وربَّما يُخلَقُ بخلافِهِ ، وذٰلكَ يَحصُلُ بالتَّأديبِ والتَّربيةِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً : الفضيلةُ تارةً تَحصُلُ بالطَّبعِ ، وطَوراً بالاعتيادِ ، ومَرَّةً بالتَّعلُّمِ .

فمَن تظاهرَتْ في حقِّهِ الجهاتُ الثَّلاثُ حتَّىٰ صارَ ذا فضيلةٍ طبعاً واعتياداً وتعلُّماً . . **فهوَ في غايةِ الفضيلةِ** ، ومَن كانَ رَذْلاً مِن هٰذهِ الجهاتِ الثَّلاثِ . . **فهوَ في غايةِ الرَّذالةِ** ، وبينَهُما في الرُّتبةِ مَنِ اختلفَتْ بهِ هٰذهِ الجهاتُ .

❀ ❀ ❀

(١) الكَحَلُ : سوادٌ يعلو جفون العينين خِلْقةً .

بيان تفصيل الطّريق إلى تهذيب الأخلاق

ينبغي أن تعلمَ : أنَّ علاجَ النَّفْسِ بمحوِ الرَّذائلِ عنها ، وكسبِ الفضائلِ لها .

مثالُهُ : علاجُ الأبدانِ بمحوِ العِللِ عنها ، وكسبِ الصِّحَّةِ لها .

وكما أنَّ الغالبَ علىٰ أصلِ المِزاجِ الاعتدالُ ، وإنَّما تعتري العلَّةُ المُغيّرةُ للاعتدالِ بعوارضِ الأغذيةِ وغيرِها . . فكذٰلكَ كلُّ مولودٍ يُولَدُ علىٰ الفطرةِ ، فأبواهُ يُهوِّدانِهِ ويُنصِّرانِهِ ويُمجِّسانِهِ ، **والمقصودُ** : أنَّهُ بالتَّعلُّمِ والاعتيادِ يكتسبُ الرَّذائلَ .

وكما أنَّ البَدنَ في الابتداءِ لا يُخلَقُ كاملاً ، وإنَّما يَكمُلُ بالنُّشوءِ والتَّربيةِ بالغذاءِ . . فكذٰلكَ النَّفْسُ تُخلَقُ ناقصةً ، وإنَّما تكمُلُ بالتَّزكيةِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، والتَّغذيةِ بالعِلْمِ .

وكما أنَّ البَدنَ إن كانَ صحيحاً فشأنُ الطَّبيبِ في تمهيدِ القانونِ الحافظِ للصِّحَّةِ ، **وإن كانَ مريضاً** فشأنُهُ جلبُ الصِّحَّةِ إليهِ . . فكذٰلكَ النَّفْسُ منكَ إن كانَتْ زكيَّةً طاهرةً مُهذَّبةَ الأخلاقِ . . فينبغي أن تسعىٰ لحفظِ صحَّتِها ، وجلبِ مزيدِ قُوَّةٍ وصفاءٍ إليها ، وإن كانَتْ عديمةَ الكمالِ والصَّفاءِ . . فينبغي أن تسعىٰ للجلبِ (١) .

وكما أنَّ العِلَّةَ المُغيّرةَ للاعتدالِ المُوجِبةَ للمرضِ لا تُعالَجُ

---

(١) في هامش (ب) : (قوبلت) .

إلَّا **بضدِّها** ؛ إن كانَتْ مِن حرارةٍ فبالبرودةِ ، وبالعكسِ . . فكذٰلك الرَّذيلةُ المُوجِبةُ لنقصانِ النَّفْسِ علاجُها بضدِّها كما سبقَ ؛ مِن علاجِ الجهلِ بالتَّعلُّمِ ، والبخلِ بالتَّسخِّي تكلُّفاً ، والتَّكبُّرِ بالتَّواضعِ تَكلُّفاً ، والشَّرَهِ بالكفِّ عنِ المُشتهىٰ تَكلُّفاً .

وكما أنَّ كلَّ مُبرِّدٍ لا يكفي لعِلَّةٍ سببُها الحرارةُ إلَّا إذا كانَ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ، ويَختلِفُ ذٰلكَ بالشِّدَّةِ والضَّعفِ ، والدَّوامِ وعدمِهِ ، وبالكثرةِ والقِلَّةِ ، ولا بدَّ لهُ مِن عيارٍ يُعرَفُ بهِ مقدارُ النَّافعِ منهُ ، فإن لم يُحفَظْ عيارُهُ زادَ الفسادُ . . فكذٰلكَ النَّقيضُ الَّذي تُعالَجُ بهِ الأخلاقُ لا بدَّ لهُ مِن عيارٍ .

وكما أنَّ عيارَ الدَّواءِ مأخوذٌ مِن عيارِ العِلَّةِ ، حتَّىٰ إنَّ الطَّبيبَ لا يُعالِجُ ما لم يَعرِفْ أنَّ العِلَّةَ مِن حرارةٍ أو برودةٍ ، وإن كانَتْ مِن حرارةٍ . . فما درجتُها ؟ أهيَ ضعيفةٌ أم قويَّةٌ ؟ فإذا عرفَ . . التفتَ معَهُ إلىٰ أحوالِ البَدنِ وأحوالِ الزَّمانِ ، والصِّناعةِ الَّتي المريضُ بصددِها ، وعالجَ بحَسَبِها .

فكذٰلكَ الشَّيخُ المتبوعُ الَّذي يَطُبُّ نفوسَ المُريدينَ والمُسترشِدينَ ينبغي ألَّا يَهجُمَ عليهِم بالرِّياضةِ والتَّكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ ما لم يَعرِفْ أخلاقَهُم ، فإذا عرفَ ما هوَ الغالبُ على المُريدِ مِنَ الخُلُقِ السَّيِّئِ ، وعرفَ مِقدارَهُ ، ولاحظَ حالَهُ وصنعتَهُ وسِنَّهُ وما يَحتمِلُهُ مِنَ المُعالَجةِ . . عَيَّنَ لهُ الطَّريقَ .

ولذٰلكَ ترى الشَّيخَ يُشيرُ علىٰ بعضِ المُريدينَ أن يخرجَ إلى

السُّوقِ للكُديةِ [١] ، وذٰلكَ إذا تَوسَّمَ فيهِ نوعَ رئاسةٍ وتكبُّرٍ ، فيُعالِجُهُ بما يراهُ ذُلّاً في حقِّهِ وهوَ نقيضُ خُلُقِهِ ؛ حتَّىٰ ينكسرَ بهِ تكبُّرُهُ .

ويُشيرُ علىٰ بعضِهِم بتعهُّدِ بيتِ الماءِ ، وإعدادِ نُبَلِ الاستنجاءِ [٢] ، وذٰلكَ إذا رأىٰ نفْسَهُ مائلةً إلى الرُّعونةِ في النَّظافةِ المُجاوِزةِ حدَّ الاعتدالِ .

وقد يُشيرُ عليهِ بالصَّومِ ويأمرُهُ بالوصالِ ، إلَّا بمقدارٍ يَخرُجُ بهِ عن مُوجِبِ النَّهيِ ، وذٰلكَ إذا رآهُ شابّاً قويَّ الشَّهوةِ ، مُولَعاً بشهوةِ البطنِ والفرْجِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِن طُرُقِ التَّهذيبِ .

وعن بعضِهِم : أنَّهُ كانَ يُعالِجُ قُوَّةَ الغضبِ ويطلبُ صفةَ الحِلْمِ ، فكانَ يعطي السُّفهاءَ الأُجرةَ ليجبَهوهُ بالشَّتمِ في المحافلِ [٣] ، فيَتعوَّدَ احتمالَهُ ، فصارَ بحيثُ يُضرَبُ بهِ المَثَلُ في الحِلْمِ .

وكانَ آخَرُ يُدَرِّجُ نفْسَهُ إلى الشَّجاعةِ ، فيركبُ البحرَ في الشِّتاءِ .

وآخَرُ كانَ يُهيِّئُ المآكلَ الطَّيِّبةَ ويطعمُها عبيدَهُ بحضرتِهِ وهوَ يقتصرُ علىٰ خبزِ الشَّعيرِ ؛ لكَسْرِ الشَّرَهِ .

وعُبَّادُ الهندِ يُعالِجونَ الكسلَ عنِ العبادةِ بالقيامِ طولَ ليلِهِ علىٰ نَصْبةٍ واحدةٍ لا ينتقلُ عنها [٤] .

---

(١) الكُدْية هنا : طلب العطايا من الناس .

(٢) النُّبَل : جمع نُبْلة ؛ وهي الحجر الصغير .

(٣) يجبهوه : يستقبلوه .

(٤) في (أ ، ب) : (قضية) بدل (نصبة) ، وفي (ج) تحتمل : (قصبة) .

وآخَرُ عالجَ حُبَّ المالِ بأن باعَ كلَّ مالِهِ ، ورمىٰ بثمنِهِ في البحرِ .

فهـٰذا طريقٌ جُمْليٌّ في تهذيبِ الأخلاقِ ، والقولُ في تفصيلِهِ يطولُ .

❁ ❁ ❁

والغرضُ : أن تنظرَ ـ أيُّها المُتشوِّفُ إلىٰ تزكيةِ نفْسِكَ ـ في أخلاقِكَ ؛ فإن كانَتْ مُهذَّبةً . . فاحفظْها ، وإن كانَتْ مائلةً . . فقوِّمْها بالرَّدِّ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ علىٰ ما سيأتي مِنَ التَّفصيلِ [1] ، فإنَّ المقصودَ مِن كسبِ الاعتدالِ سَلْبُ الطَّرفَينِ ؛ إذِ الغرضُ تطهيرُ النَّفْسِ عنِ الصِّفاتِ الَّتي تلحقُها بعوارضِ البَدنِ حتَّىٰ لا تلتفتَ إليها بعدَ المُفارَقةِ عاشقةً لها ومُتأسِّفةً علىٰ فواتِها ، وممنوعةً بالاشتغالِ والتَّألُّمِ بها عنِ السَّعادةِ اللَّائقةِ بجوهرِها .

ومهما أردْنا ألَّا يكونَ الماءُ حارّاً ولا بارداً . . طلبْنا فيهِ الاعتدالَ ، وكانَ الفاترُ لا حارّاً ولا بارداً ، فكذٰلكَ هـٰذهِ الصِّفاتُ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فبماذا أعلمُ أنَّ الحاصلَ لي هوَ الخُلُقُ الجميلُ ؛ وهوَ الوَسَطُ المُعتدِلُ بينَ طرفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ ؟

فطريقُكَ : أن تنظرَ في الأفعالِ الَّتي يُوجِبُها ذٰلكَ الخُلُقُ الَّذي فيهِ مُجاهَدتُكَ ؛ **فإذا التذذتَ بفعلِهِ** . . فاعلمْ أنَّ الخُلُقَ المُوجِبَ لهُ

---

(١) أي : قريباً ضمن هـٰذا الفصل .

راسخٌ في نفْسِكَ ، **فإن كانَ ذٰلكَ الفعلُ قبيحاً** . . فاعلمْ أنَّ الخُلُقَ قبيحٌ ؛ مثلَ أن تَلتذَّ بإمساكِ المالِ وجمعِهِ ، فمُوجِبُهُ خُلُقُ البخلِ ، فعوِّدْ نفْسَكَ نقيضَهُ .

والأخلاقُ الحسنةُ والسَّيِّئةُ قد فَصَّلَها الشَّرعُ ، ويجمعُها ما صُنِّفَ في آدابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهيَ مشهورةٌ ، وسنشيرُ إلىٰ جُمَلِها .

ونعني بالاعتدالِ : أنَّكَ لو كنتَ تَلتذُّ بالإسرافِ في تفريقِ المالِ . . فتعلمُ أنَّ هٰذا أيضاً مذمومٌ ، **وهوَ الَّذي يُعبَّرُ عنهُ بالخُرْقِ** .

بلِ المحمودُ المُعتدِلُ هوَ السَّخاءُ الواقعُ بينَ الخُرْقِ والبُخْلِ ؛ وهوَ أن يَتيسَّرَ عليكَ بذلُ ما يقتضي الشَّرعُ والعقلُ بذلَهُ عن طوعٍ ورغبةٍ ، ويَتيسَّرَ عليكَ إمساكُ ما يقتضي الشَّرعُ والعقلُ إمساكَهُ عن طوعٍ ورغبةٍ .

وكذا في سائرِ الصِّفاتِ ، والواحدُ منها كافٍ للمثالِ .



وإذا عرفتَ أنَّ معيارَ الأعمالِ مأخوذٌ مِن مِقدارِ الصِّفاتِ والأخلاقِ . . لم يَخْفَ عليكَ أنَّ الطَّريقَ في هٰذا يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ ، ويختلفُ أيضاً في حقِّ شخصٍ واحدٍ باختلافِ الأحوالِ ، **فمَن رُزِقَ البصيرةَ . . اتَّبَعَ العِلَّةَ وعالجَها بطريقِها** .

ولـمَّا كانَ أكثرُ النَّاسِ يَعجِزونَ عنهُ ، وعَسُرَ على الشَّرعِ تفصيلُ

يفي بجميعِ الأحوالِ لجميعِ الأشخاصِ في جميعِ الأعصارِ . . اقتصرَ الشَّرعُ في التَّفصيلِ على القوانينِ المُشترَكةِ الَّتي تَعُمُّ جدواها ؛ مِنَ الطَّاعاتِ وتركِ المعاصي المذكورةِ ، ثمَّ رَغِبَ عنِ المباحاتِ الَّتي تُقصَدُ للتَّلذُّذِ بأُمورٍ جُمْليَّةٍ ؛ كقولِهِ عليهِ السَّلامُ : « حُبُّ ٱلدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »[1] ، وأمثالِهِ .

ثمَّ عَرَفَ **أهلُ البصيرةِ منهُ غايةَ المطلوبِ وطريقَهُ** ، وغايةَ المحذورِ وطريقَهُ ، ووقفوا بهِ على التَّفصيلِ ، وأرشدوا إليهِ مَن وُفِّقَ لاتِّباعِهِم ، فكانوا نُوَّاباً عنِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ في تفصيلِ ما أجملوهُ ، وشرحِ ما مهَّدوهُ ؛ ولذٰلكَ قيلَ : « ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ »[2] .

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠١٩) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٦٣٦) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٣٤) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه مطولاً .

بيان أمهات الفضائل

الفضائلُ وإن كانَتْ كثيرةً . . فيجمعُها أربعةٌ تَشمَلُ شُعَبَها وأنواعَها ؛ وهيَ : **الحكمةُ ، والشَّجاعةُ ، والعِفَّةُ ، والعدالةُ** .

فالحكمةُ : فضيلةُ القُوَّةِ العقليَّةِ .

والشَّجاعةُ : فضيلةُ القُوَّةِ الغضبيَّةِ .

والعِفَّةُ : فضيلةُ القُوَّةِ الشَّهوانيَّةِ .

والعدالةُ : عبارةٌ عن وقوعِ هٰذهِ القُوىٰ على التَّرتيبِ الواجبِ ، فبها تَتِمُّ جميعُ الأُمورِ ؛ ولذٰلكَ قيلَ : (بالعدلِ قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ) .

فلْنشرحْ آحادَ هٰذهِ الأُمَّهاتِ ، ثمَّ لِنشرحْ بناتِها وما ينطوي مِنَ الأنواعِ تحتَها .

أمَّا الحكمةُ : فنعني بها : ما عَظَّمَهُ اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٦٩﴾ ﴾ ، وما أرادَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ »[1] ، وهيَ منسوبةٌ إلى القُوَّةِ العقليَّةِ .

وقد عرفتَ فيما سبقَ أنَّ للنَّفْسِ قُوَّتَينِ[2] :

إحداهُما : تلي جهةَ فوقٍ ؛ وهيَ الَّتي بها تَتلقَّىٰ حقائقَ العلومِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧) ، وابن ماجه (٤٣٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر ما تقدم (ص ٣٩ ـ ٤١) .

الكلّيّةِ الضَّروريَّةِ والنَّظريَّةِ مِنَ الملأ الأعلىٰ ، وهيَ العلومُ اليقينيَّةُ الصَّادقةُ أزلاً وأبداً ، لا تختلفُ باختلافِ الأعصارِ والأُممِ ؛ كالعِلْمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وأصنافِ خَلْقِهِ في العالَمِ .

بل مِن جملتِهِ : العِلْمُ بأنَّ النَّفيَ والإثباتَ لا يَصدُقانِ علىٰ شيءٍ واحدٍ في حالٍ واحدةٍ بجهةٍ واحدةٍ ، وكذا سائرُ العلومِ الحقيقيَّةِ .

فهٰذهِ العلومُ هيَ الحكمةُ الحقيقيَّةُ .

والقُوَّةُ الثَّانيةُ : **هيَ الَّتي تلي جهةَ تحتٍ** ؛ أعني : جهةَ البَدنِ وتدبيرِهِ وسياستِهِ ، وبها تُدرِكُ النَّفْسُ الخيراتِ في الأعمالِ ، وتُسمَّى : **العقلَ العمليَّ** ، وبها يَسوسُ قُوىٰ نفْسِهِ ، ويَسوسُ أهلَ منزلِهِ وأهلَ بلدِهِ .

واسمُ (الحكمةِ) لها مِن وجهٍ كالمجازِ ؛ لأنَّ معلوماتِها مثلُ الزِّئبقِ ؛ تَتقلَّبُ ولا تثبتُ .

فمِن معلوماتِها : أنَّ بذلَ المالِ فضيلةٌ ، وقد يصيرُ رذيلةً في بعضِ الأوقاتِ وفي حقِّ بعضِ الأشخاصِ ؛ فلذٰلكَ كانَ اسمُ (الحكمةِ) بالأُولىٰ أحقَّ ، وهٰذهِ الثَّانيةُ كالكمالِ والتَّتمَّةِ للأُولىٰ ، **وهٰذهِ هيَ الحكمةُ الخُلُقيَّةُ** ، **والأُولىٰ هيَ الحكمةُ العِلْميَّةُ النَّظريَّةُ .**

ونعني بالحكمةِ الخُلُقيَّةِ : حالةً وفضيلةً للنَّفْسِ العاقلةِ بها تَسوسُ القُوَّةَ الغضبيَّةَ والشَّهوانيَّةَ ، وتُقدِّرُ حركاتِها على الحدِّ الواجبِ في الانقباضِ والانبساطِ ؛ وهيَ العِلْمُ بصوابِ الأفعالِ .

وهٰذهِ الفضيلةُ الخُلُقيَّةُ تكتنفُها رذيلتانِ ؛ وهُما : الخِبُّ ، والبَلَهُ .

أمَّا الخِبُّ : فهوَ طرفُ إفراطِها وزيادتِها ؛ وهيَ حالةٌ بها يكونُ الإنسانُ ذا مكرٍ وحيلةٍ ؛ بإطلاقِ الغضبيَّةِ والشَّهوانيَّةِ ليتحرَّكا إلى المطلوبِ حركةً زائدةً علىٰ قَدْرِ الواجبِ .

وأمَّا البَلَهُ : فهوَ طرفُ تفريطِها ونقصانِها عنِ الاعتدالِ ؛ وهيَ حالةٌ للنَّفْسِ تَقصُرُ بالغضبيَّةِ والشَّهوانيَّةِ عنِ القَدْرِ الواجبِ ، ومَنشؤُهُ : بُطْءُ الفهمِ ، وقِلَّةُ الإحاطةِ بصوابِ الأفعالِ .



وأمَّا الشَّجاعةُ : فهيَ فضيلةٌ للقُوَّةِ الغضبيَّةِ بكونِها قويَّةً ، ومعَ قُوَّةِ الحميَّةِ مُنقادةً للعقلِ المُتأدِّبِ بالشَّرعِ في إقدامِها وإحجامِها .

وهيَ وَسَطٌ بينَ رذيلتَيها المُكتنِفتَينِ لها ؛ وهُما : التَّهوُّرُ ، والجبنُ .

والتَّهوُّرُ : طرفُ الزِّيادةِ على الاعتدالِ ؛ وهيَ الحالةُ الَّتي بها يُقدِمُ الإنسانُ على الأُمورِ المُخطِرةِ الَّتي يجبُ في العقلِ الإحجامُ عنها .

وأمَّا الجبنُ : فهوَ طرفُ النُّقصانِ ؛ وهيَ حالةٌ بها تَنقُصُ حركةُ القُوَّةِ الغضبيَّةِ عنِ القَدْرِ الواجبِ ، فتُصرَفُ عنِ الإقدامِ حيثُ يجبُ الإقدامُ .

ومهما حصلَتْ هٰذهِ الأخلاقُ . . صدرَتْ منها هٰذهِ الأفعالُ ؛ أي : **يَصدُرُ مِن خُلُقِ الجبنِ** : الإحجامُ لا في محلِّهِ ، **ومِنَ التَّهوُّرِ** : الإقدامُ لا في محلِّهِ ، **وهُما خُلُقانِ سيِّئانِ .**

ومِنَ **الشَّجاعةِ يَصدُرُ** : الإقدامُ والإحجامُ حيثُ يجبُ ، وكما يجبُ ، وهوَ **الخُلُقُ الحَسنُ المحمودُ** ، وإيَّاهُ أُرِيدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

فلا الشِّدَّةُ في كلِّ مقامٍ محمودةٌ ، ولا الرَّحمةُ ، **بلِ المحمودُ ما يوافقُ معيارَ العقلِ والشَّرعِ** .

فمَن حصلَ لهُ ذٰلكَ . . فلْيحفظْهُ بالمُواظَبةِ علىٰ أفعالِهِ ، ومَن لم يَحصُلْ لهُ . . فلْينظرْ :

فإن كانَ طبعُهُ مائلاً إلى النُّقصانِ الَّذي هوَ الجبنُ . . فلْيَتعاطَ أفعالَ الشُّجعانِ مُتكلِّفاً ومُواظِباً عليهِ حتَّىٰ يصيرَ لهُ بالاعتيادِ طبعاً وخُلُقاً ، فيفيضَ منهُ أفعالُ الشُّجعانِ بعدَ ذٰلكَ طبعاً .

وإن كانَ مائلاً إلىٰ طرفِ الزِّيادةِ ؛ وهوَ التَّهوُّرُ . . فلْيُشعِرْ نفْسَهُ بعواقبِ الأُمورِ ولْيعظِّمْ أخطارَها ، ولْيتكلَّفِ الإحجامَ إلىٰ أن يعودَ إلى الاعتدالِ أو ما يَقرُبُ منهُ ؛ فإنَّ الوقوفَ علىٰ حقيقةِ حدِّ الاعتدالِ شديدٌ ، ولو تُصُوِّرَ ذٰلكَ . . لارتحلَتِ النَّفْسُ عنِ البَدنِ وليسَ معَها علاقةٌ منهُ ، فكانَتْ لا تَتعذَّبُ أصلاً بالتَّأسُّفِ علىٰ ما يفوتُها منهُ ، وكانَ لا يَتكدَّرُ عليها ابتهاجُها بما تَجلَّىٰ لها مِن جمالِ الحقِّ وجلالِهِ ، ولٰكنْ لمَّا عسُرَ ذٰلكَ . . قيلَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

وقد رأىٰ بعضُ المشايخِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ : ما الَّذي أردتَ بقولِكَ : « شَيَّبَتْنِي سُورَةُ (هُودٍ) » ؟[1] ،

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

فقال : « قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ »[1] .

يعني : أنَّ الاستدادَ على الصِّراطِ المُستقيمِ في طلبِ الوَسَطِ بينَ هٰذهِ الأطرافِ . . شديدٌ ، وهوَ أدقُّ مِنَ الشَّعرِ ، وأحدُّ مِنَ السَّيفِ ؛ كما وُصِفَ مِن حالِ الصِّراطِ في الدَّارِ الآخرةِ ، ومَنِ **استقامَ على الصِّراطِ في الدُّنيا . . استقامَ عليهِ في الآخرةِ** ، بل يكونُ في الآخرةِ مُستقيماً ؛ إذ يموتُ المرءُ على ما عاشَ عليهِ ، ويُحشَرُ على ما ماتَ عليهِ .

ولذٰلكَ أُوجِبَ في كلِّ صلاةٍ (الفاتحةُ) المُشتمِلةُ على قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ؛ فإنَّهُ أعزُّ الأُمورِ وأعصاها على الطَّالبِ ، ولو كُلِّفَ ذٰلكَ في خُلُقٍ واحدٍ . . لطالَ العَناءُ فيهِ ، وقد كُلِّفْنا ذٰلكَ في جميعِ الأخلاقِ معَ خروجِها عنِ الحصرِ كما سيأتي إن شاءَ اللهُ ، **ولا مَخلَصَ مِن هٰذهِ المُخطِراتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ** ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ هَلْكَىٰ إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ، وَٱلْعَالِمُونَ كُلُّهُمْ هَلْكَىٰ إِلَّا ٱلْعَامِلُونَ ، وَٱلْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلْكَىٰ إِلَّا ٱلْمُخْلِصُونَ ، وَٱلْمُخْلِصُونَ عَلَىٰ خَطَرٍ عَظِيمٍ »[2] .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أن يُمِدَّنا بتوفيقِهِ لنجاوزَ الأخطارَ في هٰذهِ الدَّارِ ، ولا ننخدعَ بدواعي الاغترارِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٦٧) .
(٢) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٥٥) عن ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ من قوله ، والخطيب البغدادي في « اقتضاء العلم العمل » (٢٢) عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ بنحوه من قوله .

وأمَّا **العِفَّةُ** : فهيَ فضيلةُ القوَّةِ الشَّهوانيَّةِ ؛ وهيَ انقيادُها على تيسُّرٍ وسهولةٍ للقُوَّةِ العقليَّةِ حتَّى يكونَ انقباضُها وانبساطُها بحسَبِ إشارتِها .

ويكتنفُها رذيلتانِ : **الشَّرَهُ ، وخُمودُ الشَّهوةِ** .

فالشَّرهُ : هوَ إفراطُ الشَّهوةِ إلى المُبالَغةِ في اللَّذَّاتِ الَّتي تستقبحُها القُوَّةُ العقليَّةُ وتنهى عنها .

والخُمودُ : هوَ قصورُ الشَّهوةِ عنِ الانبعاثِ إلى ما يقتضي العقلُ نيلَهُ وتحصيلَهُ .

وهُما مذمومانِ ، كما أنَّ العِفَّةَ الَّتي هيَ الوسَطُ محمودةٌ .

وعلى الإنسانِ أن يراقبَ شهوتَهُ ، والغالبُ عليها الإفراطُ ، لا سيَّما إلى الفرْجِ والبطنِ ، وإلى المالِ والرِّئاسةِ وحُبِّ الثَّناءِ .

والإفراطُ والتَّفريطُ في كلِّ ذلكَ نقصانٌ ، وإنَّما الكمالُ في الاعتدالِ .

ومعيارُ الاعتدالِ : العقلُ والشَّرعُ ؛ وذلكَ بأن تعلمَ الغايةَ المطلوبةَ مِن خَلْقِ الشَّهوةِ والغضبِ مثلاً ؛ بأن تعلمَ أنَّ شهوةَ الطَّعامِ إنَّما خُلِقَتْ لتبعثَ على تناولِ الغذاءِ الَّذي يَسُدُّ خللَ ما يَتحلَّلُ مِن أجزاءِ بَدنِهِ بالحرارةِ الغريزيَّةِ ؛ حتَّى يبقى البَدنُ حيّاً ، والحواسُّ سليمةً ، فيَتوصَّلَ بالبَدنِ إلى نيلِ العلومِ ودَرَكِ حقائقِ الأُمورِ ، ويَتشبَّهَ بالطَّبقةِ العليا بالإضافةِ إليهِ ؛ وهيَ رتبةُ الملائكةِ ، وبها كمالُها وسعادتُها .

ومَن عرفَ هذا . . كانَ قصدُهُ مِنَ الطَّعامِ التَّقوِّيَ على العبادةِ دونَ التَّلذُّذِ بهِ ، فيَقتصِرُ ويَقتصِدُ لا محالةَ ، ولا يَشتدُّ إليهِ شرهُهُ .

ويَعلَمُ أنَّ شهوةَ الجِماعِ خُلِقَتْ فيهِ لتكونَ باعثةً على الجِماعِ الَّذي هوَ سببُ بقاءِ نوعِ الإنسانِ محفوظاً ، فيطلبَ النِّكاحَ للولدِ والتَّحصُّنِ لا للَّعبِ والتَّمتُّعِ ، وإن تَمتَّعَ ولعبَ . . كانَ باعثُهُ عليهِ التَّألُّفَ والاستمالةَ الباعثةَ علىٰ حُسْنِ الصُّحبةِ ودوامِ النِّكاحِ .

ويَقتصِرُ مِنَ الأنكحةِ على القَدْرِ الَّذي لا يُعجِزُهُ عنِ القيامِ بحقوقِهِ ، ومَن عرفَ ذٰلكَ . . سَهُلَ عليهِ الاقتصارُ ، وعندَ ذٰلكَ لا يقيسُ نفْسَهُ بصاحبِ الشَّرعِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ؛ إذ كانَ لا يَشغَلُهُ كثرةُ الأنكحةِ عن ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يلزمُهُ طلبُ الدُّنيا لأجلِ الأزواجِ .

ومَن ظنَّ أنَّ ما لا يَضُرُّ صاحبَ الشَّرعِ لا يَضُرُّهُ . . كانَ كمَن ظنَّ أنَّ ما لا يُغيِّرُ البحرَ الخِضَمَّ مِنَ النَّجاساتِ . . لا يُغيِّرُ كُوزاً مُغترَفاً مِنَ البحرِ ، وأنَّ ما لا يَضُرُّ الشَّخصَ القويَّ الأَيِّدَ السَّويَّ مِنَ الأطعمةِ اللَّذيذةِ[1] . . لا يَضُرُّ الصَّبيَّ الرَّضيعَ السَّخيفَ البُنْيَةِ .

وكم مِن أحمقَ يَتكايسُ ، فيُقايسُ نفْسَهُ بصاحبِ الشَّرعِ مُقايَسةَ الملائكةِ بالحدَّادينَ[2] ، **فيَهلِكُ مِن حيثُ لا يدري !!**

نعوذُ باللهِ مِن عَمَشِ البصيرةِ ؛ فإنَّها تكادُ تكونُ أردىٰ مِنَ العمىٰ ، إذِ الأعمىٰ يعتقدُ عجزَهُ ، فيُقلِّدُ فيهديهِ غيرُهُ ، والأعمشُ ينفتحُ مِن بصيرتِهِ بقَدْرِ ما يَستنكِفُ بهِ عنِ الاتِّباعِ ، ثمَّ لا يَكمُلُ نورُهُ بحيثُ يَستقِلُّ مُستدّاً في سواءِ السَّبيلِ .

---

(١) الأيِّد : الشديد الصلب .

(٢) قوله : (مقايسة الملائكة بالحدادين) من الأمثلة الجارية على الألسن . انظر « جمهرة الأمثال » (١/٢١٧) .

ومَن هـٰذا حالُهُ . . فلا يبالي اللهُ في أيِّ وادٍ هلكَ .

ولقد رأيتُ طائفةً مِنَ الحمقى العوامِّ يَتكايسونَ في التَّصرُّفِ بآرائِهِم ، ويزعمونَ أنَّ هـٰذهِ الشَّهواتِ لماذا خُلِقَتْ إن كانَ اتِّباعُها مذموماً ومُهلِكاً ، ولم يعلموا أنَّ تحتَ خَلْقِ الشَّهوتَينِ ـ أعني : شهوةَ البطنِ والفرْجِ ـ **حكمتَينِ عظيمتَينِ** :

إحداهُما : إبقاءُ الشَّخصِ بالغذاءِ ، والنَّوعِ بالحرثِ ؛ فإنَّهما ضروريَّانِ في الوجودِ بحُكمِ إجراءِ اللهِ سبحانَهُ سُنَّتَهُ بمشيئتِهِ الأزليَّةِ الَّتي لا تجدُ لها تبديلاً ولا تحويلاً .

والثَّانيةُ : ترغيبُ الخَلْقِ في السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ بها ؛ فإنَّهُم لو لم يُحِسُّوا بهـٰذهِ اللَّذَّاتِ والآلامِ . . لم يرغبوا في الجنَّةِ ، ولم يحذروا النَّارَ ، ولو وُعِدوا بما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذنٌ سمعَتْ ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ . . لَمَا أثَّرَ ذٰلكَ بمُجرَّدِهِ في نفوسِهِم .

هـٰذا حُكمُ العِفَّةِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العدلُ : فهوَ حالةٌ للقُوى الثَّلاثِ في انتظامِها على التَّناسبِ بحسَبِ التَّرتيبِ الواجبِ في الاستعلاءِ والانقيادِ ، فليسَ هوَ جزءاً مِنَ الفضائلِ ، بل هوَ عبارةٌ عن جملةِ الفضائلِ .

فإنَّهُ مهما كانَ بينَ المَلِكِ وجُندِهِ ورعيَّتِهِ ترتيبٌ محمودٌ ؛ بكونِ المَلِكِ بصيراً قاهراً ، وكونِ الجُندِ ذوي قُوَّةٍ وطاعةٍ ، وكونِ الرَّعيَّةِ ضُعفاءَ سلسي القِيادِ . . قيلَ : إنَّ العدلَ قائمٌ في البلدِ ، ولن ينتظمَ

العدلُ ؛ بأن يكونَ بعضُهُم بهٰذهِ الصِّفاتِ دونَ كلِّهِم ، وكذٰلكَ العدلُ في مملكةِ البَدنِ بينَ هٰذهِ الصِّفاتِ .

والعدلُ في أخلاقِ النَّفْسِ يَتبعُهُ ـ لا محالةَ ـ العدلُ في المُعامَلةِ والسِّياسةِ ، ويكونُ كالمُتفرِّعِ منهُ .

ومعنى العدلِ : التَّرتيبُ المُستحَبُّ [1] : إمَّا في الأخلاقِ ، وإمَّا في حقوقِ المُعاملاتِ ، وإمَّا في أجزاءِ ما بهِ قِوامُ البلدِ .

والعدلُ في المُعامَلةِ : وَسَطٌ بينَ رذيلتَي الغَبْنِ والتَّغابنِ ؛ وهوَ أن يأخذَ ما لهُ أخذُهُ ، ويعطيَ ما لهُ إعطاؤُهُ .

والغَبْنُ : أن يأخذَ ما ليسَ لهُ .

والتَّغابنُ : أن يعطيَ في المُعامَلةِ ما ليسَ عليهِ حمدٌ ولا أجرٌ .

والعدلُ في السِّياسةِ : أن تُرتَّبَ أجزاءُ المدينةِ التَّرتيبَ المُشاكِلَ لترتيبِ أجزاءِ النَّفْسِ ؛ حتَّىٰ تصيرَ المدينةُ في ائتلافِها وتناسبِ أجزائِها وتعاونِ أركانِها على الغرضِ المطلوبِ مِنَ الاجتماعِ . . كالشَّخصِ الواحدِ ، فيُوضَعَ كلُّ شيءٍ موضعَهُ .

وينقسمُ سُكَّانُهُ : إلىٰ مخدومٍ لا يَخدُمُ ، وإلىٰ خادمٍ ليسَ بمخدومٍ ، وإلىٰ طبقةٍ يُخدَمونَ مِن وجهٍ ، ويَخدُمونَ مِن وجهٍ ؛ كما ذكرْناهُ في قُوى النَّفْسِ ، حتَّىٰ ينتهيَ إلى الكَنَّاسِ الَّذي هوَ خادمٌ مُجرَّدٌ كما كانَتِ القُوَّةُ الدَّافعةُ للفَضَلَاتِ في قُوى النَّفْسِ [2] .

---

(١) في هامش (ج) ها هنا : (المستحق) ، وأُشير لها بنسخة .

(٢) انظر ما تقدم (ص ٤٧ ـ ٤٩) .

ولا يكتنفُ العدلَ رذيلتانِ ، بل رذيلةُ الجَوْرِ المقابلِ لهُ ؛ إذ ليسَ بينَ التَّرتيبِ وعدمِ التَّرتيبِ وَسَطٌ .

وبمثلِ هـٰذا التَّرتيبِ والعدلِ قامَتِ السَّماواتُ والأرضُ ، حتَّىٰ صارَ العالَمُ كلُّهُ كالشَّخصِ الواحدِ مُتعاونَ القُوىٰ والأجزاءِ .

* * *

وإذ قد ذكرْنا جُمَلَ هـٰذهِ الأُمَّهاتِ . . فلْنذكرْ تفصيلَ ما يَندرِجُ تحتَ كلِّ فضيلةٍ ورذيلةٍ مِن أنواعِ الفضائلِ والرَّذائلِ ، مُبتدِئينَ فيهِ بالقُوَّةِ العقليَّةِ ، ثمَّ الغضبيَّةِ ، ثمَّ الشَّهوانيَّةِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ أشفىٰ في البيانِ .

* * *

بيان ما يندرج تحت فضيلة الحكمة ورذيلتيها من الخبّ والبَلَه

أمَّا الحكمةُ . . **فيَندرِجُ تحتَ فضيلتِها** : حُسنُ التَّدبيرِ ، وجُودةُ الذِّهنِ ، وثقابةُ الرَّأيِ ، وصوابُ الظَّنِّ .

أمَّا حُسنُ التَّدبيرِ : فهوَ جُودةُ الرَّويَّةِ في استنباطِ ما هوَ الأصلحُ والأفضلُ في تحصيلِ الخيراتِ العظيمةِ والغاياتِ الشَّريفةِ ممَّا يَتعلَّقُ بكَ ، أو تشيرُ بهِ علىٰ غيرِكَ في تدبيرِ منزلٍ أو مدينةٍ ، أو مُقاوَمةِ عدوٍّ ودفعِ شرٍّ .

وبالجملةِ : في كلِّ أمرٍ عظيمٍ ، مُتفاقِمٍ خطيرٍ ، فإن كانَ الأمرُ هيِّناً حقيراً . . سُمِّيَ : **كَيْساً** ، ولم يُسَمَّ : **تدبيراً** .

وأمَّا جُودةُ الذِّهنِ : فهوَ القدرةُ علىٰ صوابِ الحُكمِ عندَ اشتباهِ الآراءِ وثَوَرانِ النِّزاعِ فيها .

وأمَّا ثَقابةُ الرَّأيِ : فهوَ سرعةُ الوقوفِ على الأسبابِ المُوصِلةِ في الأُمورِ إلى العواقبِ المحمودةِ .

وأمَّا صوابُ الظَّنِّ : فهوَ مُوافَقةُ الحقِّ فيما تقتضيهِ المُشاهَداتُ مِن غيرِ استعانةٍ بتأمُّلِ الأدلَّةِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا رذيلةُ الخِبِّ . . فيَندرِجُ تحتَها : الدَّهاءُ ، والجَرْبَزَةُ[١] .

والدَّهاءُ : هوَ جُودةُ استنباطِ ما هوَ أبلغُ في إتمامِ ما يَظُنُّ صاحبُهُ أنَّهُ خيرٌ وليسَ بخيرٍ في الحقيقةِ ، ولٰكنْ فيهِ ربحٌ خطيرٌ .

فإن كانَ الرِّبحُ خسيساً . . سُمِّيَ : **جَرْبَزَةً** .

فالفرقُ بينَ الدَّهاءِ والجَرْبَزةِ لا يَرجِعُ إلَّا إلى الحقارةِ والشَّرفِ .



وأمَّا رذيلةُ البَلَهِ . . فيندرِجُ تحتَها : الغَمارةُ ، والحُمْقُ ، والجُنونُ .

أمَّا الغَمارةُ : فهيَ قِلَّةُ التَّجرِبةِ بالجملةِ في الأُمورِ العمليَّةِ معَ سلامةِ التَّخيُّلِ ، وقد يكونُ الإنسانُ غُمْراً في شيءٍ دونَ شيءٍ بحسَبِ التَّجرِبةِ .

والغُمْرُ بالجملةِ : هوَ الَّذي لم يُجرِّبِ الأُمورَ ولم تُحنِّكْهُ التَّجارِبُ .

وأمَّا الحُمْقُ : فهوَ فسادُ أوَّلِ الرَّويَّةِ فيما يُؤدِّي إلى الغايةِ المطلوبةِ حتَّىٰ يَنهَجَ غيرَ السَّبيلِ المُوصِلِ ، فإن كانَ خِلْقَةً . . سُمِّيَ : حُمْقاً طبيعيّاً ، ولا يقبلُ العلاجَ ، وقد يَحدُثُ عن مرضٍ ، فيزولُ بزوالِ المرضِ .

وأمَّا الجُنونُ : فهوَ فسادُ التَّخيُّلِ في انتقاءِ ما ينبغي أن يُؤثَرَ ، حتَّىٰ يَتَّجِهَ إلىٰ إيثارِ غيرِ المُؤثَرِ .

---

(١) الجَرْبزة : الخبث والخداع والمكر والاحتيال .

فالفاسدُ مِنَ المجنونِ غرضُهُ ، ومِنَ الأحمقِ سلوكُهُ ؛ إذ غرضُ الأحمقِ كغرضِ العاقلِ ، ولذٰلكَ لا يُعرَفُ في أوَّلِ الأمرِ إلَّا بالسُّلوكِ إلىٰ تحصيلِ الغرضِ ، والجنونُ هوَ فسادُ الغرضِ ؛ ولذٰلكَ يُعرَفُ في أوَّلِ الأمرِ .

❋ ❋ ❋

بيان ما يندرج تحت فضيلة الشّجاعة

وهوَ : الكرمُ ، والنَّجدةُ ، وكِبَرُ النَّفْسِ ، والاحتمالُ ، والحِلْمُ ، والثَّباتُ ، والنُّبْلُ ، والشَّهامةُ ، والوَقارُ .

أمَّا الكَرَمُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ البَذَخِ والنَّذالةِ ؛ وهوَ طِيبُ النَّفْسِ بالإنفاقِ الواجبِ في الأُمورِ الجليلةِ القَدْرِ ، العظيمةِ النَّفعِ ، وقد يُسمَّىٰ : **حرِّيَّةً** .

وأمَّا النَّجدةُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ الجَسارةِ والانخذالِ ؛ وهوَ ثقةُ النَّفْسِ عندَ استرسالِها إلى الموتِ مهما وجبَ ذٰلكَ مِن غيرِ خوفٍ .

وأمَّا كِبَرُ النَّفْسِ : فهوَ وَسَطٌ بينَ التَّكبُّرِ وصِغَرِ النَّفْسِ ؛ وهوَ فضيلةٌ يَقدِرُ بها الإنسانُ علىٰ أن يُؤهِّلَ نفْسَهُ للأُمورِ الجليلةِ معَ استحقارِهِ لها وقِلَّةِ مبالاتِهِ بها ؛ ابتهاجاً منهُ بقَدْرِ نفْسِهِ وجلالتِها .

وأثرُهُ : أن يَقِلَّ سرورُهُ بالإكرامِ الكثيرِ مِنَ العظماءِ (١) ، ولا يُسَرَّ بإكرامِ الأراذلِ ، ولا بالأُمورِ الصِّغارِ ، ولا بما يجري مِنَ السَّعاداتِ مَجرى البَخْتِ والاتِّفاقِ (٢) .

وأمَّا الاحتمالُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ الجَسارةِ والهَلَعِ ؛ وهوَ حبسُ النَّفْسِ علىٰ مُصابَرةِ المُؤذِياتِ .

---

(١) أي : أنه لا يستعظم الإكرام مهما كان المكرم عظيماً .

(٢) البَخْتُ : الحظُّ .

وأمَّا الحِلْمُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ الاستشاطةِ والانفراكِ ؛ وهوَ حالةٌ تُكسِبُ النَّفسَ الوَقارَ .

وأمَّا الثَّباتُ : فهوَ شدَّةُ النَّفْسِ وبُعدُها مِنَ الخَوَرِ .

وأمَّا الشَّهامةُ : فهوَ الحِرْصُ على الأعمالِ توقُّعاً للجمالِ .

وأمَّا النُّبْلُ : فهوَ سرورُ النَّفْسِ بالأفعالِ العِظامِ .

وأمَّا الوَقارُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ الكِبْرِ والتَّواضعِ ؛ وهوَ أن يضعَ نفْسَهُ مَوضِعَ استحقاقِها لمعرفتِهِ بقَدْرِها .



وأمَّا رذيلتا الشَّجاعةِ ؛ **وهُما** : **التَّهوُّرُ ، والجبنُ** . . **فيَندرِجُ تحتَهُما** : البَذْخُ ، والنَّذالةُ ، والجَسارةُ ، والتَّكولُ ، والتَّنفُّجُ ، وصِغَرُ النَّفْسِ ، والجَسارةُ ، والهَلَعُ ، والاستشاطةُ ، والانفراكُ ، والتَّكبُّرُ ، والتَّخاسُسُ ، والعُجْبُ ، والمَهانةُ ، **فما يَميلُ منها إلىٰ جانبِ الزِّيادةِ . . فهوَ تحتَ التَّهوُّرِ ، وما يَميلُ إلىٰ جانبِ النُّقصانِ . . فهوَ تحتَ الجبنِ** .

فأمَّا البَذْخُ : فهوَ الإنفاقُ فيما لا يجبُ مِنَ الزِّينةِ وغيرِها ؛ طلباً للصَّلَفِ (١) .

وأمَّا النَّذالةُ : فهيَ الدَّناءةُ ، وتركُ الإنفاقِ فيما يجبُ ، والافتخارُ بالأشياءِ الصِّغارِ .

وأمَّا الجَسارةُ : فالاستهانةُ بالموتِ حيثُ لا تجبُ الاستهانةُ .

---

(١) الصلف : التمدح والتيه .

وأمَّا النُّكولُ : فهوَ الانقباضُ عمَّا لا يجبُ عنهُ الانقباضُ ؛ خوفاً مِنَ الهلاكِ .

وأمَّا التَّنفُّجُ : فهوَ تأهيلُ النَّفْسِ للأُمورِ الكبارِ مِن غيرِ استحقاقٍ .

وأمَّا صِغَرُ النَّفْسِ : فهوَ تأهيلُ النَّفْسِ لِمَا دونَ الاستحقاقِ .

وأمَّا الجَسارةُ : فهوَ قِلَّةُ التَّأثُّرِ بأسبابِ الهلاكِ مِن غيرِ أثرٍ جميلٍ يقتضيهِ [1] .

وأمَّا الهَلَعُ : فهوَ سوءُ احتمالِ الآلامِ والمُؤذِياتِ .

وأمَّا الاستشاطةُ : فهوَ سرعةُ الغضبِ وحِدَّتُهُ .

وأمَّا الانفراكُ : فهوَ بُطْءُ الغضبِ وبَلادتُهُ .

وأمَّا التَّكبُّرُ : فهوَ رفعُ النَّفْسِ فوقَ قَدْرِها .

وأمَّا التَّخاسُسُ : فحَطُّ النَّفْسِ في الكرامةِ والتَّوقيرِ إلىٰ ما دونَ قَدْرِها لا على الوجهِ الواجبِ ، فإن كانَ على الوجهِ الواجبِ . . سُمِّيَ : **تواضعاً محموداً** .

والمُولِّدُ للكِبْرِ هوَ العُجْبُ ؛ وذٰلكَ جهلُ الإنسانِ بمِقدارِ نفْسِهِ ، وظنُّهُ أنَّها علىٰ رتبةٍ عاليةٍ مِن غيرِ أن تكونَ كذٰلكَ .

وذمُّ النَّاسِ للتَّكبُّرِ والتَّخايلِ أشدُّ مِن ذمِّهِم للتَّخاسُسِ والتَّبذيرِ ؛

---

(١) تكررت (الجسارة) في موضعين ، وكلاهما بمعنىً .

فإنَّهُما في غايةِ القبحِ ، وهـٰذانِ وإن كانا مذمومَينِ فهُما شبيهانِ بالسَّخاءِ والتَّواضعِ .

وربَّما يَدِقُّ دَرَكُ الفَرْقِ بينَهُما ، فيُظَنُّ أنَّهُما محمودانِ ، وهُما رذيلتانِ بالحقيقةِ ، مائلتانِ عنِ الوَسَطِ ؛ ولذٰلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبَىٰ لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ »(١) .

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٧١/٥) ، والبيهقي في « السنن الكبير » (٧٨٥٩) عن سيدنا ركب المصري رضي الله عنه .

بيان ما يندرج تحت فضيلة العفة ورذيلتها

أمَّا فضائلُ العِفَّةِ . . فهيَ : الحياءُ ، والخَجَلُ ، والمُسامَحةُ ، والصَّبرُ ، والسَّخاءُ ، وحُسنُ التَّقديرِ ، والانبساطُ ، والدَّماثةُ ، والانتظامُ ، وحُسنُ الهيئةِ ، والقناعةُ ، والهدوءُ ، والوَرَعُ ، والطَّلاقةُ ، والمُساعَدةُ ، والتَّسخُّطُ ، والظَّرْفُ .

أمَّا الحياءُ : فهوَ وَسَطٌ بينَ الوَقاحةِ والخُنوثةِ .

وقيلَ في حدِّهِ : إنَّهُ أَلَمٌ يَعرِضُ للنَّفْسِ عندَ الفزعِ مِنَ النَّقيصةِ .

وقيلَ : إنَّهُ خوفُ الإنسانِ مِن تقصيرٍ يقعُ بهِ عندَ مَن هوَ أفضلُ منهُ .

وقيلَ : إنَّهُ رِقَّةُ الوجهِ عندَ إتيانِ القبائحِ ، وتحفُّظُ النَّفْسِ عن مَذَمَّةٍ تَتوجَّهُ عليها بالحقِّ .

وبالجملةِ : فإنَّهُ يُستعمَلُ في الانقباضِ عنِ القبيحِ ، ويُستعمَلُ في الانقباضِ عمَّا يَظنُّهُ المُستحيي قبيحاً ، وهـٰذا الأخيرُ يليقُ بالصِّبيانِ والنِّساءِ ، وهوَ مذمومٌ مِنَ العقلاءِ ، والأوَّلُ جميلٌ مِن كلِّ أحدٍ .

والمرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ يَسْتَحْيِي مِنْ ذِي ٱلشَّيْبَةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ أَنْ يُعَذِّبَهُ »[1] ؛ أي : يَترُكُ تعذيبَهُ .

---

(١) أخرجه الحارث كما في « بغية الباحث » (١٠٨٤) ، وأبو يعلى في « المسند » (٢٧٦٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

وأمَّا الخَجَلُ : فهوَ فترةُ النَّفْسِ بفَرْطِ الحياءِ ، وإنَّما يُحمَدُ في النِّساءِ والصِّبيانِ دونَ الرِّجالِ .

وإنَّما يَستحيي الإنسانُ في نفْسِهِ ، ويَستحيي ممَّن يَكبُرُ في نفْسِهِ ؛ وذٰلكَ أن يَستحييَ مِنَ النَّاسِ ، أو مِن نفْسِهِ ، أو مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومَن لا يَستحيي مِن نفْسِهِ ويَستحيي مِنَ النَّاسِ . . فنفْسُهُ عندَهُ أخسُّ مِن غيرِهِ ، ومَن لا يَستحيي مِنَ اللهِ . . فلِعَدَمِ معرفتِهِ بجلالِ اللهِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءِ »[١] ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ .

فإنَّهُ مهما أحسَّ في نفْسِهِ أنَّ اللهَ يراهُ . . فيَستحيي ـ لا محالةَ ـ إن كانَ مُتديِّناً مُعظِّماً ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ »[٢] ؛ **لأنَّ الحياءَ للإنسانِ هوَ أوَّلُ أماراتِ العقلِ ، والإيمانَ آخِرُ مراتبِ العقلِ** ، وكيفَ يَنالُ المرتبةَ الأخيرةَ مَن لم يُجاوِزِ الأُولىٰ ؟!

وأمَّا المُسامَحةُ : فهوَ التَّجافي عن بعضِ الاستحقاقِ باختيارٍ وطِيبةِ نفْسٍ ، وهوَ وَسَطٌ بينَ المُناقَشةِ والإهمالِ .

وأمَّا الصَّبرُ : فهوَ مُقاوَمةُ النَّفْسِ للهوىٰ ، واحتماؤُها مِنَ اللَّذَّاتِ القبيحةِ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه قِوام السنة في « الترغيب والترهيب » (١٠٩٨) ، وأبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٨٤) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٢) عن سيدنا يزيد بن جارية رضي الله عنه .

وأمَّا **السَّخاءُ** : فهوَ وَسَطٌ بينَ التَّبذيرِ والتَّقتيرِ ؛ وهوَ سهولةُ الإنفاقِ ، وتجنُّبُ اكتسابِ الشَّيءِ مِن غيرِ وجهِهِ .

وأمَّا **حُسْنُ التَّقديرِ** : فهوَ الاعتدالُ في النَّفقاتِ ؛ احترازاً مِن طرفَي التَّقتيرِ والتَّبذيرِ .

وأمَّا **الدَّماثةُ** : فهوَ حُسْنُ هيئةِ النَّفْسِ الشَّهوانيَّةِ في الاشتياقِ إلىٰ ما يَحسُنُ الاشتياقُ إليهِ .

وأمَّا **الانتظامُ** : فهوَ حالٌ للنَّفسِ يدعوها إلىٰ نظمِ ما يُقدِّرُهُ مِنَ النَّفقاتِ حتَّىٰ يناسبَ بعضُها بعضاً .

وأمَّا **حُسْنُ الهيئةِ** : فمحبَّةُ الزِّينةِ الواجبةِ الَّتي لا رعونةَ فيها .

وأمَّا **القناعةُ** : فحُسْنُ تدبيرِ المَعاشِ مِن غيرِ خِبٍّ .

وأمَّا **الهدوءُ** : فسكونُ النَّفْسِ فيما تَنالُهُ مِنَ اللَّذَّاتِ الجميلةِ .

وأمَّا **الوَرَعُ** : فوَسَطٌ بينَ الرِّياءِ والهُتْكَةِ ؛ وهوَ تزيينُ النَّفْسِ بالأعمالِ الصَّالحةِ الفاضلةِ ؛ طلباً لكمالِ النَّفْسِ ، وتقرُّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، دونَ الرِّياءِ والسُّمعةِ .

وأمَّا **الطَّلاقةُ** : فهوَ المُزاحُ بالأدبِ مِن غيرِ فحشٍ وافتراءٍ ، وهوَ وَسَطٌ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ في الجِدِّ والهَزْلِ .

وأمَّا **الظَّرْفُ** : فهوَ وَسَطٌ بينَ العَبَثِ الَّذي هوَ إفراطٌ في الإعجابِ بالأصدقاءِ ، وبينَ التَّبرُّمِ الَّذي هوَ الإفراطُ في التَّحاشي ؛ وهوَ أن يَعرِفَ

الإنسانُ طبقاتِ الجُلَسَاءِ ، ويَحفظَ أوقاتَ الأُنْسِ ، ويعطيَ كلّاً ما هوَ أهلُهُ مِنَ المُباسَطةِ في الوقتِ اللَّائقِ بهِ .

ولـمَّا كانَ الإنسانُ مُفتقِراً إلى استراحةٍ ضروريَّةٍ ؛ ترويحاً للقلبِ . . لم يكنْ بدٌّ مِن نوعٍ مِنَ العِشرةِ ، والدُّعابةُ مُستطابةٌ غيرُ مُترقِّيةٍ إلى الهَزْلِ ، لـٰكنْ بمِقدارِ ما يفارقُ الإنسانُ بهِ حدَّ التَّوحُّشِ وسيرةَ الجُفاةِ ، غيرَ مُجاوِزٍ إلىٰ دَأبِ المَساخرِ في المُضحِكاتِ ، وقد نُقِلَ مِن دُعابةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ما يُنبِّهُ علىٰ جنسِهِ ، ولسْنا نُطوِّلُ بهِ .

وأمَّا **المُساعَدةُ** : فإنَّهُ وَسَطٌ بينَ الشَّكَاسةِ والمَلَقِ ؛ وهوَ تركُ الخلافِ والإنكارِ على المُعاشرينَ في الأُمورِ الاعتياديَّةِ ؛ إيثاراً للتَّلذُّذِ بالمُخالَطةِ .

وأمَّا **التَّسخُّطُ** : فهوَ وَسَطٌ بينَ الحسدِ والشَّماتةِ ؛ وهوَ الاغتمامُ بالخيراتِ الواصلةِ إلىٰ مَن لا يَستحِقُّها ، والشُّرورِ الَّتي تلحقُ مَن لا يَستحِقُّها .



وأمَّا الرَّذائلُ المُندرِجةُ تحتَ رذيلتَيِ العِفَّةِ ؛ وهُما : الشَّرَهُ ، وكَلالُ الشَّهوةِ . . فهيَ : الوَقاحةُ ، والخَنَثُ ، والتَّبذيرُ ، والتَّقتيرُ ، والرِّياءُ ، والهُتْكةُ ، والكَزازةُ ، والمَجانةُ ، والعَبَثُ ، والتَّحاشي ، والشَّكاسةُ ، والمَلَقُ ، والحسدُ ، والشَّماتةُ .

فأمَّا **الوَقاحةُ** : فلَجَاجُ النَّفْسِ في تعاطي القبيحِ مِن غيرِ احترازٍ مِنَ الذَّمِّ .

وأمَّا الخَنَثُ : فحالٌ تعتري النَّفْسَ مِن إفراطِ الحياءِ تَقبِضُها عنِ الانبساطِ قولاً وفعلاً .

وأمَّا التَّبذيرُ : فإفناءُ المالِ فيما لا يجبُ ، وفي الوقتِ الَّذي لا يجبُ ، وأكثرَ ممَّا يجبُ .

وأمَّا التَّقتيرُ : فهوَ الامتناعُ عن إنفاقِ ما يجبُ ، **وسببُهُ** : البخلُ والشُّحُّ واللُّؤمُ ، ولكلِّ واحدةٍ مِن هٰذهِ الثَّلاثةِ رتبةٌ :

ـ **أمَّا البخيلُ** : فهوَ الَّذي يُفرِّطُ ويُقصِّرُ في الإنفاقِ خوفاً مِن أن تَضطَرَّهُ الفاقةُ إلى المسألةِ والتَّذلُّلِ للأعداءِ ، وكأنَّ سببَ البخلِ هوَ الجبنُ عندَ البحثِ .

ـ **وأمَّا الشَّحيحُ** : فهوَ الَّذي يجمعُ إلىٰ ما ذكرْناهُ : أن يكرهَ حُسْنَ حالِ غيرِهِ ؛ طمعاً في أن تَضطَرَّهُ الحاجةُ إليهِ فينالَ بهِ الجاهَ والرِّفعةَ ، **ومَنشَأُ هٰذا** : ضربٌ مِنَ الجهلِ .

ـ **وأمَّا اللَّئيمُ** : فهوَ الَّذي يجمعُ إلىٰ هٰذهِ الصِّفاتِ : احتمالَ العارِ في الشَّيءِ الحقيرِ ، **وسببُهُ** : نوعٌ مِنَ الخُبْثِ ؛ وذٰلكَ مثلُ المُتلصِّصِ والدَّيُّوثِ .

وأمَّا الرِّياءُ : فهوَ التَّشبُّهُ بذوي الأعمالِ الفاضلةِ ؛ طلباً للسُّمعةِ .

وأمَّا الهُتْكةُ : فالإعراضُ عن تزيينِ النَّفْسِ بالأعمالِ الفاضلةِ ، والمُجاهَرةُ بأضدادِها .

وأمَّا الكَزازةُ : فالإفراطُ في الجِدِّ .

وأمَّا **المَجانةُ** : فالإفراطُ في الهَزْلِ .

وأمَّا **العَبَثُ** : فالإفراطُ في الإعجابِ بلقاءِ الجليسِ والأنيسِ .

وأمَّا **التَّحاشي** : فإفراطُ التَّبرُّمِ بلقاءِ الجليسِ .

وأمَّا **الشَّكاسةُ** : فمُخالَفةُ المُعاشرينَ في شرائطِ الأُنْسِ .

وأمَّا **المَلَقُ** : فالتَّحبُّبُ إلى المُعاشرينَ معَ التَّغافلِ عمَّا يَلحقُهُ مِن عارِ الاستخفافِ .

وأمَّا **الحسدُ** : فالاغتمامُ بالخيرِ الواصلِ إلى المُستحِقِّ الَّذي يَعرِفُهُ الحاسدُ .

وأمَّا **الشَّماتةُ** : فالفرحُ بالشَّرِّ الواصلِ إلىٰ غيرِ المُستحِقِّ ممَّن يَعرِفُهُ الشَّامتُ .

فهٰذا ما أردْنا أن نذكرَ مِن فضائلِ هٰذهِ القُوى الثَّلاثِ ورذائلِها .

❀ ❀ ❀

فأمَّا العدالةُ . . فجامعةٌ لجميعِ الفضائلِ .

والجَوْرُ المُقابِلُ لها . . فجامعٌ لجميعِ الرَّذائلِ .

وما مِن خُلُقٍ مِن هٰذهِ الأخلاقِ إلَّا وقد وردَ في فضائلِها أخبارٌ باعثةٌ عليها ، وفي رذائلِها زواجرُ عنها ، ولم نرَ تطويلَ الكتابِ بها ، فلْيُطلَبْ ذٰلكَ مِن كتابِ « آدابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ » وغيرِهِ مِنَ الكتبِ (١) .

---

(١) أراد : كتاب « أخلاق النبي ﷺ وآدابه » للحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد ابن حيان الأصبهاني المعروف بـ (أبي الشيخ) رحمه الله تعالىٰ ، وانظر « إحياء علوم الدين » (٤/٧١٩) وما بعدها .

وإنَّما الغرضُ : بيانُ أنَّ الإنسانَ بسببِ هٰذهِ القُوى الثَّلاثِ بصددِ هٰذهِ الأخلاقِ كلِّها ، ولكلِّ واحدٍ طرفانِ وواسطةٌ ، **وهوَ مأمورٌ بالتَّوسُّطِ والاستقامةِ بينَ طرفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ في جملةِ ذٰلكَ** ، حتَّىٰ إذا حصلَ ذٰلكَ كلُّهُ . . كَمُلَ كمالاً يُقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ تقريباً بالرُّتبةِ لا بالمكانِ ؛ بحسَبِ قُرْبِ الملائكةِ المُقرَّبينَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

❁ ❁ ❁

فللهِ البهاءُ الأعظمُ ، والكمالُ الأتمُّ ، وكلُّ موجودٍ فمُشتاقٌ إلى الكمالِ المُمكِنِ لهُ ، وهوَ غايتُهُ المطلوبةُ منهُ ، فإن نالَهُ . . التحقَ بأُفقِ العالَمِ الَّذي فوقَهُ ، وإن حُرِمَ عنهُ . . طُرِحَ إلى الحضيضِ الَّذي تحتَهُ .

فالإنسانُ بينَ أن ينالَ الكمالَ ، فيَلتحِقَ في القُربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بأُفقِ الملائكةِ ، **وذٰلكَ سعادتُهُ** ، أو يُقبِلَ علىٰ ما هوَ مُشترَكٌ بينَهُ وبينَ البهائمِ مِن رذائلِ الشَّهوةِ والغضبِ ، فينحطَّ إلىٰ درجةِ البهائمِ ويَهلِكَ هلاكاً مُؤبَّداً ، **وهوَ شقاوتُهُ** .

ومثالُهُ : الفرسُ الجوادُ الَّذي كمالُهُ في شدَّةِ عدوِهِ ، فإن عَجزَ عن ذٰلكَ . . حُطَّ إلىٰ رتبةِ ما دونَهُ ، فاتُّخِذَ حَمولةً أو أَكولةً .

ومراتبُ الكمالِ للإنسانِ بحسَبِ هٰذهِ الأخلاقِ وبحسَبِ العلومِ . . غيرُ محصورةٍ ؛ ولذٰلكَ تتفاوتُ درجاتُ الخَلْقِ في الآخرةِ كما تتفاوتُ في الدُّنيا في الخَلْقِ والأخلاقِ ، والثَّروةِ واليسارِ ، وسائرِ الأحوالِ .

❋ ❋ ❋

بيان البواعث على تحرّي الخيرات، والصّوارف عنها

أمَّا الخيراتُ الدُّنيويَّةُ . . فالبواعثُ عليها ثلاثةٌ :

أدناها : التَّرغيبُ والتَّرهيبُ بما يُرجىٰ ويُخشىٰ في الحالِ .

والثَّاني : رجاءُ المَحمَدةِ وخوفُ المَذمَّةِ ممَّن يُعتَدُّ بحمدِهِ وذمِّهِ .

والثَّالثُ : طلبُ الفضيلةِ وكمالِ النَّفْسِ ؛ لأنَّهُ كمالٌ وفضيلةٌ لا لغايةٍ أُخرىٰ وراءَها .

فالأَوَّلُ : مُقتضى الشَّهوةِ ؛ وهوَ رتبةُ العوامِّ .

والثَّاني : مُقتضى الحياءِ ومبادئِ العقلِ القاصرِ ؛ وهوَ مِن أفعالِ السَّلاطينِ وأكابرِ أبناءِ الدُّنيا ودُهاتِهِمُ المعدودينَ مِن جملةِ العقلاءِ بالإضافةِ إلى الغَوْغَاءِ العوامِّ .

والثَّالثُ : مُقتضىٰ كمالِ العقلِ ؛ وهوَ فعلُ الأولياءِ والحكماءِ ومُحقِّقي العقلاءِ .

❁ ❁ ❁

ولتفاوتِ هٰذهِ المراتبِ قيلَ : (خيرُ ما أُعطِيَ الإنسانُ . . عقلٌ يَردعُهُ ، فإن لم يكنْ . . فحياءٌ يَمنعُهُ ، فإن لم يكنْ . . فخوفٌ يَقمَعُهُ ، فإن لم يكنْ . . فمالٌ يَستُرُهُ ، فإن لم يكنْ . . فصاعقةٌ تُحرِقُهُ فتُريحُ منهُ العبادَ والبلادَ) .

وهٰذا التَّفاوتُ يَعرِضُ لكلِّ شخصٍ مِن صباهُ إلىٰ كِبَرِهِ ؛ إذ هوَ

في ابتداءِ الصِّبا لا يمكنُ زجرُهُ وحثُّهُ بالحمدِ والـذَّمِّ ، بل بمطعومٍ حاضرٍ ، أو ضربٍ ناجزٍ يُحِسُّ بهِ .

فإذا ما صارَ مُميِّزاً مُقارِباً للبلوغِ . . أمكنَ حَثُّهُ وزجرُهُ بالمَحمدةِ والمَذمَّةِ ؛ **فطريقُ زجرِهِ** : مَذمَّةُ المزجورِ عنهُ وتقبيحُ حالِ مُتعاطيهِ ، **وطريقُ ترغيبِهِ في تَعلُّمِ الأدبِ وغيرِهِ** : كثرةُ الثَّناءِ علىٰ آتيهِ ، وكثرةُ ذمِّ مُجتنِبيهِ ، فيُؤثِّرُ ذٰلكَ تأثيراً ظاهراً .

وأكثرُ الخَلْقِ لا يُجاوِزونَ هاتَينِ الرُّتبتَينِ إلى الرُّتبةِ الثَّالثةِ ، فيكونُ إقدامُهُم وإحجامُهُم صادرَينِ عن هٰذهِ البواعثِ والصَّوارفِ .

وأمَّا الرُّتبةُ الثَّالثةُ . . فيَعِزُّ وجودُها .

والخيراتُ الأُخرويَّةُ أيضاً هٰذا شأنُها ، وبهٰذا الطَّريقِ يتفاوتُ النَّاسُ فيها ؛ إذ لا فرقَ بينَ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ إلَّا بتأخُّرٍ وتَقدُّمٍ ، وإلَّا . . فالخيرُ مطلوبُ كلِّ عاقلٍ عاجلاً وآجلاً .

❁ ❁ ❁

والبواعثُ على الطَّلبِ لا تعدو هٰذهِ الأقسامَ ؛ فكلُّ مَن أطاعَ اللهَ وتركَ معصيتَهُ . . فرُتَبُهُم ثلاثٌ :

الأُولىٰ : مَن رغبَ في ثوابِهِ الموصوفِ لهُ في الجنَّةِ ، أو خافَ عقابَهُ الموعودَ بهِ في النَّارِ ، وهٰذهِ **الرُّتبةُ للعامَّةِ** ، وهُمُ الأكثرونَ .

❁ ❁ ❁

والثَّانيةُ : رجاءُ حمدِ اللهِ تعالىٰ ومخافةُ ذمِّهِ ؛ أعني : حمداً وذمّاً

في الحالِ مِن جهةِ الشَّرعِ ، وهـٰذهِ منزلةُ **الصَّالحينَ** ، وهُم أقلُّ مِنَ الأوَّلِ بكثيرٍ .

❁ ❁ ❁

والثَّالثةُ ـ وهوَ العزيزُ الفردُ ـ : مَن لا يبتغي إلَّا التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وطلبَ مرضاتِهِ ، وابتغاءَ وجهِهِ ، والالتحاقَ بزمرةِ المُقرَّبينَ إليهِ زُلْفىٰ مِن ملائكتِهِ ، **وهيَ درجةُ الصِّدِّيقينَ والنَّبيِّينَ** ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

وقيلَ لرابعةَ العدويَّةِ : ألا تسألينَ اللهَ الجنَّةَ ؟ فقالَتِ : (الجارُ ثمَّ الدَّارُ) [١] .

وقالَ بعضُهُم : (مَن عبدَ اللهَ لعوضٍ . . فهوَ لئيمٌ) .

ولمَّا كانَ العقلُ الضَّعيفُ لا يقفُ علىٰ كُنْهِ هـٰذا المعنىٰ ، وأكثرُ العقولِ ضعيفةً . . خلقَ اللهُ تعالى الجنَّةَ والنَّارَ ، ووعدَ الخَلْقَ بهِما زجراً وحثّاً ، وأطنبَ في وصفِهِما ، ولم يَتعرَّضْ لهـٰذهِ المعاني إلَّا بالمرامزِ ؛ مثلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ، و« أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي ٱلصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ » [٢] .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص١٢٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وأمَّا الصَّوارفُ : فإمَّا قُصورٌ ، أو تقصيرٌ .

أمَّا القُصورُ . . فالمرضُ المانعُ ، والشُّغلُ الضَّروريُّ في طلبِ قُوتِ النَّفْسِ والعيالِ وما يجري مَجراهُ .

وهٰذا معذورٌ غيرُ مذمومٍ ، إلَّا أنَّهُ عن ذروةِ الكمالِ محرومٌ ، ولا دواءَ لهُ إلَّا الفزعُ إلى اللهِ تعالىٰ لإماطةِ هٰذهِ الصَّوارفِ بجُودِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا التَّقصيرُ . . فضربانِ : جهلٌ ، وشهوةٌ غالبةٌ .

أمَّا الجهلُ . . فهوَ ألَّا يَعرِفَ الخيراتِ الأُخرويَّةَ وشرفَها ، وحقارةَ متاعِ الدُّنيا بالإضافةِ إليها .

وهوَ علىٰ رتبتَينِ :

إحداهُما : أن يكونَ عن غفلةٍ ، وعدمِ مُصادَفةِ مُرشِدٍ مُنبِّهٍ ، وهٰذا علاجُهُ سهلٌ ؛ ولأجلِهِ وجبَ أن يكونَ في كلِّ قُطْرٍ جماعةٌ مِنَ العلماءِ والوُعَّاظِ يُنبِّهونَ الخَلْقَ مِن غفلتِهِم ، ويُرغِّبونَ عنِ الدُّنيا في الآخرةِ ، لا على الوجهِ الَّذي ألِفَهُ أكثرُ وُعَّاظِ الزَّمانِ ، فهٰذا ما يُجرِّئُ الخَلْقَ على المعاصي ، ويحقرُ الدِّينَ عندَهُم .

والثَّانيةُ : أن يكونَ لاعتقادِهِ أنَّ السَّعادةَ هيَ اللَّذَّاتُ الدُّنيويَّةُ والرِّئاسةُ الحاضرةُ ، وأنَّ أمرَ الآخرةِ لا أصلَ لهُ ، أو هوَ مبذولٌ لكلِّ مُؤمِنٍ كيفَ كانَ عملُهُ ، أو يظنُّ أنَّ الاتِّكالَ علىٰ عفوِ اللهِ سبحانَهُ ينجيهِ ، وأنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ لا نقصانَ لهُ مِن معصيةِ العصاةِ ، فلا بدَّ أن يرحمَهُم .

وهٰذهِ أنواعٌ مِنَ الحماقاتِ فَتَّرَتْ خلائقَ كثيرةً عنِ الطَّاعاتِ ، وجَرَّأَتْهُم على المعاصي .

فأمَّا مَن ظنَّ أنَّ الآخرةَ لا أصلَ لها . . فهوَ الكفرُ المحضُ ، والضَّلالُ الصِّرْفُ ، ومهما كانَ هٰذا الاعتقادُ مُصمَّماً . . حصلَ اليأسُ عن صاحبِهِ ، والتحقَ بالهَلْكىٰ علىٰ كلِّ حالٍ .

وأمَّا مَن ظنَّ أنَّ مُجرَّدَ الإيمانِ يكفيهِ . . فهوَ جهلٌ بحقيقةِ الإيمانِ ، وغفلةٌ عن قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَالَ : (لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ) مُخْلِصاً . . دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ »[1] ، **وأنَّ معنى الإخلاصِ** : أن يكونَ مُعتقَدُهُ وفعلُهُ مُوافِقاً لقولِهِ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ مُنافِقاً ، **وأقلُّ درجاتِهِ** : ألَّا يَتَّخِذَ إلـٰهَهُ هواهُ ، فكلُّ مَنِ اتَّبعَ هواهُ . . فهوَ عبدُهُ ، وإلـٰهُهُ هواهُ ، وذٰلكَ يُبطِلُ قولَهُ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) وينافي إخلاصَهُ .

ومَن ظنَّ أنَّ سعادةَ الآخرةِ تُنالُ بمُجرَّدِ قولِهِ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) دونَ تحقيقِهِ بالمُعامَلةِ . . كانَ كمَن ظنَّ أنَّ الطَّبيخَ يحلو بقولِهِ : (طرحتُ فيهِ السُّكَّرَ) دونَ أن يَطرحَهُ ، أوِ الولدَ يَتخلَّقُ بقولِهِ : (وطئتُ الزَّوجةَ) دونَ أن يطأَ ، أوِ الزَّرعَ يَنبُتُ بقولِهِ : (بذرتُ البَذْرَ) دونَ أن يَبذُرَ .

وكما أنَّ هٰذهِ المقاصدَ في الدُّنيا لا تُنالُ إلَّا بأسبابِها . . فكذٰلكَ

---

(١) أخرجه البزار كما في « كشف الأستار » (٧) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٥/١٩٧) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه .

أمرُ الآخرةِ ؛ فإنَّ الآخرةَ والدُّنيا واحدةٌ ، وإنَّما خُصَّ باسمِ الآخرةِ لتأخُّرِهِ ، والخروجُ إلىٰ فضاءِ العالَمِ آخِرةٌ بالإضافةِ إلى الكونِ في بطنِ الأُمِّ ، والبلوغُ إلىٰ عالَمِ التَّمييزِ آخِرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَهُ ، والبلوغُ إلىٰ رتبةِ العقلاءِ آخِرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَها .

وإنَّما هٰذهِ تَردُّدٌ في أطوارِ الخِلْقةِ ، والموتُ طَورٌ آخَرُ مِنَ الأطوارِ ، ونوعٌ آخَرُ مِنَ التَّرَقِّي ، وضربٌ آخَرُ مِنَ الولادةِ والانتقالِ مِن عالَمٍ إلىٰ عالَمٍ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْقَبْرُ : إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ ٱلنَّارِ ، وَإِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ »(١) ؛ أي : ليسَ في الموتِ إلَّا تبديلُ منزلِكَ .

وكما أنَّ مَن جلسَ مُتَّكِلاً علىٰ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ونعمتِهِ مُتعطِّشاً جائعاً ، لم يَسلُكِ الطَّريقَ في شُربِ الماءِ وتناولِ الخبزِ . . هلكَ ، ومَنِ اتَّكلَ عليهِ في طلبِ المالِ ولم يَتَّجِرْ . . لم يَحصُلْ لهُ المالُ ، وكانَ سفيهاً .

فكذا مَن أرادَ الآخرةَ وسعىٰ لها سعيَها وهوَ مُؤمِنٌ . . فأُولئكَ كانَ سعيُهُم مشكوراً ؛ ولذٰلكَ نَبَّهَ عليهِ تباركَ وتعالىٰ فقالَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

ومهما عرفَ أنَّ البهاءَ الأكملَ للهِ ، وأنَّ السَّعادةَ القُصوىٰ في القُرْبِ منهُ ، وأنَّ القُرْبَ منهُ ليسَ بالمكانِ ، وإنَّما هوَ باكتسابِ الكمالِ علىٰ حسَبِ الإمكانِ ، وأنَّ كمالَ النَّفْسِ بالعِلْمِ والعملِ ، والاطِّلاعِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مطولاً .

علىٰ حقائقِ الأُمورِ معَ حُسْنِ الأخلاقِ ، فمَن لم يَكمُلْ . . كيفَ يَقرُبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؟!

ومَن أرادَ أن يُقرِّبَ رتبتَهُ عندَ المَلِكِ بنوعٍ مِنَ العِلْمِ ؛ فلو تَعطَّلَ في بيتِهِ مُتَّكِلاً علىٰ كرمِ المَلِكِ ، مُلازِماً صفةَ النُّقصانِ ، غيرَ مُجتهِدٍ طولَ اللَّيلِ في طلبِ العِلْمِ ، مُعوِّلاً علىٰ فضلِ اللهِ في أن يبيتَ ليلةً ويصبحَ أفضلَ أهلِ زمانِهِ ؛ فإنَّ فضلَ اللهِ واسعٌ لهُ ، وقدرتَهُ مُتَّسِعةٌ لأضعافِهِ . . قيلَ لهُ : هـٰذا فعلُ مشحونِ الباطنِ بالحماقةِ ، مُزيَّنِ الظَّاهرِ بكلامٍ يظنُّ أنَّهُ محمودٌ .

فكذا مَن ظنَّ أنَّ الآخرةَ تُنالُ بالبَطالةِ والعُطْلةِ . . فهـٰذا حالُهُ .

❋ ❋ ❋

بيان أنواع الخيرات والسّعادات

نِعَمُ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وإن كانَتْ لا تُحصىٰ مُفصَّلةً . . **فجملتُها مُنحصِرةٌ في خمسةِ أنواعٍ** :

الأوَّلُ : السَّعادةُ الأُخرويَّةُ الَّتي هيَ بقاءٌ لا فَناءَ لهُ ، وسرورٌ لا غمَّ فيهِ ، وعِلْمٌ لا جهلَ معَهُ ، وغنىً لا فقرَ يخالطُهُ .

ولن يُتوصَّلَ إليهِ إلَّا بالنَّوعِ الثَّاني مِن نِعَمِ اللهِ تعالىٰ ؛ وهيَ الفضائلُ النَّفسيَّةُ الَّتي حصرْنا جملتَها مِن قبلُ في أربعةِ أُمورٍ : العقلُ وكمالُهُ العِلْمُ ، والعِفَّةُ وكمالُها الوَرَعُ ، والشَّجاعةُ وكمالُها المُجاهَدةُ ، والعدالةُ وكمالُها الإنصافُ [1] ، **وهيَ على التَّحقيقِ أُصولُ الدِّينِ** .

وإنَّما تتكاملُ هٰذهِ الفضائلُ بالنَّوعِ الثَّالثِ ؛ وهيَ الفضائلُ البَدنيَّةُ المُنحصِرةُ في أربعةِ أُمورٍ : الصِّحَّةُ ، والقُوَّةُ ، والجمالُ ، وطولُ العُمرِ .

ويُتمِّمُها النَّوعُ الرَّابعُ ؛ وهيَ الفضائلُ المُطيفةُ بالإنسانِ المحصورةُ في أربعةِ أُمورٍ [2] : المالُ ، والأهلُ ، والعِزُّ ، وكرمُ العشيرةِ .

ولا يَتِمُّ الانتفاعُ بشيءٍ مِن ذٰلكَ إلَّا بالنَّوعِ الخامسِ ؛ وهيَ

---

(١) انظر ما تقدم (ص ١٠٥) .

(٢) في (د ، ز) : (الخارجة) بدل (المطيفة بالإنسان) ، وكذا سيأتي ذكرها قريباً ، وعبارة الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٣٤٧/٧) : (وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن) .

الفضائلُ التَّوفيقيَّةُ ؛ وهيَ أربعةٌ : هدايةُ اللهِ تعالىٰ ، ورُشْدُهُ[1] ، وتسديدُهُ ، وتأييدُهُ .

فهٰذهِ السَّعاداتُ بعدَ السَّعادةِ الأُخرويَّةِ ستَّةَ عشرَ ضرباً ، ولا مَدخَلَ للاجتهادِ في اكتسابِ شيءٍ منها إلَّا في الفضائلِ النَّفسيَّةِ على الوجهِ الَّذي سبقَ .

فقد عرفتَ : أنَّ هٰذهِ الخيراتِ خمسٌ ؛ وهيَ : الأُخرويَّةُ ، والنَّفسيَّةُ ، والبدنيَّةُ ، والخارجةُ ، والتَّوفيقيَّةُ ، والبعضُ منها يحتاجُ إلى البعضِ :

إمَّا حاجةً ضروريَّةً ؛ كالفضائلِ النَّفسيَّةِ الَّتي لا مَطمَعَ في الوصولِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ إلَّا بها ، وصحَّةِ البَدنِ الَّذي لا وصولَ إلىٰ تحصيلِ الفضائلِ النَّفسيَّةِ إلَّا بهِ .

وإمَّا حاجةً نافعةً ؛ كحاجةِ هٰذهِ الفضائلِ إلى الفضائلِ الخارجةِ ؛ فإنَّ المالَ والأهلَ والعشيرةَ إن عُدِمَتْ . . تَطرَّقَ الخَلَلُ إلىٰ أسبابِ هٰذهِ الفضائلِ .



فإن قلتَ : فما وجهُ الحاجةِ إلى الفضائلِ الخارجةِ ؛ مِنَ المالِ والأهلِ والعزِّ وكرمِ العشيرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأُمورَ جاريةٌ مَجرى الجناحِ المُبلِّغِ ، والآلةِ المُسهِّلةِ للمقصودِ .

---

(١) سيأتي قريباً (ص ١٤٤) أنه بمعنى : العناية الإلٰهية .

أمَّا المالُ . . فالفقيرُ في طلبِ الكمالِ كساعٍ إلى الهيجا بغيرِ سلاحٍ ، وكبازٍ مُتصيِّدٍ بغيرِ جناحٍ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعِمَّا بِٱلْمَالِ ٱلصَّالِحِ لِلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ »(١) ، وقالَ : « نِعْمَ ٱلْعَوْنُ عَلَىٰ تَقْوَى ٱللهِ ٱلْمَالُ »(٢) .

وكيفَ لا ومَن عَدِمَ المالَ . . صارَ مُستغرِقَ الأوقاتِ في طلبِ القُوتِ واللِّباسِ والمَسكَنِ وضروريَّاتِ المعيشةِ ، فلا يَتفرَّغُ لاقتناءِ العِلْمِ الَّذي هوَ أشرفُ الفضائلِ ، ثمَّ يُحرَمُ عن فضيلةِ الحجِّ والصَّدقةِ والزَّكاةِ وإفاضةِ الخيراتِ ؟!



وأمَّا الأهلُ والولدُ الصَّالحُ . . فالحاجةُ إليهما ظاهرةٌ ؛ إذِ المرأةُ الصَّالحةُ حرثُ الرَّجلِ وحصنُ دينِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ ٱلْعَوْنُ عَلَى ٱلدِّينِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلصَّالِحَةُ »(٣) ، وقالَ في الولدِ : « إِذَا مَاتَ ٱلرَّجُلُ . . ٱنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ »(٤) .

ومهما كَثُرَ أهلُ الرَّجلِ وأقاربُهُ وساعدوهُ . . كانوا لهُ بمنزلةِ الآذانِ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٢) عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٧٠) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٣) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم (١٤٦٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بنحوه .

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

والأعينِ والأيدي ، فيَتيسَّرُ لهُ بسببِهِم مِنَ الأُمورِ الدُّنيويَّةِ ما يطولُ فيهِ شغلُهُ لوِ انفردَ .

وكلُّ ما يُخفِّفُ الأشغالَ الضَّروريَّةَ في الدُّنيا ، ويُفرِّغُ القلبَ للعبادةِ والعِلْمِ . . فهوَ مُعينٌ على الدِّينِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العِزُّ . . فبهِ يَدفَعُ الإنسانُ عن نفْسِهِ الضَّيمَ والظُّلْمَ ، ولا يَستغني عنهُ مسلمٌ ؛ فإنَّهُ لا ينفكُّ عن عدوٍّ يُؤذيهِ ، وظالمٍ يَقصِدُهُ فيُشوِّشُ عليهِ وقتَهُ ويَشغَلُ قلبَهُ ؛ **ولذٰلكَ قيلَ** : (الدِّينُ والسُّلطانُ توءمانِ) .

وقيلَ : (الدِّينُ أُسٌّ ، والسُّلطانُ حارسٌ ، وما لا أُسَّ لهُ . . فمهدومٌ ، وما لا حارسَ لهُ . . فضائعٌ) .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴿٢٥١﴾ ﴾ .

وبالجملةِ : دفعُ الأذىٰ لا بدَّ منهُ للفراغِ للعبادةِ ، ولا يَتِمُّ ذٰلكَ إلَّا بنوعٍ مِنَ العِزِّ ، وكما أنَّ المُوصِلَ إلى الخيرِ خيرٌ . . فدافعُ الصَّارفِ عنِ الخيرِ خيرٌ أيضاً .

❁ ❁ ❁

وأمَّا كَرَمُ العشيرةِ وشرفُ الآباءِ . . فقد يُستهانُ بهِ ويُقالُ : المرءُ بنفْسِهِ ، والنَّاسُ أبناءُ ما يُحسِنونَ ، وقيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُهُ .

ولَعمري ؛ إذا قُوبِلَ شرفُ الأصلِ دونَ شرفِ النَّفْسِ بشرفِ النَّفْسِ دونَ شرفِ الأصلِ . . استُحقِرَ .

أمَّا إذا انضمَّ إليهِ [(١)] . . لم تُنكَرْ فضيلتُهُ ؛ فابنُ السَّريِّ إذا سَرىٰ . . أسراهُما [(٢)] .

وقد شُرِطَ النَّسَبُ في الإمامةِ ، وقيلَ : « ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » [(٣)] .

وكيفَ لا والأخلاقُ تَتْبَعُ الأمزجةَ ، وتسري مِنَ الأصولِ إلى الفروعِ ؟! ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ » [(٤)] ، وقالَ : « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ ٱلدِّمَنِ ؛ وَهِيَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْحَسْنَاءُ فِي ٱلْمَنْبَتِ ٱلسُّوءِ » [(٥)] .

فهٰذا أيضاً مِنَ السَّعاداتِ ، ولا نعني بهِ : الانتسابَ إلىٰ أبناءِ الدُّنيا ورؤسائِها وأُمرائِها ، ولٰكنِ : الانتسابَ إلى النُّفوسِ الزَّكيَّةِ الطَّاهرةِ المُزيَّنةِ بالعِلْمِ والعبادةِ والعقلِ .



فإن قلتَ : فما غَناءُ هٰذهِ الفضائلِ الجسميَّةِ ؟

فنقولُ : أمَّا الحاجةُ إلى الصِّحَّةِ والقُوَّةِ وطُولِ العُمرِ . . فلا شكَّ

---

(١) أي : أما إذا انضمَّ شرف الأصل إلىٰ شرف النفس .

(٢) السَّري : الشريف ، وسرىٰ : أشرف .

(٣) أخرجه النسائي في « السنن الكبير » (٥٩٠٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٢) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٩٥٧) ، وأبو منصور الديلمي كما في « زهر الفردوس » (١٠١٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

فيهِ ، وإنَّما يُستحقَرُ أمرُ الجمالِ ، فيُقالُ : يكفي أن يكونَ البَدنُ سليماً مِنَ الأمراضِ الشَّاغلةِ عن تحرِّي الفضائلِ .

ولَعمري ؛ إنَّ الجمالَ قليلُ الغَناءِ ، ولٰكنَّهُ مِنَ السَّعاداتِ والخيراتِ على الجملةِ .

أمَّا في الدُّنيا . . فلا يخفىٰ وجهُهُ .

وأمَّا في الآخرةِ . . **فمِن وجهَينِ** :

أحدُهُما : أنَّ القبيحَ مذمومٌ ، والطِّباعَ منهُ نافرةٌ ، وحاجاتِ الجميلِ إلى الإجابةِ أقربُ ، فكأنَّهُ جناحٌ مُبلِّغٌ مثلُ المالِ ، والمُعينُ علىٰ قضاءِ حاجاتِ الدُّنيا مُعينٌ على الآخرةِ ؛ إذِ الوصولُ إلى الآخرةِ بهٰذهِ الأسبابِ الدُّنيويَّةِ .

والثَّاني : أنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ النَّفْسِ ؛ لأنَّ نورَ النَّفْسِ إذا تمَّ إشراقُهُ . . تأدَّىٰ إلى البَدنِ ، والمَنظَرُ والمَخبَرُ كثيراً ما يتلازمانِ ؛ ولذٰلكَ عوَّلَ أصحابُ الفِراسةِ علىٰ هيئاتِ البَدنِ ، واستدلُّوا بها على الأخلاقِ الباطنةِ ، والعينُ والوجهُ كالمِرآةِ للباطنِ ؛ ولذٰلكَ يظهرُ فيهِما أثرُ الغضبِ والغَمِّ والبِشْرِ ، وقيلَ : طَلاقةُ الوجهِ عنوانُ ما في النَّفْسِ ، وما في الأرضِ قبيحٌ إلَّا وخُلُقُهُ أقبحُ منهُ .

واستعرضَ المأمونُ جيشاً ، فعُرِضَ عليهِ رجلٌ قبيحٌ ، فاستنطقَهُ ؛ فإذا هوَ أَلْكَنُ ، فأسقطَ اسمَهُ وقالَ : (الرُّوحُ إن أشرقَتْ على الظَّاهرِ . .

فصَباحةٌ ، أو على الباطنِ . . ففَصاحةٌ ، وهـٰذا ليسَ لهُ ظاهرٌ ولا باطنٌ)[١] .

وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱطْلُبُوا ٱلْحَوَائِجَ عِنْدَ حِسَانِ ٱلْوُجُوهِ »[٢] .

وقالَ : « إِذَا بَعَثْتُمْ رَسُولاً . . فَٱطْلُبُوا حَسَنَ ٱلْوَجْهِ ، حَسَنَ ٱلِٱسْمِ »[٣] .

وقالَ الفقهاءُ : (إذا تساوَتْ درجاتُ المُصلِّينَ . . فأحسنُهُم وجهاً أَولاهُم بالإمامةِ) .

وقالَ تعالىٰ مُمتنّاً بهِ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ .

ولسْنا نعني بالجمالِ : ما يُحرّكُ الشَّهوةَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ أُنوثةٌ ، وإنَّما نعني بهِ : ارتفاعَ القامةِ على الاستقامةِ ، معَ الاعتدالِ في اللَّحمِ وتناسبِ الأعضاءِ ، وتَناصُفِ خِلْقةِ الوجهِ ؛ بحيثُ لا تنبو الطِّباعُ عنِ النَّظرِ إليها .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فما معنى الفضائلِ التَّوفيقيَّةِ الَّتي هيَ : الهدايةُ ، والرُّشدُ ، والتَّسديدُ ، والتَّأييدُ ؟

---

(١) انظر « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ١١٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥١) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٤٢) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البزار في « المسند » (٨٦٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فاعلمْ : أنَّ التَّوفيقَ هوَ الَّذي لا يَستغني عنهُ الإنسانُ في كلِّ حالٍ .

ومعناهُ : مُوافَقةُ إرادةِ الإنسانِ وفعلِهِ قضاءَ اللهِ تعالىٰ وقَدَرَهُ ، وهوَ صالحٌ للاستعمالِ في الخيرِ والشَّرِّ ، ولٰكنْ صارَ مُتعارَفاً في الخيرِ والسَّعادةِ ، ووجهُ الحاجةِ إلى التَّوفيقِ بَيِّنٌ ؛ ولذٰلكَ قيلَ [١] : [من الطويل]

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ ٱللهِ لِلْفَتَىٰ ... فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ ٱجْتِهَادُهُ

❀ ❀ ❀

أمَّا الهدايةُ . . فلا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ طلبِ الفضائلِ إلَّا بها ؛ فهيَ مَبدَأُ الخيراتِ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ ٱللهِ تَعَالَىٰ » أي : بهدايتِهِ ، قيلَ : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وَلَا أَنَا » [٢] .

وللهدايةِ ثلاثُ منازلَ :

الأُولىٰ : تعريفُ طريقِ الخيرِ والشَّرِّ المُشارِ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ :

---

(١) البيت لسيدنا علي رضي الله عنه في « الديوان » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول ﷺ » (ص ٢٦٤) ، وأورده له التنوخي في « الفرج بعد الشدة » (١/١٧٧) باللفظ المذكور .

(٢) أخرجه البيهقي في « الدعوات الكبير » (٥٣٠) ، وقوام السنة في « الترغيب والترهيب » (١٨٢٧) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقد أنعمَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ كافَّةِ عبادِهِ ؛ بعضُهُ بالعقلِ ، وبعضُهُ علىٰ لسانِ الرُّسلِ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

والثَّانيةُ : ما يُمَدُّ بهِ العبدُ حالاً بعدَ حالٍ ؛ بحسَبِ ترقِّيهِ في العلومِ وزيادتِهِ في صالحِ الأعمالِ ، وإيَّاهُ عُنِيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

والثَّالثةُ : هوَ النُّورُ الَّذي يُشرِقُ في عالَمِ الولايةِ والنُّبوَّةِ ، فيُهتدىٰ بهِ إلىٰ ما لا يُهتدىٰ إليهِ ببضاعةِ العقلِ الَّذي يَحصُلُ التَّكليفُ وإمكانُ التَّعلُّمِ بهِ ، وإيَّاهُ عُنِيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، فأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ ، وسمَّاهُ : الهدى المُطلَقَ ، وهوَ المُسمَّىٰ : حياةً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الرُّشدُ : فنعني بهِ : العنايةَ الإلـٰهيَّةَ الَّتي تُعينُ الإنسانَ عندَ توجُّهِهِ إلىٰ مقاصدِهِ ؛ فتُقوِّيهِ علىٰ ما فيهِ صلاحُهُ ، وتُفتِّرُهُ عمَّا فيهِ فسادُهُ ، ويكونُ ذٰلكَ مِنَ الباطنِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا التَّسديدُ : فهوَ أن تقومَ إرادتُهُ وحركاتُهُ نحوَ الغرضِ المطلوبِ ليهجمَ عليهِ في أسرعِ وقتٍ .

فالرُّشدُ تنبيهٌ بالتَّعريفِ ، والتَّسديدُ إعانةٌ ونصرةٌ بالتَّحريكِ .



وأمَّا التَّأييدُ : فهوَ تقويةُ أمرِهِ بالبصيرةِ مِن داخلٍ ، وتقويةُ البطشِ مِن خارجٍ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ .

وتقربُ منهُ **العصمةُ** ؛ وهوَ فيضٌ إلٰهيٌّ يَقْوىٰ بهِ الإنسانُ علىٰ تحرِّي الخيرِ وتجنُّبِ الشَّرِّ ، حتَّىٰ يصيرَ كمانعٍ مِن باطنِهِ غيرِ محسوسٍ ، وإيَّاهُ عُنِيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

ولن تَستتِبَّ هٰذهِ الأُمورُ إلَّا بما يُخوِّلُ اللهُ عبدَهُ مِنَ الفهمِ الثَّاقبِ الصَّافي ، والسَّمعِ المُصغي الواعي ، والقلبِ البصيرِ المُراعي ، والمُعلِّمِ النَّاصحِ ، والمالِ الزَّائدِ علىٰ ما يَقصُرُ عنِ المُهمَّاتِ بقِلَّتِهِ ، القاصرِ عمَّا يَشغَلُ عنِ الدِّينِ بكثرتِهِ ، والعشيرةِ والعِزِّ الَّذي يصونُ عن سَفَهِ السُّفهاءِ ، ويدفعُ ظُلْمَ الأعداءِ .

فبهٰذهِ الأسبابِ تكمُلُ السَّعاداتُ .

❋ ❋ ❋

بيان غاية السّعادات ومراتبها

اعلمْ : أنَّ السَّعادةَ الحقيقيَّةَ هيَ الأُخرويَّةُ ، وما عداها سُمِّيَ (سعادةً) :

إمَّا مجازاً ، أو غَلَطاً ؛ كالسَّعادةِ الدُّنيويَّةِ الَّتي لا تُعينُ على الآخرةِ .

وإمَّا صِدْقاً ، ولٰكنِ الاسمُ على الأُخرويَّةِ أصدقُ ، وذٰلكَ كلُّ ما يُوصِلُ إلى السَّعادةِ الأُخرويَّةِ ويُعينُ عليها ؛ فإنَّ المُوصِلَ إلى الخيرِ والسَّعادةِ قد يُسمَّىٰ : خيراً ، وسعادةً .

والأسبابُ النَّافعةُ المُعينةُ تَشرَحُها تقسيماتٌ أربعةٌ :

الأوَّلُ : أنَّ منها : ما هوَ نافعٌ في كلِّ حالٍ ، وهيَ الفضائلُ النَّفسيَّةُ .

ومنها : ما ينفعُ في حالٍ دونَ حالٍ ونفعُها أكثرُ ؛ كالمالِ القليلِ .

ومنها : ما ضرُّها أكثرُ ؛ كالمالِ الكثيرِ في حقِّ أكثرِ الخَلْقِ ، وكذٰلكَ بعضُ أنواعِ العلومِ والصِّناعاتِ .

ولمَّا كَثُرَ الالتباسُ في هٰذا . . وجبَ على العاقلِ الاستظهارُ بمعرفةِ حقائقِ هٰذهِ الأُمورِ ؛ حتَّىٰ لا يُؤثِرَ الضَّارَّ على النَّافعِ ، بل لا يُؤثِرَ النَّازلَ على الرَّفيعِ ، والخسيسَ على النَّفيسِ الأهمِّ ، فيطولَ عليهِ الطَّريقُ .

فكم مِن ناظرٍ يَحسَبُ الشَّحمَ فيمَن شحمُهُ وَرَمٌ !! وكم مِن طالبٍ حبلاً ليتمنطقَ بهِ ، فيأخذُ حَيَّةً يظنُّها حبلاً فتلدغُهُ !![1] .

والعِلْمُ الحقيقيُّ هوَ الَّذي يكشفُ عن هٰذهِ الأُمورِ .

❁ ❁ ❁

التَّقسيمُ الثَّاني : أنَّ الخيراتِ بوجهٍ آخَرَ تنقسمُ :

إلىٰ مُؤْثَرةٍ لذاتِها .

وإلىٰ مُؤْثَرةٍ لغيرِها .

وإلىٰ مُؤْثَرةٍ تارةً لذاتِها ، وتارةً لغيرِها .

فينبغي أن تَعرِفَ مراتبَها ؛ لتعطيَ كلَّ رتبةٍ حقَّها .

فالمُؤْثَرةُ لذاتِها : السَّعادةُ الأُخرويَّةُ ، فليسَ وراءَ تلكَ الغايةِ غايةٌ أُخرىٰ .

والمُؤْثَرةُ لغيرِها : هيَ المالُ ؛ كالدَّراهمِ والدَّنانيرِ ، فلولا أنَّ الحاجاتِ تنقضي بها . . لكانَتْ كالحَصْباءِ وسائرِ الجواهرِ الخسيسةِ .

والمُؤْثَرةُ تارةً لذاتِها ، وتارةً لغيرِها : كصحَّةِ الجسمِ ؛ فإنَّ الإنسانَ وإنِ استغنىٰ عنِ المشيِ الَّذي تُرادُ سلامةُ الرِّجْلِ لهُ . . فيريدُ أيضاً سلامةَ الرِّجْلِ مِن حيثُ إنَّها سلامةٌ .

❁ ❁ ❁

(١) في هامش (ب) : (قوبلت) .

التَّقسيمُ الثَّالثُ : أنَّ الخيراتِ مِن وجهٍ آخَرَ تنقسمُ إلىٰ : نافعٍ ، وجميلٍ ، ولذيذٍ .

والشُّرورَ ثلاثةٌ : ضارٌّ ، وقبيحٌ ، ومُؤلِمٌ .

وكلٌّ واحدٍ ضربانِ :

أحدُهُما : مُطلَقٌ ؛ وهوَ الَّذي يَجمَعُ الأوصافَ الثَّلاثةَ في الخيرِ كالحكمةِ ؛ فإنَّها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ ، وفي الشَّرِّ كالجهلِ ؛ فإنَّهُ ضارٌّ وقبيحٌ ومُؤلِمٌ .

والثَّاني : مُقيَّدٌ ؛ وهوَ الَّذي جمعَ بعضَ هـٰذهِ الأوصافِ دونَ البعضِ .

فرُبَّ نافعٍ مُؤلِمٌ ؛ كقطعِ الإصبَعِ الزَّائدةِ والسِّلْعةِ الخارجةِ [1] .

ورُبَّ نافعٍ قبيحٌ كالحمقِ ؛ فإنَّهُ راحةٌ مِن حيثُ إنَّهُ استراحَ مَن لا عقلَ لهُ ؛ أي : لا يَغتَمُّ للعواقبِ ، فيستريحُ في الحالِ .

ورُبَّ نافعٍ مِن وجهٍ ضارٌّ مِن وجهٍ ؛ كإلقاءِ المالِ في البحرِ عندَ خوفِ الغَرَقِ ؛ فإنَّهُ ضارٌّ للمالِ ، ونافعٌ في نجاةِ النَّفْسِ .

والنَّافعُ قسمانِ :

قسمٌ ضروريٌّ ؛ كالفضائلِ النَّفسيَّةِ في الإيصالِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ .

---

(١) السِّلْعةُ هنا : زيادة تحدث في الجسد كالغُدَّة ، تتحرَّك إذا حُرِّكت ، وقد تكون من حمصة إلىٰ بطيخة .

وقسمٌ قد يقومُ غيرُهُ مَقامَهُ ، فلا يكونُ ضرورياً ؛ كالسَّكَنْجَبِينِ في تسكينِ الصَّفراءِ[1] .

❀ ❀ ❀

التَّقسيمُ الرَّابعُ : أنَّ اللَّذَّاتِ بحسَبِ القُوى الثَّلاثِ والمُعيناتِ الثَّلاثِ . . ثلاثٌ ؛ إذِ **اللَّذَّةُ** : عبارةٌ عن إدراكِ المُشتهىٰ ، **والشَّهوةُ** : عبارةٌ عنِ انبعاثِ النَّفْسِ لنيلِ ما تَتشوَّقُهُ :

١ ـ لذَّةٌ عقليَّةٌ .

٢ ـ وبدنيَّةٌ مُشترِكةٌ معَ الحيواناتِ .

٣ ـ وبدنيَّةٌ مُشترِكةٌ معَ بعضِ الحيواناتِ .

أمَّا العقليَّةُ . . فكلذَّةِ العِلْمِ والحكمةِ ، وهيَ أقلُّها وجوداً ، وهيَ أشرفُها .

أمَّا قِلَّتُها . . فلأنَّ الحكمةَ لا يَستلِذُّها إلَّا الحكيمُ ، وقصورُ الرَّضيعِ عن إدراكِ لذَّةِ العسلِ والطُّيورِ السِّمانِ والحلاواتِ الطَّيِّبةِ . . لا يدلُّ علىٰ أنَّها ليسَتْ لذيذةً ، واستطابتُهُ للَّبَنِ لا تدلُّ علىٰ أنَّهُ أطيبُ الأشياءِ ، والنَّاسُ كلُّهُم إلَّا النَّادرَ مُقيَّدونَ في صِبا الجهلِ ، غيرُ بالغينَ في رتبةِ العلومِ ؛ فلذٰلكَ لا يَستلِذُّونَهُ .

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْمَاءَ ٱلزُّلَالَا[2]

---

(١) السكنجبين : دواء مركَّب من العسل والخَلِّ ، أو من كل حلو وحامض .

(٢) البيت من الوافر للمتنبي في « الديوان » (ص ١٠٩) .

وأمَّا شرفُها . . فلأنَّها لازمةٌ لا تزولُ ، ودائمةٌ لا تُمَلُّ ، وباقيةٌ ثمرتُها ولذَّتُها في الدَّارِ الآخرةِ إلىٰ غيرِ غايةٍ .

والقادرُ على الشَّريفِ الباقي إذا رَضِيَ بالخسيسِ الفاني . . كانَ مُصاباً في عقلِهِ ، محروماً لشقاوتِهِ وإدبارِهِ .

وأقلُّ أمرٍ فيهِ : أنَّ الفضائلَ النَّفسيَّةَ ـ لا سيَّما العِلْمُ والعقلُ ـ لا تَحتاجُ إلىٰ أعوانٍ وحَفَظَةٍ ، بخلافِ المالِ ؛ فإنَّ العِلْمَ يَحرُسُكَ ، وأنتَ تَحرُسُ المالَ ، والعِلْمَ يزيدُ بالإنفاقِ ، والمالَ يَنقُصُ بهِ ، والعِلْمَ نافعٌ في كلِّ حالٍ مُطلَقاً وأبداً ، والمالَ تارةً يَجذِبُ إلى الرَّذيلةِ ، وتارةً إلى الفضيلةِ ؛ ولذٰلكَ ذُمَّ في القرآنِ في مواضعَ وإن سُمِّيَ (خيراً) في مواضعَ [1] .

الثَّانيةُ : هيَ اللَّذَّةُ المُشترِكةُ بينَ الإنسانِ وسائرِ الحيواناتِ ؛ كلذَّةِ المَأكَلِ والمَشرَبِ والمَنكَحِ ، وهٰذهِ أكثرُها وجوداً .

الثَّالثةُ : لذَّةٌ يشاركُ الإنسانَ فيها بعضُ الحيواناتِ ؛ وهيَ لذَّةُ الرِّئاسةِ والغَلَبةِ ، وهيَ أشدُّها التصاقاً بالعقلاءِ إذا لم ينالوا رتبةَ الأولياءِ ؛ كما أنَّ لذَّةَ المآكلِ والمناكحِ أشدُّها تشبُّثاً بالعوامِّ إذا لم ينالوا رتبةَ العقلاءِ ؛ ولذٰلكَ قيلَ : (آخِرُ ما يَخرُجُ مِن رؤوسِ الصِّدِّيقينَ . . حُبُّ الرِّئاسةِ) .

---

(١) منها في ذمه : قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ ، ومنها في مدحه : قوله تعالىٰ : ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ ، وانظر ما سيأتي (ص٢١٦) .

وكيفَ تكونُ لذَّةُ الأكلِ والجِماعِ لذَّةً مُطلَقةً وهيَ مِن وجهٍ أَلَمٌ ، ومِن وجهٍ إزالةُ أَلَمٍ ؟! ولذلكَ قالَ الحسنُ : (الإنسانُ صريعُ جُوعٍ ، وقتيلُ شِبَعٍ)[1] .

وجميعُ لذَّاتِ الدُّنيا سبعٌ : **مَأكَلٌ** ، **ومَشرَبٌ** ، **ومَنكَحٌ** ، **ومَلبَسٌ** ، **ومَشَمٌّ** ، **ومَسمَعٌ** ، **ومُبصَرٌ** ، وهيَ بجملتِها خسيسةٌ كما رُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذ قالَ لعمَّارِ بنِ ياسرٍ وقد رآهُ يَتنفَّسُ كالحزينِ : (يا عمَّارُ ؛ إن كانَ تنفُّسُكَ على الآخرةِ . . فقد رَبِحَتْ تجارتُكَ ، وإن كانَ على الدُّنيا . . فقد خَسِرَتْ صفقتُكَ ؛ فإنِّي وجدتُ لذَّاتِها : المأكولاتِ ، والمشروباتِ ، والمنكوحاتِ ، والملبوساتِ ، والمشموماتِ ، والمسموعاتِ ، والمُبصَراتِ .

فأمَّا المأكولاتُ . . فأفضلُها العسلُ ؛ وهوَ مَذْقةُ ذُبابٍ ، **والمشروباتُ** . . أفضلُها الماءُ ؛ وهوَ أهونُ موجودٍ وأعزُّ مفقودٍ ، **والمنكوحاتُ** . . فمُبالٌ في مُبالٍ ، وحسبُكَ أنَّ المرأةَ تُزيِّنُ أحسنَ شيءٍ منها ويُرادُ أقبحُ شيءٍ منها ، **والملبوساتُ** . . فأفضلُها الدِّيباجُ ؛ وهوَ نسجُ دودةٍ ، **والمشموماتُ** . . فأفضلُها المِسْكُ ؛ وهوَ دمُ فأرةٍ ، **والمسموعاتُ** . . فريحٌ هابَّةٌ في الهواءِ ، **والمُبصَراتُ** . . فخيالاتٌ صائرةٌ إلى الفَناءِ) ، هٰذا كلامُهُ[2] .

ومِن آفاتِها : أنَّ كلَّ واحدةٍ منها يُتَبَرَّمُ بها في لحظةٍ ، فلْيَعتبِرْ حالةَ

---

(١) انظر « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ٢١٨) .

(٢) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ٢١٨) .

الفراغِ مِنَ الجِماعِ والأكلِ بما قبلَهُ ، ولْيَنظُرْ كيفَ يَنقلِبُ المرغوبُ فيه مهروباً عنهُ في الحالِ ، **فأنَّىٰ يُوازي هٰذا ما تدومُ لذَّتُهُ ، ولا تفنىٰ أبدَ الآبادِ راحتُهُ** ؛ وهوَ الابتهاجُ بكمالِ النَّفْسِ بالفضائلِ النَّفسيَّةِ ، وخصوصاً الاستيلاءَ على الكلِّ بالعِلْمِ والعقلِ ؟!

* * *

بيان ما يُحمَد ويُذَمّ من أفعال شهوة البطن والفرج والغضب[1]

أمَّا شهوةُ البطنِ . . فداعيةٌ إلى الغذاءِ .

والمَطعَمُ ضربانِ : ضروريٌّ ، وغيرُ ضروريٍّ .

أمَّا الضَّروريُّ : فهوَ الَّذي لا يُستغنىٰ عنهُ في قِوامِ البَدنِ ؛ كالطَّعامِ الَّذي بهِ يغتذي ، والماءِ الَّذي به يرتوي .

وهوَ ينقسمُ إلىٰ : محمودٍ ، ومكروهٍ ، ومحظورٍ .

أمَّا المحمودُ : فهوَ أن يَقتصِرَ علىٰ تناولِ ما لا يمكنُ الاستقلالُ والتَّقوّي على العِلْمِ والعملِ إلَّا بهِ ، ولو قَصَرَ عنهُ . . لتخاذلَتْ قُواهُ ، واختلَّ بَدنُهُ .

فهٰذا القَدْرُ إذا تناولَهُ مِن حيثُ يجبُ كما يجبُ . . فهوَ معذورٌ ، بل هوَ مشكورٌ ومأجورٌ ؛ إذِ البَدنُ مَركَبُ النَّفْسِ لتقطعَ بهِ منازلَها إلى اللهِ تعالىٰ ، وكما أنَّ الجهادَ عبادةٌ . . فإمدادُ فرسِ المُجاهِدِ بما يُقوّيهِ على السَّيرِ بالمُجاهِدِ أيضاً عبادةٌ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عِنْدَ أَكْلِ ٱلصَّالِحِينَ تَنْزِلُ ٱلرَّحْمَةُ »[2] ، وذٰلكَ إذا تناولَهُ

---

(١) في هامش (ج) عند قوله : (أفعال) : (أحوال) ، وأُشير لها بنسخة .

(٢) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٢١٩) ، وأورد السراج في « اللمع » (ص ٣٧٥) ، والإمام القشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٦٨٣) عن الجنيد رحمه الله تعالىٰ أنه قال : (تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن : عند السماع ؛ فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ، ولا يقومون إلا عن وجد ، وعند أكل الطعام ؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ؛ فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء) .

تناوُلَ مَنِ اضطُرَّ إلىٰ شيءٍ يَوَدُّ لو كانَ بهِ غُنيةٌ عنهُ ؛ كما يُضطَرُّ إلىٰ دخولِ المُستراحِ ؛ فإنَّهُ يَوَدُّ لوِ استغنىٰ عنهُ .

وإدخالُ الطَّعامِ البطنَ وإخراجُهُ منهُ قريبٌ ؛ ولذٰلكَ قيلَ : (مَن كانَتْ همَّتُهُ ما يَدخُلُ في بطنِهِ . . كانَتْ قيمتُهُ ما يَخرُجُ مِن بطنِهِ) .

ولْيعتقدِ الآكلُ أنَّهُ في تناولِ فَضَلاتِ الأشجارِ والنَّباتِ . . كالخِنزيرِ في تناولِ عَذِرَةِ الإنسانِ وفَضْلَتِهِ ، وكالجُعَلِ في تناولِ فَضْلَةِ الحيواناتِ ، ولو كانَ للأشجارِ ألسنةٌ . . لناطقَتْ مُتناوِلَ فَضَلاتِها بالتَّشبيهِ بهٰذا المُتناوِلِ لفَضْلَةِ الحيوانِ .

وأمَّا المكروهُ : فهوَ الاستكثارُ والإمعانُ مِنَ الحلالِ ، والزِّيادةُ علىٰ قَدْرِ البُلْغةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ وِعَاءٍ أَبْغَضَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنْ بَطْنٍ مُلِئَ مِنْ حَلَالٍ »(١) .

وهوَ أيضاً مُضِرٌّ مِن جهةِ الطِّبِّ ؛ فإنَّهُ أصلُ كلِّ داءٍ ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْبِطْنَةُ أَصْلُ ٱلدَّاءِ ، وَٱلْحِمْيَةُ أَصْلُ ٱلدَّوَاءِ ، وَعَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا ٱعْتَادَ »(٢) ، فقالَ مُحقِّقو الأطبَّاءِ : (لم يَدَعْ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيئاً مِنَ الطِّبِّ إلَّا وأدرجَهُ تحتَ هٰذهِ الكلماتِ الثَّلاثِ) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبير » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٦) عن سيدنا المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه بنحوه .

(٢) أخرج أبو نعيم في « الطب النبوي » (١٣٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : « أصلُ كلِّ داءٍ البَرَدَةُ » ، والبردة : التُّخَمة .

ولا ينبغي أن يَستهينَ طالبُ السَّعادةِ بهٰذهِ الزِّيادةِ وإن سمَّيْناها : مكروهاً لا محظوراً ؛ فإنَّهُ مكروهٌ سريعُ السِّياقةِ إلى المحظوراتِ ، بل إلىٰ أكثرِ المحظوراتِ ؛ فإنَّ مثارَ الشُّرورِ قُوَّةُ الشَّهواتِ ، ومُقوِّيَ الشَّهواتِ هيَ الأغذيةُ ، فامتلاءُ البطنِ مُقوٍّ للشَّهوةِ ، وتقويةُ الشَّهوةِ داعيةٌ للهوىٰ ، والهوىٰ أعظمُ جندِ الشَّيطانِ الَّذي إذا تسلَّطَ عليهِ . . سَبَاهُ عن ربِّهِ ، وصرفَهُ عن بابِهِ ، وإمدادُ جنودِ الأعداءِ بالمُقوِّياتِ يكادُ يَنزِلُ مَنزِلةَ عينِ العداوةِ ؛ فلهٰذا تكادُ تكونُ الكراهةُ فيهِ حظراً .

ولذٰلكَ قيلَ لبعضِهم : ما بالُكَ معَ كِبَرِكَ لا تَتعهَّدُ بَدنَكَ وقدِ انهدَّ ؟ فقالَ : (لأنَّهُ سريعُ المَرَحِ ، فاحشُ الأشَرِ ، فأخافُ أن يجمحَ بي فيُورِّطَني ، ولأن أحملَهُ على الشَّدائدِ . . أحبُّ إليَّ مِن أن يَحمِلَني على الفواحشِ) .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فما القَدْرُ المحمودُ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبَّهَ على التَّقديرِ بخبرَينِ :

أحدُهُما : قولُهُ : « حَسْبُ ٱبْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ . . فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ »[1] ، فأمَّا اللُّقَيْماتُ . . فهيَ دونَ العشرةِ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبير » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٦) عن سيدنا المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه .

ويَقرُبُ منهُ قولُهُ عليهِ السَّلامُ : « ٱلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعىً وَاحِدٍ ، وَٱلْمُنَافِقُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ »[١] ، فالأحبُّ الأكلُ في سُبُعِ البطنِ ، فإن غَلَبَ النَّهَمُ . . ففي الثُّلُثِ ، وأظنُّ أنَّ المُدَّ ثُلُثٌ في حقِّ الأكثرِ وإن كانَ ذٰلكَ قد يَختلِفُ باختلافِ الأشخاصِ .

وعلى الجملةِ : فلا بدَّ أن يكونَ دونَ الشِّبَعِ ؛ حتَّىٰ يَخِفَّ البَدنُ للعبادةِ والتَّهجُّدِ باللَّيلِ ، وتَضعُفَ القُوىٰ عنِ الانبعاثِ إلى الشَّهواتِ .

وأمَّا المحظورُ : فهوَ التَّناولُ ممَّا حرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ مِن مالِ الغيرِ أو مِنَ المُحرَّماتِ ، وأفحشُها شُربُ المُسكِرِ ؛ فإنَّهُ أعظمُ آلةٍ للشَّيطانِ في إزالةِ العقلِ الَّذي هوَ مِن حزبِ اللهِ وأوليائِهِ ، وإثارةِ الشَّهواتِ والقُوى السَّبُعيَّةِ الَّتي هيَ مِن حزبِ الشَّيطانِ وأوليائِهِ .

فهٰذا حُكمُ المطاعمِ على الإجمالِ .

ولا يَطمعَنَّ أحدٌ في سلوكِ سُبُلِ السَّعادةِ قبلَ أن يراعيَ أمرَ المَطعَمِ في مِقدارِهِ ووجهِ حِلِّهِ ؛ فإنَّ المعدةَ مَنبَعُ القُوىٰ ، فكأنَّهُ البابُ والمِفتاحُ للخيرِ والشَّرِّ جميعاً ؛ ولذٰلكَ عَظُمَ في الشَّرعِ أمرُ الصَّومِ ؛ لأنَّهُ على الخصوصِ يَتوجَّهُ إلىٰ قهرِ أعداءِ اللهِ ، فقالَ تعالى : « ٱلصَّوْمُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ »[٢] . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٤) ، ومسلم (٢٠٦٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١/١٦٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وأمَّا شهوةُ الفَرْجِ . . فأفعالُها أيضاً تنقسمُ إلىٰ : محمودٍ ، ومكروهٍ ، ومحظورٍ .

أمَّا المحمودُ : فهوَ أنَّ النِّكاحَ ضروريٌّ لبقاءِ نوعِ الإنسانِ باتِّصالِ نسلِهِ ؛ كما أنَّ الغذاءَ ضروريٌّ لبقاءِ شخصِهِ إلىٰ حينِ أجلِهِ ، والشَّهوةُ خُلِقَتْ باعثةً علىٰ إبقاءِ النَّسلِ بطريقِ الوطءِ ؛ كما خُلِقَ الجوعُ باعثاً علىٰ إبقاءِ الشَّخصِ بالأكلِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَنَاكَحُوا . . تَكْثُرُوا ؛ فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ ٱلْأُمَمَ »[1] .

فمَن كانَ قصدُهُ مِنَ النِّكاحِ أمرَينِ :

أحدُهُما : النَّسلُ لتكثيرِ المباهاةِ ، وليخلفَهُ بعدَهُ ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ .

ـ وأن يدفعَ عن نفسِهِ فَضْلةَ المنيِّ الَّتي إذا اجتمعَتْ . . كانَتْ كالمِرَّةِ ، والدَّمُ يَجتمِعُ فتعظمُ نِكايتُهُ في البَدنِ بإثارةِ المرضِ ، وفي الدِّينِ بالدَّعوةِ إلى الفجورِ .

فالنِّكاحُ علىٰ هٰذا الوجهِ محمودٌ وسُنَّةٌ ، وداخلٌ تحتَ قولِهِ : « مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي . . فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي »[2] ، و« مَنْ نَكَحَ . . فَقَدْ حَصَّنَ نِصْفَ دِينِهِ »[3] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠٣٩١) عن سعيد بن أبي هلال رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠٣٧٨) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٢٧٤٨) عن سيدنا عبيد بن سعد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/١٦١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

ولا بأسَ بغرضٍ ثالثٍ ؛ وهوَ أن يكونَ في بيتِهِ مَن يُدبِّرُ أمرَ مَنزِلِهِ ليتفرَّغَ هوَ للعِلْمِ والعبادةِ ، فيصيرُ النِّكاحُ علىٰ هٰذا الوجهِ مِن جملةِ العباداتِ ؛ فإنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ .

وأمارةُ هٰذا : ألَّا يطلبَ مِنَ المرأةِ إلَّا الجمالَ للتَّحصُّنِ ، وحُسْنَ الخُلُقِ لتدبيرِ المَنزلِ ، والدِّيانةَ للصِّيانةِ ، ونسبَ الدِّينِ فقطْ ؛ فإنَّهُ أمارةُ الدِّيانةِ وحُسنِ الأخلاقِ ، فإنَّ العِرْقَ نَزَّاعٌ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عَلَيْكَ بِذَاتِ ٱلدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ »[(١)] ، و« إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ ٱلدِّمَنِ »[(٢)] ، وقالَ : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ »[(٣)] .

ولْيطلبْ صحَّةَ البَدنِ ، وألَّا تكونَ عقيماً لأجلِ الولدِ ؛ فإنَّهُ المقصودُ ، ولذٰلكَ كُرِهَ العَزْلُ وإتيانُ المرأةِ مِن ورائِها ؛ فإنَّهُ إهمالٌ للحراثةِ ، ونساؤُكُم حرثٌ لكُم .

ولا بأسَ بطلبِ البَكارةِ لتستحكمَ الأُلفةُ ، وقد ندبَ الشَّرعُ إليهِ[(٤)] .

وأمَّا المكروهُ : فأن يَقصِدَ التَّمتُّعَ وقضاءَ الشَّهوةِ فقطْ ، ثمَّ يُمعِنَ فيهِ ويُواظِبَ عليهِ ، وربَّما يَتناولُ ما يزيدُ في شهوتِهِ ، وذٰلكَ مُضِرٌّ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٧٥) برقم (٧١٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٩٥٧) ، وأبو منصور الديلمي كما في « زهر الفردوس » (١٠١٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ١٤٠) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٢) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٤) أخرج البخاري (٥٢٤٧) ، ومسلم (٤/١٧٥) برقم (٧١٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه لما تزوَّج ثيباً . . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟! » .

شرعاً ، ولا كراهةَ في نفْسِهِ ؛ فإنَّهُ مباحٌ ، ولـٰكنَّهُ انصرافٌ عنِ اللهِ تعالىٰ إلى اتِّباعِ الهوىٰ ، وتشبُّهٌ بالثِّيرانِ والتُّيوسِ والحُمُرِ .

وإثارةُ الشَّهوةِ بالمطعوماتِ المُقوِّيةِ والأسبابِ الباعثةِ . . يضاهي إثارةَ سباعٍ ضاريةٍ وبهائمَ عاديةٍ ، ثمَّ الانتهاضَ بعدَها للخلاصِ منها .

وأمَّا المحظورُ . . فعلىٰ وجهَينِ :

أحدُهُما : أن يقضيَ الشَّهوةَ في محلِّ الحَرْثِ ولـٰكنْ لا بعقدٍ شرعيٍّ ، ولا على الوجهِ المأمورِ ؛ وهوَ الزِّنا ، وقد قُرِنَ ذٰلكَ بالشِّركِ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ .

والثَّاني : تعاطيهِ في غيرِ مَحَلِّ الحَرْثِ ، وهوَ أفحشُ مِنَ الزِّنا ؛ لأنَّ الزَّانيَ لم يُضيِّعِ الماءَ ، بل وضعَهُ في مَحَلِّ الحَرْثِ علىٰ غيرِ الوجهِ المأمورِ بهِ ، وهـٰذا قد ضَيَّعَ ، وكانَ ممَّن قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ ؛ ولذٰلكَ سُمِّيَتِ اللِّواطةُ بالإسرافِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

فهـٰذهِ مراتبُ النَّاسِ في شهوةِ الفرْجِ .

وقد ينتهي ببعضِ الضُّلَّالِ إلى العِشقِ ، وهوَ عينُ الحماقةِ وغايةُ الجهلِ بما وُضِعَ الجِماعُ لهُ ، ومجاوزةٌ لحَدِّ البهائمِ في مُلكِهِ النَّفْسَ وضبطِهِ ؛ فإنَّ المُتعشِّقَ لم يَقنَعْ بإرادةِ شهوةِ الجِماعِ ـ وهيَ أقبحُ

الشَّهواتِ وأجدرُها بأن يُستحيا منها ـ حتَّى اعتقدَ أنَّ الشَّهوةَ لا تنقضي إلَّا في مَحَلٍّ واحدٍ ، والبهيمةُ تقضي الشَّهوةَ أينَ اتَّفقَ ، فتكتفي بهِ ، وهٰذا لا يكتفي إلَّا مِن معشوقِهِ ، حتَّى ازدادَ بهِ ذُلّاً إلىٰ ذُلٍّ ، وعبوديَّةً إلىٰ عبوديَّةٍ ، واستسخرَ العقلَ لخدمةِ الشَّهوةِ ، وقد خُلِقَ ليكونَ آمراً مُطاعاً ، لا ليكونَ خادماً للشَّهوةِ مُحتالاً لأجلِها .

وهوَ مرضُ نفْسٍ فارغةٍ لا هِمَّةَ لها ، وإنَّما يجبُ الاحترازُ مِن أوائلِها ؛ وهوَ مُعاوَدةُ النَّظرِ والفكرِ ، وإلَّا . . فبعدَ الاستحكامِ يَعسُرُ دفعُهُ .

وكذٰلكَ عِشقُ الجاهِ والمالِ ، والعَقارِ والأولادِ ، حتَّىٰ حُبُّ اللَّعبِ بالطُّيورِ والنَّردِ والشِّطْرَنْجِ ؛ **فإنَّ هٰذهِ الأُمورَ تستولي علىٰ طائفةٍ تُنغِّصُ عليهِمُ الدِّينَ والدُّنيا ، ولا يصبرونَ عنها .**

ومثالُ مَن يكسرُ الشَّهوةَ في أوَّلِ انبعاثِها . . مثالُ مَن صرفَ عِنانَ الدَّابَّةِ عندَ توجُّهِها إلىٰ بابٍ لتدخلَهُ ، فما أهونَ منعَها بصرفِ عِنانِها !!

ومثالُ علاجِها بعدَ استحكامِها . . أن يَتركَ الدَّابَّةَ حتَّىٰ تدخلَ وتُجاوِزَ البابَ ، ثمَّ يأخذَ بذنَبِها جارّاً لها إلىٰ وراءُ .

وما أعظمَ التَّفاوتَ بينَ الأمرَينِ !!

فلْيكنِ الاحتياطُ في بداياتِ الأُمورِ ، فأمَّا أواخرُها . . فلا تَقبلُ العلاجَ في الأكثرِ إلَّا بجهدٍ شديدٍ يوازي نزعَ الرُّوحِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا أفعالُ الغضبِ . . فتنقسمُ أيضاً إلىٰ : محمودٍ ، ومكروهٍ ، ومحظورٍ .

أمَّا المحمودُ . . ففي موضعَينِ :

أحدُهُما : المُسمَّىٰ : غَيْرةً ؛ وهوَ أن يُقصَدَ حريمُ الرَّجلِ ويُتعرَّضَ لمحارمِهِ ، فالغضبُ لهُ ولدفعِهِ محمودٌ ، وقِلَّةُ التَّأثُّرِ بهِ خُنوثةٌ وركاكةٌ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ ، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ ، وَٱللهُ تَعَالَىٰ أَغْيَرُ مِنِّي »[1] .

وقد وضعَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى الغَيْرةَ في الرِّجالِ لحفظِ الأنسابِ ؛ فإنَّ النُّفوسَ لو تسامحَتْ بالتَّزاحمِ على النِّساءِ . . لاختلطَتِ الأنسابُ ؛ ولذٰلكَ قيلَ : (كُلُّ أُمَّةٍ وُضِعَتِ الغَيْرةُ في رجالِها . . وُضِعَتِ الصِّيانةُ في نسائِها) .

والثَّاني : الغضبُ عندَ مُشاهَدةِ المُنكَراتِ والفواحشِ غَيْرةً على الدِّينِ وطلباً للانتقامِ ؛ ولذٰلكَ مُدِحوا بكونِهِم أشدَّاءَ على الكُفَّارِ ، رحماءَ بينَهُم .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَيْرُ أُمَّتِي أَحِدَّاؤُهَا »[2] ، والمرادُ بهِ : الحِدَّةُ لحَمِيَّةِ الدِّينِ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٧٨٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧٨) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ومعَ هـٰذا : فالسُّلطانُ إذا غضبَ عندَ جنايةِ جانٍ . . فينبغي أن يَحبِسَهُ ، ولا يُبادِرَ إلىٰ عقوبتِهِ حتَّىٰ يُجدِّدَ النَّظرَ فيهِ ؛ فإنَّ الغضبَ غُولُ العقلِ ، فربَّما يَحمِلُهُ علىٰ مُجاوَزةِ حدِّ الواجبِ في الانتقامِ .

وأمَّا المكروهُ : فغضبُهُ عندَ فواتِ حظوظِهِ المباحةِ نيلُها ؛ كغضبِهِ علىٰ خادمِهِ وعبدِهِ عندَ كسرِ آنيةٍ ، أو توانيهِ في خدمةٍ بحُكمِ تغافلٍ يمكنُ الاحترازُ عنهُ .

فهـٰذا لا ينتهي إلىٰ حدِّ المذمومِ ، ولـٰكنِ العفوُ والتَّجاوزُ أَولىٰ وأحبُّ ؛ ولذٰلكَ قيلَ لواحدٍ : لِمَ لا تَضرِبُ عبدَكَ وهوَ يُقصِّرُ في خدمتِكَ ، فيَفسُدُ باحتمالِكَ ؟ فقالَ : (لَأن يَفسُدَ عبدي في صلاحِ نفْسي . . خيرٌ مِن أن تَفْسُدَ نفْسي في صلاحِ عبدي) أيِ : احتمالُ ذٰلكَ إصلاحٌ للنَّفْسِ ، والانتقامُ إصلاحٌ للعبدِ .

وأمَّا المحظورُ : فهوَ الاستشاطةُ الصَّادرةُ عنِ الفخرِ والتَّكبُّرِ ، والمُباهاةِ والمُنافَسةِ ، والحقدِ والحسدِ ، وعن أُمورٍ سابقةٍ تَتعلَّقُ بالحظوظِ البدنيَّةِ ؛ مِن غيرِ أن يكونَ في الانتقامِ مصلحةٌ في المُستقبَلِ دِيناً ودنيا .

وهوَ الغالبُ علىٰ أكثرِ الخَلْقِ ، وهوَ انقيادٌ للخُلُقِ الَّذي يُضادُّ الحِلْمَ والتَّحلُّمَ ؛ **فإنَّ الحِلْمَ** : عبارةٌ عن إمساكِ النَّفْسِ عن هَيَجانِ الغضبِ ، **والتَّحلُّمَ** : إمساكُها عن قضاءِ الوَطَرِ منهُ إذا هاجَ ، والكمالُ في الحِلْمِ ، ولـٰكنِ التَّحلُّمُ صبرٌ على المكروهِ ، وفيهِ أيضاً خيرٌ كثيرٌ .

فهـٰذهِ مراتبُ أفعالِ الغضبِ .

والنَّاسُ في الغضبِ يَختلِفونَ ؛ فبعضُهُم كالحَلْفاءِ[1] ؛ سريعُ الوُقودِ سريعُ الخُمودِ ، وبعضُهُم كالغَضا[2] ؛ بطيءُ الوُقودِ بطيءُ الخُمودِ ، وبعضُهُم بطيءُ الوُقودِ سريعُ الخُمودِ ، وهوَ الأحمدُ ما لم ينتهِ إلىٰ فُتُورٍ في الحَمِيَّةِ والغَيْرةِ .

وأسبابُ الغضبِ :

أمَّا مِن جهةِ المِزاجِ . . فالحرارةُ واليُبوسةُ تدلُّ غَلَبَتُهُما على الغضبِ ؛ **فإنَّ الغضبَ معناهُ** : غَلَيانُ دمِ القلبِ .

فإن كانَ علىٰ مَن فوقَكَ عندَ اليأسِ مِنَ الانتقامِ . . تَولَّدَ منهُ انقباضُ الدَّمِ مِن ظاهرِ الجلدِ إلى القلبِ ، وكانَ حُزناً ؛ ولأجلِهِ يَصفَرُّ الوجهُ .

وإن كانَ علىٰ مَن دونَكَ . . تَولَّدَ منهُ ثَورانُ دمِ القلبِ لا انقباضُهُ ، فيكونُ منهُ الغضبُ الحقيقيُّ وطلبُ الانتقامِ[3] .

وإن كانَ علىٰ نظيرٍ تَشُكُّ في القدرةِ على الانتقامِ منهُ . . تَولَّدَ منهُ تردُّدُ الدَّمِ بينَ انقباضٍ وانبساطٍ ، ويختلفُ بهِ لونُ الوجهِ ؛ فيَحمَرُّ ويَصفَرُّ ويَضطَرِبُ .

وبالجملةِ : قُوَّةُ الغضبِ محلُّها القلبُ ، ومعناها : حركةُ الدَّمِ وغَلَيانُهُ .

---

(١) **الحلفاء** : نبت غليظ المسّ ، ينبت قريباً من الماء .

(٢) **الغضا** : شجر صلب الخشب .

(٣) في هامش (ج) : (وعند ذلك يحمرُّ الوجه) .

وأمَّا سببُهُ وراءَ المِزاجِ . . فالاعتيادُ ؛ فإنَّ مَن يُعاشِرُ جماعةً يُباهُونَ بالغضبِ وطِباعِ السَّبُعيَّةِ . . انطبعَ ذٰلكَ فيهِ ، وإن خالطَ أهلَ الهدوءِ والوَقارِ . . أثَّرَتِ العادةُ أيضاً .

وأمَّا سببُهُ المُخرِجُ لهُ مِنَ القُوَّةِ إلى الفعلِ في الحالِ . . فهوَ العُجْبُ ، والافتخارُ ، والمِراءُ ، واللَّجاجُ ، والمُزاحُ ، والتِّيهُ ، والاستهزاءُ ، والضَّيمُ ، وطلبُ ما فيهِ التَّنافسُ ، والتَّحاسدُ ، وشهوةُ الانتقامِ ، وكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ .

وحقُّ مَنِ اعتراهُ الغضبُ : أن يَتفكَّرَ فيما قالَهُ بعضُ الحكماءِ لبعضِ السَّلاطينِ وقد سألَهُ حِيلةً في دفعِ الغضبِ ، فقالَ : (ينبغي أن تذكرَ أنَّهُ يجبُ أن تُطيعَ لا أن تُطاعَ فقطْ ، وأن تَخدُمَ لا أن تُخدَمَ فقطْ ، وأن تَحتمِلَ لا أن تُحتمَلَ فقطْ ، وأن تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يراكَ دائماً ، فإذا فعلتَ ذٰلكَ . . لم تغضبْ) .

❀ ❀ ❀

واعلمْ : أنَّ الغضبَ لهُ فروعٌ كما سبقَ [1] ، **ومِن جملتِها** : الشَّجاعةُ ، والتَّهوُّرُ ، والمُنافَسةُ ، والغِبطةُ ، والحسدُ علىٰ ما سبقَ ، ولٰكنْ نزيدُها شرحاً .

أمَّا الشَّجاعةُ . . فخُلُقٌ بينَ التَّهوُّرِ والجبنِ :

فإنِ اعتُبِرَ إضافتُها إلى النَّفْسِ . . فهيَ صرامةُ القلبِ في

---

(١) انظر ما تقدم (ص ١٠٧ ، ١٦٢) .

الأهوالِ ، وربطُ الجأشِ عندَ المخاوفِ [١] .

وإنِ اعتُبِرَ بالفعلِ . . فالإقدامُ علىٰ موضعِ الفُرْصةِ .

وتولُّدُها مِنَ الغضبِ وحُسْنِ الأملِ ، وبها يُصابِرُ الإنسانُ الشَّدائدَ ، بل بها يصبرُ عنِ المعاصي ؛ فإنَّ الغضبَ إذا سُلِّطَ على الشَّهوةِ . . زجرَها .

ولمَّا كانَ الدِّينُ شطرُهُ رغبةٌ في الخيرِ ، وشطرُهُ تركٌ للشَّرِّ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلصَّبْرُ نِصْفُ ٱلْإِيمَانِ » [٢] .

ولمَّا كانَ بعضُ الشُّرورِ في شهوةِ الفَرْجِ والبطنِ ، وبعضُهُ في غيرِهما . . قالَ : « ٱلصَّوْمُ نِصْفُ ٱلصَّبْرِ » [٣] .

والصَّبرُ صبرانِ :

جسميٌّ ؛ وهوَ تحمُّلُ المَشاقِّ بالبَدنِ :

إمَّا فعلاً ؛ كتعاطي الأعمالِ الشَّاقَّةِ .

وإمَّا انفعالاً ؛ كاحتمالِ الضَّربِ الشَّديدِ والمرضِ العظيمِ .

والمحمودُ التَّامُّ : هوَ الضَّربُ الثَّاني ؛ وهوَ الصَّبرُ النَّفسيُّ .

---

(١) **ربط الجأش** : كنايةٌ عن الثبات عند الشدائد ، **والجأش** : نَفْس الإنسان ، أو رُواع القلب إذا اضطرب عند الفزع .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/٣٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٢٦٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥١٩) عن رجل من بني سليم ، وابن ماجه (١٨٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فإن كانَ عن تناولِ المُشتهَياتِ . . سُمِّيَ : **عِفَّةً** .

وإن كانَ على احتمالِ مكروهٍ . . اختلفَتْ أساميهِ بحسَبِ اختلافِ المكروهِ ؛ فإن كانَ في مصيبةٍ . . اقتصرَ على اسمِ (الصَّبرِ) ، ويُضادُّهُ : الجزَعُ والهَلَعُ .

وإن كانَ في احتمالِ غنىً . . سُمِّيَ : **ضبطَ النَّفْسِ** ، ويُضادُّهُ : البَطَرُ .

وإن كانَ في حربٍ . . سُمِّيَ : **شجاعةً** ، ويُضادُّهُ : الجبنُ .

وإن كانَ في كظمِ الغيظِ والغضبِ . . سُمِّيَ : **حِلْماً** ، ويُضادُّهُ : التَّذمُّرُ .

وإن كانَ في نائبةٍ مُضجِرةٍ . . سُمِّيَ : **سعةَ الصَّدرِ** ، ويُضادُّهُ : الضَّجَرُ والتَّبرُّمُ وضِيقُ الصَّدرِ .

وإن كانَ في إخفاءِ كلامٍ . . سُمِّيَ : **كِتمانَ السِّرِّ** .

وإن كانَ عن فُضولِ العيشِ . . سُمِّيَ : **زُهداً وقناعةً** ، ويُضادُّهُ : الحرصُ والشَّرَهُ ؛ ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أي : المصيبةِ ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي : الفقرِ ، ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي : المُحارَبةِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

وأمَّا الغِبطةُ والمُنافَسةُ والحسدُ . . فمِنَ الحميَّةِ أيضاً ، والغِبطةُ محمودةٌ ، والحسدُ مذمومٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُؤْمِنُ يَغْبِطُ ، وَٱلْمُنَافِقُ يَحْسُدُ »[1] .

---

(١) أورده الماوردي في « أدب الدين والدنيا » (ص ٤٣٣) ، وأخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » ←

والمُنافَسةُ محمودةٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ ذِكرُهُ : ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

والغِبطةُ : تَمنِّي الإنسانِ أن ينالَ مثلَ الخيرِ الَّذي نالَهُ أمثالُهُ مِن غيرِ أن يَغتمَّ لنيلِ غيرِهِ ، فإنِ انضمَّ إليهِ الجِدُّ والتَّشميرُ في الوصولِ إلىٰ مثلِهِ أو خيرٍ منهُ . . **فهيَ مُنافَسةٌ** .

والحسدُ : هوَ تَمنِّي زوالِ النِّعمةِ مِن مُستحِقِّها ، وربَّما كانَ معَ سعيٍ في إزالتِها ، **والخبيثُ التَّامُّ في الحسدِ** : أن يكونَ ساعياً في الإزالةِ مِن غيرِ أن يَطلُبَها لنفْسِهِ .

والحسدُ غايةُ البخلِ ؛ إذِ البخيلُ يبخلُ بمالِ نفْسِهِ ، والحسودُ يبخلُ بفضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ غيرِهِ .

وقيلَ : الحسدُ والحِرْصُ هُما ركنا الذُّنوبِ ، ولهُما ضُرِبَ المَثلُ بآدمَ وإبليسَ ؛ إذ حسدَ إبليسُ آدمَ فصارَ لعيناً ، وحَرَصَ آدمُ علىٰ ما نُهِيَ عنهُ فأُخرِجَ مِنَ الجنَّةِ ، **فهُما شجرتانِ تُثمِرانِ الغمومَ والهمومَ والخُسرانَ ، فمَن قطعَ عروقَهُما . . نجا** .

وبالجملةِ : فالحسدُ عينُ الحماقةِ ؛ لأنَّ مَن لا يَغتمُّ بخيرٍ يَصِلُ إلىٰ أهلِ المَغرِبِ معَ أنَّهُ لا ينالُهُ بوجهٍ . . فلِمَ يغتمُّ بخيرٍ يصلُ إلىٰ عشيرتِهِ وشركائِهِ وجيرانِهِ وأهلِ بلدِهِ وربَّما نالَ منهُ حظّاً ؟!

وقولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي ٱثْنَتَيْنِ :

← (٩٥/٨) عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ من قوله ، وانظر « المغني عن حمل الأسفار » (٨٦٦/٢) .

رَجُلٌ آتاهُ ٱللَّهُ مَالاً فَجَعَلَهُ فِي حَقٍّ ، وَرَجُلٌ آتاهُ ٱللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا »[1] . . إنَّما أرادَ بهِ الغِبطةَ ؛ فإنَّ الحسدَ قد يُطلَقُ لإرادتِها .

فهـٰذا هوَ القولُ في ضبطِ أفعالِ هـٰذهِ الصِّفاتِ .

* * *

فإن قلتَ : فمَن ضبطَ أفعالَ هـٰذهِ القُوىٰ حتَّىٰ حدثَتْ في نفْسِهِ مِن أفعالِهِ أخلاقٌ راسخةٌ تَتيسَّرُ بها هـٰذهِ الأفعالُ . . فهل يكونُ عفيفاً ؟

فاعلمْ : أنَّ العِفَّةَ لا تَتِمُّ بهـٰذا القَدْرِ ما لم يَنضمَّ إليهِ عِفَّةُ اليدِ واللِّسانِ والسَّمعِ والبصرِ .

وحدُّها في اللِّسانِ[2] : الكَفُّ عنِ السُّخريةِ ، والغِيبةِ ، والنَّميمةِ ، والكذبِ ، والهَمْزِ ، والتَّنابزِ بالألقابِ .

وفي السَّمعِ : تركُ الإصغاءِ إلىٰ قبائحِ اللِّسانِ مِنَ الغِيبةِ وغيرِها ، وإلىٰ جميعِ الأصواتِ المُحرَّمةِ .

وكذا في جميعِ الجوارحِ والقُوىٰ .

وعمادُ عِفَّةِ الجوارحِ كلِّها : ألَّا يُطلِقَها في شيءٍ ممَّا يَختصُّ بها إلَّا فيما يُسوِّغُهُ العقلُ والشَّرعُ ، وعلى الحدِّ الَّذي يُسوِّغُهُ ، ثمَّ لا يَتِمُّ بذٰلكَ ما لم يكنْ قصدُهُ في الإقدامِ والإحجامِ تحرِّيَ الفضيلةِ ، وطلبَ التَّقرُّبِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ونيلَ مرضاتِهِ .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) في (د ، ز) : (وعفَّتُها) بدل (وحدُّها) .

فأمَّا إن كانَ تعفُّفُهُ انتظاراً لِمَا هوَ أكثرُ ، أو لأنَّهُ لا يوافقُ مِزاجَهُ ، أو لخمودِ شهوتِهِ ، أو لاستشعارِ خوفٍ في عاقبتِهِ ، أو لسقوطِ حشمتِهِ ، أو لأنَّهُ ممنوعٌ مِن تناولِهِ . . فكلُّ ذٰلكَ ليسَ بعِفَّةٍ ، وإنَّما كلُّ ذٰلكَ تجارةٌ وتركُ حظٍّ لحظٍّ يماثلُهُ ، وكلُّ ذٰلكَ غيرُ كافٍ في تحصيلِ العِفَّةِ ، فلْيعلمْ ذٰلكَ .

ولْنخُضْ بعدَ هٰذا في تعريفِ طريقِ التَّعلُّمِ والتَّعليمِ وتهذيبِ القُوَّةِ العقليَّةِ .

❋ ❋ ❋

بيان شرف العقل والعلم والتعلّم والتّعليم

قد عرفتَ فيما سبقَ : أنَّ العِلْمَ والعملَ هُما وسيلتا السَّعادةِ ، وأنَّ العملَ لا يُتصوَّرُ إلَّا بعِلْمٍ بكيفيَّةِ العملِ ، وأنَّ العِلْمَ الَّذي ليسَ بعمليٍّ ؛ كالعِلْمِ باللهِ وصفاتِهِ وملائكتِهِ . . مُتصوَّرٌ[١] .

فقدِ استفدتَ منهُ : أنَّ العِلْمَ أصلُ الأُصولِ ، فلا بدَّ أن نُرشِدَكَ الآنَ إلىٰ طريقِ العِلْمِ والتَّعليمِ .

ونُنبِّهُ أوَّلاً علىٰ شرفِ هٰذهِ الأُمورِ ، وندلُّ عليهِ ، **فنقولُ** :

أمَّا التَّعليمُ . . فهوَ أشرفُ الأعمالِ .

والصِّناعاتُ ثلاثةُ أقسامٍ :

١ ـ **إمَّا أُصولٌ لا قِوامَ للعالَمِ دونَها** ؛ وهيَ أربعةٌ : الزِّراعةُ ، والحِياكةُ ، والبِناءُ ، والسِّياسةُ .

٢ ـ **وإمَّا مُهيِّئةٌ لكلِّ واحدةٍ منها وخادمةٌ لها** ؛ كالحِدادةِ للزِّراعةِ ، والحِلَاجةِ والغَزْلِ للحِياكةِ .

٣ ـ **وإمَّا مُتمِّمةٌ لكلِّ واحدةٍ منها ومُزيِّنةٌ لها** ؛ كالطِّحانةِ والخَبْزِ للزِّراعةِ ، والقِصارةِ والخِياطةِ للحِياكةِ .

وذٰلكَ بالإضافةِ إلىٰ قِوامِ العالَمِ الأرضيِّ . . مثلُ أجزاءِ الشَّخصِ

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٦٥ ، ٧٠) وما بعدهما .

بالإضافةِ إليهِ ؛ **فإنَّها ثلاثةُ أضربٍ** :

١ ـ إمَّا أُصولٌ ؛ كالقلبِ ، والكَبِدِ ، والدِّماغِ .

٢ ـ وإمَّا مُترشِّحةٌ لتلكَ الأُصولِ وخادمةٌ لها ؛ كالمَعِدةِ ، والعروقِ ، والشَّرايينِ .

٣ ـ وإمَّا مُكمِّلةٌ لها ومُزيِّنةٌ ؛ كاليدِ ، والحاجبِ .

وأشرفُ أُصولِ الصِّناعاتِ : السِّياساتُ ؛ إذ لا قِوامَ للعالَمِ إلَّا بها ، **وهيَ أربعةُ أضربٍ** :

الأوَّلُ : سياسةُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِم ، وحُكمُهُم على الخاصَّةِ والعامَّةِ في ظاهرِهِم وباطنِهِم .

والثَّاني : الخُلفاءُ والوُلاةُ والسَّلاطينُ[1] ، وحُكمُهُم على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً ، لٰكنْ علىٰ ظاهرِهِم لا علىٰ باطنِهِم .

والثَّالثُ : العلماءُ والحكماءُ ، وحُكمُهُم علىٰ باطنِ الخواصِّ فقطْ .

والرَّابعُ : الوُعَّاظُ والفقهاءُ ، وحُكمُهُم علىٰ بواطنِ العامَّةِ فقطْ .

فأشرفُ هٰذهِ السِّياساتِ الأربعِ بعدَ النُّبوَّةِ : إفادةُ العِلْمِ ، وتهذيبُ نفوسِ النَّاسِ .

---

(١) **الخلفاء** : الذين استُكمِلَتْ فيهم شروط الإمامة من قريش ، **والولاة هنا** : الملوك ؛ وهم نوَّاب الخلفاءِ ؛ كآل سلجوق بالروم ، وآل رسول باليمن ، **والسلاطين** : هم الذين يملكون البلاد بقهر وسطوة وغلبة .

وبرهانُ ذٰلكَ : أنَّ شرفَ الصِّناعةِ إنَّما يكونُ :

باعتبارِ النِّسبةِ إلى القُوَّةِ المُبرِّزةِ المُظهِرةِ لها ؛ كفضلِ معرفةِ الحكمةِ علىٰ معرفةِ اللُّغاتِ ؛ فإنَّ الأُولىٰ مُتعلِّقةٌ بالقُوَّةِ العقليَّةِ الَّتي هيَ أشرفُ القُوىٰ ، والأُخرىٰ مُتعلِّقةٌ بالقُوَّةِ الحِسِّيَّةِ وهيَ السَّمعُ .

وإمَّا بحسَبِ عمومِ النَّفعِ ؛ كفضلِ الزِّراعةِ على الصِّياغةِ .

وإمَّا بحسَبِ شرفِ الموضوعِ المعمولِ فيهِ ؛ كفضلِ الصِّياغةِ على الدِّباغةِ .

وليسَ يخفىٰ أنَّ العلومَ العقليَّةَ تُدرَكُ بالعقلِ الَّذي هوَ أشرفُ القُوىٰ ، وبهِ يُتوصَّلُ إلىٰ جَنَّةِ المأوىٰ ، وهوَ أبلغُ نفعٍ وأعمُّهُ ، وموضوعُهُ الَّذي يُعمَلُ فيهِ : نفوسُ البشرِ ، وهيَ أفضلُ موضوعٍ ، بل أشرفُ موجودٍ في هٰذا العالَمِ .

فإفادةُ العِلْمِ مِن وجهٍ صِناعةٌ ، ومِن وجهٍ عِبادةٌ للهِ تعالىٰ ، ومِن وجهٍ خِلافةٌ للهِ تعالىٰ ، وهوَ أجلُّ خِلافةٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قد فتحَ علىٰ قلبِ العالِمِ العِلْمَ الَّذي هوَ أخصُّ صفاتِهِ ، فهوَ كالخازنِ لأنفَسِ خزائنِهِ ، ثمَّ هوَ مأذونٌ لهُ في الإنفاقِ علىٰ كلِّ مُحتاجٍ إليهِ ، فأيُّ رتبةٍ أجلُّ مِن كونِ العبدِ واسطةً بينَ ربِّهِ وبينَ خَلْقِهِ في تقريبِهِم إلى اللهِ زلفىٰ ، وسياقتِهِم إلىٰ جَنَّةِ المأوىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

وأمَّا شرفُ العقلِ والعِلْمِ . . فمُدرَكٌ بضرورةِ العقلِ والشَّرعِ والحسِّ .

أمَّا الشَّرعُ . . فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ ٱللهُ ٱلْعَقْلُ ، فَقَالَ لَهُ : أَقْبِلْ ، فَأَقْبَلَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَدْبِرْ ، فَأَدْبَرَ ، ثُمَّ قَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ ، بِكَ آخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي ، وَبِكَ أُثِيبُ ، وَبِكَ أُعَاقِبُ »(١) .

وهٰذا العقلُ الَّذي يُدرِكُ بهِ الإنسانُ الأشياءَ . . يجري مِنَ العقلِ الأوَّلِ الَّذي خلقَهُ اللهُ تعالىٰ مَجرى النُّورِ مِنَ الشَّمسِ ؛ فإنَّ هٰذهِ العقولَ عقولٌ بالإضافةِ إلى الأشخاصِ ، وذٰلكَ مُطلَقٌ مِن غيرِ إضافةٍ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا دلالةُ العقلِ علىٰ شرفِ العقلِ . . فهوَ أنَّ ما لا يُنالُ سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بهِ فكيفَ لا يكونُ أشرفَ الأشياءِ ؟!

وبالعقلِ صارَ الإنسانُ خليفةَ اللهِ تعالىٰ ، وبهِ يُقرَّبُ إليهِ ، وبهِ تمَّ دِينُهُ ؛ ولذٰلكَ قالَ عليهِ السَّلامُ : « لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ »(٢) .

وقالَ : « لَا يُعْجِبَنَّكُمْ إِسْلَامُ ٱمْرِئٍ حَتَّىٰ تَعْرِفُوا عُقْدَةَ عَقْلِهِ »(٣) .

ولهٰذا قيلَ : (مَن لم يكنْ عقلُهُ أغلبَ خصالِ الخيرِ عليهِ . . كانَ حتفُهُ في أغلبِ خصالِ الخيرِ عليهِ)(٤) .

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (١٨٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣١٨/٧) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
(٢) أخرجه الحارث في « المسند » (١٤٥٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .
(٣) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٩٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٤) في (د ، ز) : (كان هلاكه في أغلب الأشياء عليه) .

وناهيكَ بهٰذا شرفاً وقد شَبَّهَ اللهُ تعالى العقلَ بالنُّورِ فقالَ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي : مُنوِّرُهُما ، وأكثرُ ما أُطلِقَ النُّورُ والظُّلماتُ في القرآنِ أُريدَ بهِ العِلْمُ والجهلُ ؛ مثلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ، وإنَّما كلُّ ذٰلكَ بالعقلِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إِذَا تَقَرَّبَ ٱلنَّاسُ إِلَىٰ خَالِقِهِمْ بِأَبْوَابِ ٱلْبِرِّ . . فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ تَسْبِقْهُمْ بِٱلدَّرَجَاتِ وَٱلزُّلْفَىٰ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَعِنْدَ ٱللهِ فِي ٱلْآخِرَةِ »[١] ، وسنذكرُ وجهَ التَّقرُّبِ بالعقلِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ[٢] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الحِسُّ بمُجرَّدِهِ . . فكافٍ في إدراكِ شرفِ العقلِ والعِلْمِ ، حتَّىٰ إنَّ أكبرَ الحيواناتِ شخصاً وأقواها بَدناً إذا رأى الإنسانَ . . احتشَمَهُ بعضَ الاحتشامِ ، واستشعرَ منهُ[٣] ؛ لإحساسِهِ بأنَّهُ مُستَولٍ عليهِ بحِيلَتِهِ .

وأقربُ النَّاسِ إلى البهائمِ أجلافُ العربِ والتُّركِ ، ورعاةُ البهائمِ منهُم ، ولو وقعَ فيما بينَهُم راعٍ أوفرُ منهُم عقلاً ، وأكثرُ منهُم درايةً بصناعتِهِم . . لوَقَّروهُ طبعاً ؛ ولذٰلكَ ترى الأتراكَ بالطَّبعِ يبالغونَ في توقيرِ شيوخِهِم ؛ لأنَّ التَّجربةَ مَيَّزَتْهُم عنهُم بمزيدِ عِلْمٍ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُطلقاً : « ٱلشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَٱلنَّبِيِّ فِي

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/١٨) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) انظر ما سيأتي (ص ٢٥٠ ـ ٢٥١) .
(٣) أي : خاف منه .

أُمَّتِهِ »[1] ، وإنَّما وَقارُ النَّبيِّ في أُمَّتِهِ بعِلْمِهِ وعقلِهِ ، لا بقُوَّةِ شخصِهِ ، وجمالِ بَدنِهِ ، وكثرةِ مالِهِ ، وقُوَّةِ شوكتِهِ .

ولذٰلكَ قصدَ كثيرٌ مِنَ المُعانِدينَ قتلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا وقعَ طرفُهُم عليهِ . . هابوهُ ، وتراءىٰ لهُم نورُ اللهِ في وجهِهِ مُعرِباً عن تميُّزِهِ ، مُلقِياً للرُّعبِ في صدورِ مُعانِديهِ .

وقد سمَّى اللهُ تعالى العِلْمَ : رُوحاً ، فقالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ .

وسمَّاهُ : حياةً ، فقالَ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا خَلَقَ ٱللهُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعَقْلِ »[2] .

ولو كُتِبَتِ الأخبارُ الواردةُ في الحثِّ علىٰ طلبِ العِلْمِ . . لَطالَ ، وأيُّ تشريفٍ يزيدُ علىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ ٱلْعِلْمِ ؛ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ » ؟![3] .

* * *

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٢٢٨) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٢) ، وابن عساكر في « معجم الشيوخ » (٨٧١) عن سيدنا أبي رافع رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (١٨٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٦) ، والنسائي (٩٨/١) عن سيدنا صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه .

بيان وجوب التعلّم لإظهار شرف العقل

اعلمْ : أنَّ شرفَ العقلِ مِن حيثُ كونُهُ مطيَّةَ العِلْمِ والحكمةِ وآلةً لهُ ، ولكنْ **نفْسُ الإنسانِ مَعدِنُ العِلْمِ والحكمةِ ومَنبَعٌ لها** ، وهيَ **مركوزةٌ فيها بالقُوَّةِ في أوَّلِ الفطرةِ لا بالفعلِ** ؛ كالنَّارِ في الحجرِ ، والماءِ في الأرضِ ، والنَّخلِ في النَّواةِ ، ولا بدَّ مِن سعيٍ في إبرازِهِ بالفعلِ كما لا بدَّ مِن سعيٍ في حفرِ الآبارِ لخروجِ الماءِ ، **ولكنْ كما أنَّ مِنَ الماءِ** ما يجري مِن غيرِ فعلٍ بشريٍّ ، ومنهُ ما هوَ كامنٌ يُحتاجُ في استنباطِهِ إلىٰ حفرٍ وتعبٍ شديدٍ ، ومنهُ ما يُحتاجُ فيهِ إلىٰ تعبٍ قليلٍ . . **فكذٰلكَ العِلْمُ في النُّفوسِ البشريَّةِ** :

منهُ ما يَخرُجُ إلى الفعلِ مِنَ القُوَّةِ بغيرِ تعلُّمٍ بشريٍّ ؛ كحالِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ ؛ فإنَّ علومَهُم تظهرُ مِن جهةِ الملأِ الأعلىٰ مِن غيرِ واسطةِ بشرٍ .

ومنهُ ما يَطولُ الجهدُ فيهِ ؛ كأحوالِ العوامِّ مِنَ النَّاسِ ، لا سيَّما ذوو البلادةِ ، والَّذينَ كَبِرَتْ سِنُّهُم في الغفلةِ والجهلِ ولم يَتعلَّموا في الصِّبا .

ومنهُ ما يكفي فيهِ السَّعيُ القليلُ ؛ كالأذكياءِ مِنَ الصِّبيانِ .

ولكونِ العلومِ مركوزةً في النُّفوسِ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ . . . ﴾

الآيةَ [١] ، والمرادُ بهِ : إقرارُ نفوسِهِم بالمعنى الَّذي أشرْنا إليهِ مِن كونِها موجودةً بالقُوَّةِ دونَ إقرارِ الألسنةِ ؛ فإنَّها لم تَحصُلْ مِن كلِّهِم عندَ الحصولِ ، بل مِن بعضِهِم .

وكذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، معناهُ : لئنِ اعتُبِرَتْ أحوالُهُم . . شَهِدَتْ بهِ نفوسُهُم وبواطنُهُم ، فِطرةَ اللهِ الَّتي فطرَ النَّاسَ عليها .

فكلُّ آدميٍّ فُطِرَ على الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، وما جاءَ الأنبياءُ إلَّا بالتَّوحيدِ ؛ ولذٰلكَ قالَ : « قُولُوا : لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ » [٢] ؛ فإنَّهُ لم يُصادِفْ إلَّا مَن هوَ مُصدِّقٌ بالإلٰهِ ، وإنَّما غَلِطَ في عينِهِ أو صفتِهِ .

ثمَّ لمَّا كانَ الإيمانُ باللهِ مركوزاً في النُّفوسِ بالفطرةِ . . انقسمَ النَّاسُ :

إلىٰ مَن أعرضَ فنسيَ ؛ وهُمُ الكُفَّارُ .

وإلىٰ مَن أجالَ خاطرَهُ فتذكَّرَ ، وكانَ كمَن حملَ شهادةً فنسيَها لغفلةٍ ثمَّ تذكَّرَها ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

---

(١) قرأ بها بالجمع : ﴿ ذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ، وقرأ الباقون بالإفراد : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . انظر « نشر القراءات العشر » (٤/٢٣٢٨) .

(٢) أخرجه ابن خزيمة في « الصحيح » (١٥٩) ، وابن حبان في « الصحيح » (٧٢٣١) عن سيدنا طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه .

والتَّذكُّرُ هوَ أكثرُ ما عُبِّرَ عنهُ ، وتسميةُ هٰذا النَّمطِ (تذكُّراً) ليسَ ببعيدٍ ، وكأنَّ **التَّذكُّرَ ضربانِ :**

أحدُهُما : أن يَتذكَّرَ صورةً كانَتْ في قلبِهِ بالفعلِ ثمَّ غابَتْ عنهُ .

والآخَرُ : أن يكونَ عن صورةٍ كانَتْ مُتضمَّنةً بالفطرةِ في الإنسانِ .

ولذٰلكَ قالَ المُحقِّقونَ : (التَّعلُّمُ ليسَ يَجلِبُ إلى الإنسانِ شيئاً مِن خارجٍ ، بل يَكشِفُ الغِطاءَ عمَّا حصلَ في النَّفْسِ بالفطرةِ ؛ كحالِ مُظهِرِ الماءِ مِنَ الأرضِ ، ومُظهِرِ الصُّوَرِ في المرآةِ بالجِلاءِ) .

وهٰذهِ حقائقُ ظاهرةٌ للنَّاظرِ بعينِ العقلِ ، ثقيلةٌ علىٰ قلبِ مَن جَمَدَ بهِ قُصورُهُ عن أوَّلِ رتبةِ صبيانِ المَكتَبِ في اعتلاقِ طبعِهِم بسوابقِ الخيالاتِ مِن ظواهرِ الألفاظِ مِن غيرِ تحقيقٍ لها .

❋ ❋ ❋

بيان أنواع العقل

اعلمْ : أنَّ العقلَ ينقسمُ : إلىٰ غريزيٍّ ، وإلىٰ مُكتسَبٍ .

فالغريزيُّ : هوَ القُوَّةُ المُستعِدَّةُ لقَبولِ العِلْمِ ، ووجودُهُ في الطِّفلِ كوجودِ النَّخلِ في النَّواةِ .

والمُكتسَبُ المُستفادُ : هوَ الَّذي يَحصُلُ مِنَ العلومِ :

إمَّا مِن حيثُ لا يدري ؛ كفَيَضانِ العلومِ الضَّروريَّةِ عليهِ بعدَ التَّمييزِ مِن غيرِ تَعلُّمٍ .

وإمَّا مِن حيثُ يَعرِفُ مُدرَكَهُ ؛ وهوَ التَّعلُّمُ .

ولانقسامِ العقلِ إلى القسمَينِ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ (١) : [من الهزج]

أَقُولُ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ ... فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ

كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ ... وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعُ

والأوَّلُ : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا خَلَقَ ٱللهُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعَقْلِ » (٢) .

والثَّاني : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ :

---

(١) ديوان سيدنا علي رضي الله عنه الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول ﷺ » (ص ١٦١) .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (١٨٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ١٧٥) .

« إِذَا تَقَرَّبَ ٱلنَّاسُ بِأَبْوَابِ ٱلْبِرِّ . . فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ »[1] .

والأَوَّلُ : يجري مَجرى البصرِ للجسمِ .

والثَّاني : يجري مَجرىٰ نورِ الشَّمسِ .

ولا منفعةَ في النُّورِ عندَ عمى البصرِ ، ولا يُجدِي البصرُ عندَ عدمِ النُّورِ ، فكذا بصرُ الباطنِ وهوَ العقلُ ، وهوَ أشرفُ مِنَ البصرِ الظَّاهرِ ؛ إذِ النَّفْسُ كالفارسِ ، والبَدنُ كالفرسِ ، وعمى الفارسِ أضرُّ مِن عمى الفرسِ .

ولِمُشابَهةِ بصرِ الباطنِ للظَّاهرِ قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وسمَّىٰ ضدَّهُ : عمىً ، فقالَ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وبالجملةِ : مَن لم تكنْ بصيرةُ عقلِهِ ثاقبةً نافذةً . . فلا تَعلُّقَ لهُ مِنَ الدِّينِ إلَّا بقشورِهِ ، بل خيالاتِهِ وأمثلتِهِ ، دونَ لُبابِهِ وحقيقتِهِ ، **فلا تُدرَكُ العلومُ الشَّرعيَّةُ إلَّا بالعلومِ العقليَّةِ** ؛ فإنَّ العقليَّةَ كالأدويةِ للصِّحَّةِ ، والشَّرعيَّةَ كالغذاءِ ، والنَّفْسُ المريضةُ المحرومةُ عنِ الدَّواءِ تَتضرَّرُ بالأغذيةِ ولا تَنتفعُ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لمَّا كانوا لا يَنتفِعونَ بالقرآنِ .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/١٨) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ١٧٤) .

والمُقلِّدُ الأعمىٰ إذا تأمَّلَ مواردَ الشَّرعِ . . تراءىٰ لهُ أُمورٌ مُتناقِضةٌ ، وهيَ كذٰلكَ بالإضافةِ إلىٰ ما فَهِمَهُ ، ثمَّ قد تَجبُنُ نفْسُهُ عنِ التَّأمُّلِ فيهِ ؛ لضَعفِ عقلِهِ وخَوَرِ طبعِهِ ، فيَتكلَّفُ الغفلةَ عنهُ خيفةَ أن ينكسرَ تقليدُهُ .

وقد يَتأمَّلُهُ فيُدرِكُ تناقُضَهُ ، فيَتحيَّرُ ويَبطُلُ يقينُهُ ، ولو نظرَ بعينِ البصيرةِ . . لارتفعَ التَّناقضُ ، ورأىٰ كلَّ شيءٍ في موضعِهِ .

ومثالُهُ مثالُ **الأعمى** الَّذي دخلَ داراً فتَعثَّرَ بالكُوزِ والطَّسْتِ وأثاثِ البيتِ ، فقالَ : لِمَ وضعتُم هٰذا على الطَّريقِ ؟! ولِمَ لم تردُّوها إلىٰ مَحالِّها ؟! فقيلَ لهُ : إنَّ كلَّ شيءٍ منها في موضعِهِ ، ولٰكنَّ الخَلَلَ في البصرِ .

فهٰذا بيانُ نسبةِ العِلْمِ المُستفادِ مِنَ العقلِ .

❁ ❁ ❁

واعلَمْ : أنَّ المُكتسَبَ مِنَ العلومِ بواسطةِ العقلِ ينقسمُ إلى : **المعارفِ الدُّنيويَّةِ** ، **والأُخرويَّةِ** ، وطريقاهُما مُتنافِيانِ ، فمَن صرفَ عنايتَهُ إلىٰ أحدِهِما . . قَصُرَتْ بصيرتُهُ في الآخَرِ على الأكثرِ ؛ ولذٰلكَ ضربَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لهُما ثلاثةَ أمثلةٍ ، فقالَ : (إنَّ مَثَلَ الدُّنيا والآخرةِ ككِفَّتَيِ الميزانِ ، وكالمَشرِقِ والمَغرِبِ ، وكالضَّرَّتَينِ إذا أرضيتَ إحداهُما . . أسخطتَ الأُخرىٰ)[1] .

---

(١) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص١٣٦) .

ولذلك ترى الأكياسَ في أُمورِ الدُّنيا جُهَّالاً في أُمورِ الآخرةِ ، وبالعكسِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ »(١) .

وقالَ عليهِ السَّلامُ لمَن نسبَ بعضَ الصَّالحينَ إلى البَلَهِ : « أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ٱلْبُلْهُ »(٢) ؛ يعني : في أُمورِ الدُّنيا .

ولذلكَ قالَ الحسنُ : (أدركْنا أقواماً لو رأيتُموهُم . . لقلتُم : مجانينُ ، ولو رأَوكُم . . لقالوا : شياطينُ)(٣) .

ومهما سمعتَ أمراً غريباً مِن أُمورِ الدِّينِ . . فلا يُنفِّرَنَّكَ عن قبولِهِ أنَّهُ لو كانَ حقيقيّاً لأدركَهُ الأكياسُ مِن أربابِ الدُّنيا ودقائقِ الصِّناعاتِ الهندسيَّةِ وغيرِها ؛ إذ مِنَ المُحالِ أن يَظفَرَ سالكُ طريقِ المَشرِقِ بما يُوجَدُ في المَغرِبِ ، فكذلكَ أمرُ الدُّنيا والآخرةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه البزار في « المسند » (٦٣٣٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٣) انظر « قوت القلوب » (١٧١/١) ، و« الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ١٣٦) .

ولا يكادُ يَجمَعُ بينَهُما إلَّا مَن رَشَّحَهُ اللهُ لتدبيرِ الخَلْقِ في مَعاشِهِم ومَعادِهِم [1] ، **وهُمُ الأنبياءُ المُؤيَّدونَ برُوحِ القُدُسِ** ، المُستمِدُّونَ مِن قُوَّةٍ تَتَّسِعُ لجميعِ الأُمورِ ولا تضيقُ .

فأمَّا النُّفوسُ الضَّعيفةُ . . فإنَّها إذا اشتغلَتْ بأمرٍ انصرفَتْ عن غيرِهِ ، ولم تَقدِرْ على الاستكمالِ منهُما جميعاً .

* * *

(١) في (ب) : (رسَّخه) بدل (رشَّحه) .

بيان وظائف المتعلّم والمعلّم في العلوم الدّينيّة المسعدة

أمَّـا الـمُـتعـلِّـمُ . . فوظائفُهُ كثيرةٌ ، ويَجمَعُ تفاصيلَها عشرُ جُمَلٍ :

الوظيفةُ الأُولىٰ : أن يُقدِّمَ طهارةَ النَّفْسِ عن رديءِ الأخلاقِ ؛ فكما لا تَصِحُّ عبادةُ الجوارحِ في الصَّلاةِ إلَّا بطهارةِ الجوارحِ . . فالعِلْمُ عبادةُ النَّفْسِ ، وفي لسانِ الشَّرعِ : عبادةُ القلبِ ، فلا تَصِحُّ إلَّا بطهارةِ القلبِ عن خبائثِ الأخلاقِ ، وأنجاسِ الصِّفاتِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ ٱلدِّينُ عَلَى ٱلنَّظَافَةِ »[1] ، وهوَ كذٰلكَ باطناً كما أنَّهُ كذٰلكَ ظاهراً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [٩/٢٨] ، فنبَّهَ بهِ علىٰ أنَّ الطَّهارةَ والنَّجاسةَ غيرُ مقصورتَينِ على الظَّاهرِ ؛ ولذٰلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَدْخُلُ ٱلْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ »[2] ، والقلبُ مَنزِلُ الملائكةِ ، ومَحَلُّ نظرِهِم ، ومَصَبُّ أثرِهِم ، والصِّفاتُ الرَّديَّةُ كلابٌ نابحةٌ مانعةٌ .

ومهما اعتقدَ هٰذا في بيتٍ مِن طينٍ ، وحيوانٍ يُسمَّىٰ : كلباً وهوَ كسائرِ الحيواناتِ شكلاً . . فبأنْ يَعتقِدَ في بيتِ الدِّينِ ، وصفاتِ

---

(١) أخرجه أبو الصعاليك الطرسوسي في « جزئه » كما في « التدوين في أخبار قزوين » (١٧٦/١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) عن سيدنا أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه .

لا تساوي سائرَ الصِّفاتِ المحمودةِ . . أَولىٰ ، وبيتُ الدِّينِ هوَ القلبُ ، وعليهِ تَغلِبُ الكلابُ مَرَّةً ، والملائكةُ أُخرىٰ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فكم مِن طالبٍ رديءِ الأخلاقِ حَصَّلَ العلومَ !!

فما أبعدَكَ عن فهمِ العِلْمِ الحقيقيِّ الدِّينيِّ الجالبِ للسَّعادةِ !! فما يُحصِّلُهُ صاحبُ الأخلاقِ الرَّديَّةِ حديثٌ يَنظِمُهُ بلسانِهِ مَرَّةً ، وفي قلبِهِ أُخرىٰ ، وكلامٌ يُردِّدُهُ ، ولو ظهرَ نورُ العِلْمِ علىٰ قلبِهِ . . لَحسُنَتْ أخلاقُهُ .

فإنَّ أقلَّ درجاتِ العِلْمِ : أن يعرفَ أنَّ المعاصيَ سمومٌ مُهلِكةٌ مُبطِلةٌ للحياةِ الأبديَّةِ ؛ **فإنَّ مَنشَأَها** : الصِّفاتُ الرَّديَّةُ ، وهل رأيتَ مَن عرفَ السُّمَّ فتناولَهُ ؟!

ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱزْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدىً . . لَمْ يَزْدَدْ مِنَ ٱللهِ إِلَّا بُعْداً »[1] .

ولهٰذا قالَ بعضُ المُحقِّقينَ : (معنىٰ قولِهِم : « تعلَّمْنا العِلْمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العِلْمُ أن يكونَ إلَّا للهِ » : أنَّ العِلْمَ امتنعَ وأبىٰ فلم يَحصُلْ ، وما حصلَ كانَ حديثاً ، ولم يكنْ عِلْماً تحقيقاً) .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/١٨٠) مخطوط من مكتبة لاله لي برقم (٦٤٨) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنحوه ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٣٥١/١) .

فإن قلتَ : إنِّي أرىٰ جماعةً مِن فُضَلاءِ الفقهاءِ قد تَبحَّروا فيها معَ سوءِ أخلاقِهِم .

فيُقالُ لكَ : إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ ، ونسبتَها إلىٰ سلوكِ سُبُلِ السَّعادةِ . . عرفتَ أنَّ ما يَعرِفُهُ أُولئكَ الفقهاءُ قليلُ الغَناءِ في المقصودِ وإن كانَ لا يَنفكُّ عن تَعلُّقٍ بهِ في حقِّ مَن يَقصِدُ بهِ التَّقرُّبَ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثَّانيةُ : أن يُقلِّلَ علائقَهُ مِنَ الأشغالِ الدُّنيويَّةِ ، ويَبعُدَ عنِ الأهلِ والولدِ والوطنِ ؛ فإنَّ العلائقَ صارفةٌ وشاغلةٌ للقلوبِ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِن قلبَينِ في جوفِهِ ، ومهما تَوزَّعَتِ الفكرةُ . . قَصُرَتْ عن دَرَكِ الحقائقِ ؛ ولهٰذا قيلَ : (العِلْمُ لا يعطيكَ بعضَهُ حتَّىٰ تعطيَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ . . فإنَّكَ مِن إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَهُ علىٰ خطرٍ)[1] .

والفكرةُ مهما تَوزَّعَتْ علىٰ أُمورٍ كثيرةٍ . . كانَتْ كجَدْوَلٍ تَفرَّقَ ماؤُهُ ، فنَشَّفَهُ الهواءُ والأرضُ ، ولا يبقىٰ منهُ ما يَجتمِعُ ويَبلُغُ المزرعةَ ويُنتفَعُ بهِ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثَّالثةُ : ألَّا يَتكبَّرَ على العِلْمِ ، ولا يَتأمَّرَ على المُعلِّمِ ، بل يُلقي إليهِ زِمامَ أمرِهِ في تفصيلِ طُرقِ التَّعليمِ ، ويُذعِنُ لنصحِهِ إذعانَ المريضِ للطَّبيبِ .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٩٤/٦) من قول أبي إسحاق النَّظَّام .

أمَّا التَّكبُّرُ على العِلْمِ . . فأن يَستنكِفَ مِن استفادتِهِ ممَّن يَعرِفُهُ ، وهوَ عينُ الحُمْقِ ، بلِ الحكمةُ ضالَّةُ المُؤمِنِ ، فحيثُ يَجِدُها ينبغي أن يغتنمَها ويستفيدَها ويَتقلَّدَ بها المِنَّةَ ؛ فالعِلْمُ حربٌ للفتى المُتعالي ، كالسَّيلِ حربٌ للمكانِ العالي .

فلا بدَّ مِنَ التَّواضع ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٥٠/٣٧﴾ ﴾ ؛ أي : يكونُ مُشتغِلاً بالعِلْمِ ، وهوَ المرادُ ممَّن لهُ قلبٌ ، أو كانَ فيهِ مِنَ العقلِ ما يَحمِلُهُ علىٰ إلقاءِ السَّمعِ وحُسنِ الإصغاءِ والضَّراعةِ .

ومهما لم يكنِ المُتعلِّمُ لمُعلِّمِهِ كأرضٍ دَمِثَةٍ نالَتْ مطراً غزيراً فتَلَقَّتْهُ بالقَبولِ مِن غيرِ دفعٍ (١) . . لم يَنتفِعْ بهِ .

ومهما أشارَ المُعلِّمُ في طريقِ التَّعلُّمِ بما يراهُ المُتعلِّمُ عينَ الخطأَ ويَعتقِدُهُ قطعاً . . فليَتَّهِمْ نفسَهُ ، ولْيَصبِرْ ولْيتَّبعْ مُعلِّمَهُ ؛ فإنَّ خطأَ مُعلِّمِهِ خيرٌ مِن صوابِهِ في نفْسِهِ ، فسالكُ الطَّريقِ يكونُ قدِ استفادَ بالتَّجرِبةِ ما يَتعجَّبُ المُبتدِئُ منهُ .

وعلىٰ هٰذا نَبَّهَ اللهُ تعالىٰ في قِصَّةِ الخَضِرِ وموسىٰ عليهِما السَّلامُ ؛ فإنَّهُ قالَ : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿١٨/٦٦﴾ ﴾ ، فقالَ : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٨/٧٠﴾ ﴾ ، ثمَّ لم يَصبِرْ ، وراجعَهُ ورادَّهُ إلىٰ أن قالَ : ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴿١٨/٧٨﴾ ﴾ ، ثمَّ نَبَّهَهُ علىٰ أسرارِ ما استبعدَهُ كما وردَ بهِ القرآنُ العظيمُ ، فعرفَ موسىٰ عليهِ

---

(١) الدمثة : السهلة الليّنة المنخفضة .

السَّلامُ أنَّ المُعلِّمَ يَعلَمُ ما لا ينتهي إليهِ عقلُ المُتعلِّمِ ووهمُهُ .

وبالجملةِ : كلُّ مُتعلِّمٍ لم يتبعْ مراسمَ مُعلِّمِهِ في طريقِ التَّعلُّمِ . . فاحكمْ عليهِ بالإخفاقِ وقِلَّةِ النُّجْحِ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا ليسَ مُناقِضاً لمنعِ موسىٰ عليهِ السَّلامُ مِنَ السُّؤالِ ولا لِما ذكرْناهُ ؛ لأنَّ النَّهيَ هوَ منعٌ عن طلبِ ما لم تبلغْ مَنزِلتُهُ إلىٰ حدٍّ يُدرِكُهُ ، فإذا منعَهُ المُعلِّمُ مِنَ السُّؤالِ عنهُ . . فلْيمتنعْ .

والأمرُ بالسُّؤالِ هوَ حثٌّ علىٰ معرفةِ تفصيلِ ما تقتضيهِ رتبتُهُ مِنَ العِلْمِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الرَّابعةُ : أنَّ الخائضَ في فنٍّ مِنَ العلومِ النَّظريَّةِ لا ينبغي لهُ أن يصغيَ أوَّلاً إلى الاختلافاتِ الواقعةِ بينَ الفِرَقِ ، والشُّبَهِ المُشْكِلةِ المُحيِّرةِ ما لم يَفرُغْ مِن تمهيدِ قوانينِهِ(١) ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُفتِّرُ رأيَهُ في أصلِ العِلْمِ ، ويُؤْيِسُهُ عن حقيقةِ الدَّرَكِ لأسبابٍ ذكرْناها في كتابِ « معيارِ العِلْمِ »(٢) .

---

(١) في (ب) : (المشككة) بدل (المشكلة) .

(٢) معيار العلم (ص ٢٤٤) وما بعدها .

فلْيُتقِنِ الأُصولَ والرَّأيَ الَّذي اختارَهُ أُستاذُهُ وطريقَهُ ، ثمَّ لِيَخُضْ بعدَ ذٰلكَ في تَعرُّفِ الشُّبَهِ وتعقُّبِها .

ولهٰذا نهى اللهُ تعالىٰ مَن لم تقوَ في الإسلامِ مُنَّتُهُ عن مُخالَطةِ الكُفَّارِ ، حتَّىٰ قيلَ : (كانَ أحدُ أسبابِ تحريمِ لحمِ الخنزيرِ ذٰلكَ ؛ إذ كانَ أكثرَ أطعمةِ الكُفَّارِ ، فحُرِّمَ ذٰلكَ ليكونَ مَزجَرةً للمسلمينَ عن مُواكَلتِهِمُ الَّتي كانَتْ سبباً للمُخالَطةِ) .

ولهٰذا تجبُ صيانةُ العوامِّ عن مجالسِ أهلِ الأهواءِ كما تُصانُ الحُرَمُ عن مُخالَطةِ المُفسِدينَ .

فأمَّا مَن قَوِيَتْ في الدِّينِ شكيمتُهُ[1] ، واستقرَّ في نفْسِهِ برهانُهُ وحُجَّتُهُ . . فلا بأسَ عليهِ بالمُخالَطةِ ، بلِ الأحبُّ المُخالَطةُ والإصغاءُ إلى الشُّبَهِ والاشتغالُ بحَلِّها ، ويكونُ بهِ مُجاهِداً ؛ فإنَّ المُبارِزَ يُستحَبُّ لهُ التَّهجُّمُ علىٰ صفِّ الكُفَّارِ ، والعاجزَ يُكرَهُ لهُ ذٰلكَ .

ومِن هٰذا الأصلِ غَلِطَ مَن ظنَّ أنَّ وظائفَ الضُّعفاءِ كوظائفِ الأقوياءِ في الدِّينِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : (مَن رآني في الابتداءِ . . صارَ صِدِّيقاً ، ومَن رآني في الانتهاءِ . . صارَ زِندِيقاً) يعني : أنَّ الابتداءَ يقتضي المُجاهَدةَ الظَّاهرةَ للأعينِ بكثرةِ العباداتِ ، وفي الانتهاءِ يرجعُ العملُ إلى الباطنِ ، فيبقى القلبُ على الدَّوامِ في عينِ الشُّهودِ والحضورِ ، وتَفتُرُ ظواهرُ الأعضاءِ ، فيُظَنُّ أنَّ ذٰلكَ تهاونٌ بالعباداتِ ، وهيهاتَ !! فذٰلكَ استغراقٌ بمُخِّ العباداتِ ولُبابِها

---

(١) الشكيمةُ : شدة النَّفس .

وغايتِها ، ولٰكنَّ أعينَ الخفافيشِ تَكِلُّ عن دَرَكِ نورِ الشَّمسِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الخامسةُ للمُتعلّمِ : ألَّا يدعَ فنّاً مِن فنونِ العِلْمِ ونوعاً مِن أنواعِهِ إلَّا وينظرُ فيهِ نظراً يَطَّلِعُ بهِ علىٰ غايتِهِ ومَقصِدِهِ وطريقِهِ ، ثمَّ إن ساعدَهُ العُمرُ وواتَتْهُ الأسبابُ . . طلبَ التَّبحُّرَ فيهِ ؛ فإنَّ العلومَ كلَّها مُتعاوِنةٌ ، وبعضَها مُرتبَطٌ ببعضٍ .

ويستفيدُ منهُ في الحالِ : ألَّا يكونَ مُعادِياً لذٰلكَ العِلْمِ بسببِ جهلِهِ ؛ فإنَّ النَّاسَ أعداءُ ما جهلوا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

وقالَ الشَّاعرُ(١) : [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْمَاءَ ٱلزُّلَالَا

فلا ينبغي للعاقلِ أن يَستهينَ بشيءٍ مِن أنواعِ العلومِ ، بل ينبغي أن يُحصّلَ كلَّ عِلْمٍ ويعطيَهُ حقَّهُ ومرتبتَهُ ؛ **فإنَّ العلومَ علىٰ درجاتِها** : إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى اللهِ تعالىٰ ، أو مُعينةٌ علىٰ أسبابِ السُّلوكِ .

ولها منازلُ مُرَتَّبةٌ في القُربِ والبُعدِ مِنَ المَقصِدِ .

والقُوَّامُ بها حَفَظَةٌ كحَفَظَةِ الرِّباطاتِ والثُّغورِ علىٰ طريقِ الجهادِ والحجِّ ، ولكلِّ واحدٍ منها رتبةٌ .

❁ ❁ ❁

---

(١) البيت للمتنبي في « الديوان » (ص ١٠٩) .

الوظيفةُ السَّادسةُ : ألَّا يخوضَ في فنونٍ مِنَ العلومِ دَفعةً ، بل يراعي التَّرتيبَ ؛ فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ ، **ولا يَخوضَ في فنٍّ حتَّىٰ يستوفيَ الفنَّ الَّذي قبلَهُ** ؛ فإنَّ العلومَ مُرَتَّبةٌ ترتيباً ضروريّاً ، وبعضُها طريقٌ إلى البعضِ .

والمُوفَّقُ مَن راعىٰ ذٰلكَ التَّرتيبَ والتَّدريجَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي : لا يُجاوِزونَ فنّاً حتَّىٰ يُحكِموهُ عِلْماً وعملاً .

ولْيكنْ قصدُهُ مِن كلِّ عِلْمٍ يَتحرَّاهُ . . التَّرقِّيَ بهِ إلىٰ ما فوقَهُ .

وينبغي ألَّا يَحكُمَ علىٰ عِلْمٍ بالفسادِ لوقوعِ الاختلافِ بينَ أصحابِهِ فيهِ ، ولا لخطأِ واحدٍ أو آحادٍ فيهِ ، ولا لمُخالَفتِهِم مُوجَبَ عِلمِهِم بالعملِ ؛ **فترىٰ جماعةً** تركوا النَّظرَ في العقليَّاتِ والفقهيَّاتِ مُتعلِّلينَ فيها بأنَّهُ لو كانَ لها أصلٌ . . لأدركَها أربابُها ، وقد مضىٰ كشفُ هٰذهِ الشُّبَهِ في كتابِ « معيارِ العِلْمِ »[1] .

وترىٰ طائفةً يَعتقِدونَ بطلانَ الطِّبِّ لخطأٍ شاهدوهُ مِن طبيبٍ .

وطائفةً يَعتقِدونَ صحَّةَ النُّجومِ لصوابٍ اتَّفقَ لواحدٍ .

وطائفةً يَعتقِدونَ بطلانَهُ لخطأٍ اتَّفقَ لآخَرَ .

والكلُّ خطأٌ .

---

(١) معيار العلم (ص ٨٤) وما بعدها .

بل ينبغي أن تَعرِفَ الشَّيءَ في نفْسِهِ ، فما كلُّ عِلْمٍ يَستقِلُّ بالإحاطةِ بهِ كلُّ شخصٍ ؛ ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تَعرِفِ الحقَّ بالرِّجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تَعرِفْ أهلَهُ)[1] .

❋ ❋ ❋

الوظيفةُ السَّابعةُ : أنَّ العُمرَ إذا لم يَتَّسِعْ لجميعِ العلومِ . . فينبغي أن يأخذَ مِن كلِّ شيءٍ أحسنَهُ ؛ فيكتفي بشمَّةٍ مِن كلِّ عِلْمٍ ، ويَصرِفُ الميسورَ مِنَ العُمرِ إلى استكمالِ العِلْمِ الَّذي هوَ سببُ النَّجاةِ والسَّعادةِ ، وهوَ غايةُ جميعِ العلومِ ؛ وهيَ معرفةُ اللهِ تعالىٰ على الحقيقةِ والمَصْدوقةِ[2] .

والعلومُ كلُّها خَدَمٌ لهٰذا العِلْمِ ، وهٰذا العِلْمُ حرٌّ لا يَخدُمُ غيرَهُ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، وليسَ المرادُ تحريكَ عَضَلَاتِ اللِّسانِ بهٰذهِ الحروفِ ، وكذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَالَ : (لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) مُخْلِصاً . . دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ »[3] ؛ فإنَّ حركةَ الأطرافِ قليلةُ الغَناءِ إذا لم تكنْ مُؤثِّرةً في القلبِ ، ولم تكنْ صادرةً عن أثرٍ راسخٍ في القلبِ .

وذٰلكَ الأثرُ في القلبِ أوَّلُهُ اعتقادٌ يُسمَّىٰ : إيماناً ، ثمَّ تنتهي

---

(١) أخرجه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣/٦٤) .

(٢) المصدوقة : الصدق ، وهي من المصادر التي جاءت علىٰ مفعولة .

(٣) أخرجه البزار كما في « كشف الأستار » (٧) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٥/١٩٧) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ١٣٣) .

رتبتُهُ إلىٰ مثلِ إيمانِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الَّذي لو وُزنَ بإيمانِ العالَمينَ . . لَرجحَ[١] ، هـٰذا معَ **التَّصريحِ بأنَّهُ** ما فَضَلَكُم بكثرةِ صيامٍ ولا بكثرةِ صلاةٍ ، **ولـٰكنْ بسرٍّ وَقَرَ في صدرِهِ**[٢] .

فإن كانَ مُنتهى العِلْمِ باللهِ ما اعتقدَهُ المُقلِّدُ أوِ المُتكلِّمُ المُتعلِّمُ لتحريرِ الدَّليلِ . . فما عندي أنَّ ذٰلكَ يَعجِزُ عنهُ عمرُ وعليٌّ وكافَّةُ الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِم أجمعينَ حتَّىٰ كانَ يَفضُلُهُم بهِ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ .

وبهـٰذا يستبينُ للمُنصِفِ : أنَّ طريقَ الصُّوفيَّةِ وإن كانَ يُرىٰ مائلاً عن أكثرِ الظَّواهرِ . . فمشهودٌ لهُ مِنَ الشَّرعِ بشواهدَ قويَّةٍ ، فلا ينبغي أن يُعادِيَهُ الجاهلُ بجهلِهِ وقصورِهِ عنهُ .

وعلى الجملةِ : فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ غايةُ كلِّ معرفةٍ ، وثمرةُ كلِّ عِلْمٍ ؛ على المذاهبِ كلِّها .

وقد رُوِيَ : أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حكيمَينِ مِنَ الحكماءِ المُتعبِّدينَ في مَسجِدٍ ، وفي يدِ أحدِهِما رقعةٌ فيها : (إن أحسنتَ كلَّ شيءٍ . . فلا تَظُنَّنَّ أنَّكَ أحسنتَ شيئاً حتَّىٰ تَعرِفَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وتَعلَمَ أنَّهُ مُسبِّبُ الأسبابِ ومُوجِدُ الأشياءِ) ، وفي يدِ الآخَرِ : (كنتُ قبلَ أن عرفتُ اللهَ

---

(١) أخرج البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٥) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض . . لرجح بهم) ، وأخرجه ابن عدي في « الكامل في ضعفاء الرجال » (٢٠١/٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) أخرجه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) عن بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالىٰ من قوله ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١٨٧/١) .

تعالىٰ أشربُ وأظمأُ ، حتَّىٰ إذا عرفتُهُ . . رَويتُ بلا شُربٍ) .

* * *

الوظيفةُ الثَّامنةُ : أن يَعرِفَ معنىٰ كونِ بعضِ العلومِ أشرفَ مِن بعضٍ ، وأنَّ شرفَ العِلْمِ يُدرَكُ بشيئَينِ :

أحدُهُما : بشرفِ ثمرتِهِ .

والآخَرُ : بوثاقةِ دلالتِهِ .

وذٰلكَ **كعِلْمِ الدِّينِ** ، **وعِلْمِ الطِّبِّ** ؛ فإنَّ ثمرةَ عِلْمِ الدِّينِ الحياةُ الأبديَّةُ الَّتي لا آخِرَ لها ، فكانَ أشرفَ مِن عِلْمِ الطِّبِّ الَّذي ثمرتُهُ حياةُ البَدنِ إلىٰ غايةِ الموتِ .

وأمَّا عِلْمُ الحسابِ إذا أضفتَهُ إلىٰ عِلْمِ الطِّبِّ . . فإنَّ الحسابَ أشرفُ باعتبارِ وثاقةِ دلالتِهِ ؛ فإنَّ العِلْمَ بهِ ضروريٌّ غيرُ موقوفٍ على التَّجربةِ ، بخلافِ الطِّبِّ .

والطِّبُّ أشرفُ باعتبارِ ثمرتِهِ ؛ فإنَّ صحَّةَ البَدنِ أشرفُ مِن معرفةِ نسبةِ المقاديرِ ، والنَّظرَ إلىٰ شرفِ الثَّمرةِ أَولىٰ مِنَ النَّظرِ إلىٰ وثاقةِ الدَّليلِ .

وأشرفُ العلومِ ثمرةً : العِلْمُ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وما يُعينُ عليهِ ؛ فإنَّ ثمرتَهُ السَّعادةُ الأبديَّةُ [1] .

* * *

---

(١) في هامش (ب) : (قوبلت) .

الوظيفةُ التَّاسعةُ : أن يَعرِفَ أنواعَ العلومِ بقولٍ جُمْليٍّ ؛ وهيَ ثلاثةٌ :

١ ـ عِلْمٌ يَتعلَّقُ باللَّفظِ مِن حيثُ يدلُّ على المعنىٰ .

٢ ـ وعِلْمٌ يَتعلَّقُ بالمعنىٰ مِن حيثُ يدلُّ عليهِ اللَّفظُ .

٣ ـ وعِلْمٌ يَتعلَّقُ بالمعنى المُجرَّدِ .

أمَّا المُتعلِّقُ باللَّفظِ . . فهوَ ما عُرِفَتْ بهِ المعاني بالحِسِّ ، وأُرِيدَ أن تُعرَفَ الألفاظُ الموضوعةُ بالاصطلاحِ للدَّلالةِ عليها ، **وهوَ قسمانِ** :

أحدُهُما : عِلْمُ اللُّغاتِ .

والآخَرُ : لواحقُها ؛ كعِلْمِ الاشتقاقِ ، والإعرابِ ، والنَّحْوِ ، والتَّصريفِ ، وعِلْمِ العَروضِ والقوافي ، وقد ينتهي إلى العِلْمِ بمخارجِ الحروفِ وما يَتعلَّقُ بهِ .

وأمَّا المُتعلِّقُ بالمعنىٰ مِن حيثُ يُدَلُّ باللَّفظِ عليهِ . . فعِلْمُ الجدلِ ، والمُناظَرةِ ، والبرهانِ ، والخَطابةِ ؛ فإنَّ النَّاظرَ في هـٰذهِ العلومِ عالِمٌ باللُّغاتِ ومُوجَبِ الألفاظِ ، وعالِمٌ بالمعاني ، وطالبٌ لترتيبِ إيرادِها وكيفيَّةِ نظمِها علىٰ وجهٍ يُؤدِّي إلىٰ تحصيلِ العِلْمِ اليقينيِّ ؛ **فيكونُ برهاناً** ، أو إلىٰ إفحامِ الخصمِ ؛ **فيكونُ جدلاً** ، أو إلىٰ إقناعِ النَّفْسِ الَّتي لا تَقبلُ الاستقصاءَ والمُجادَلةَ ؛ **فيُسمَّىٰ : خطابةً ووعظاً** ، **وقد يُسمَّىٰ أيضاً : دليلاً** ؛ فإنَّها تدلُّ المُخاطَبينَ إلى المقاصدِ ، وتَسوقُهُم إلى اعتقاداتِهِمُ الَّتي فيها نجاتُهُم ، وعليهِ أكثرُ دلالاتِ الأخبارِ والقرآنِ المُستدَلِّ بها على الكُفَّارِ ، وهوَ أكثرُ أنواعِ الأدلَّةِ نفعاً ، وأعمُّها في حقِّ الجماهيرِ جدوىٰ .

فأمَّا البرهانُ الحقيقيُّ اليقينيُّ . . فلا يَستقِلُّ بفهمِهِ ودَرَكِهِ إلَّا أكابرُ العلماءِ والمُحقِّقونَ الَّذينَ لا تسمحُ الأعصارُ بآحادِهِم .

وأمَّا الجدلُ . . فأقلُّ الأقسامِ فائدةً في الإرشادِ ؛ إذِ المُحقِّقُ لا يَقنَعُ بما تُبنىٰ دلالتُهُ علىٰ تسليمِ الخصمِ وليسَ مُسلَّماً في نفسِهِ ، والعامِّيُّ لا يَفهمُهُ ، بل يَكِلُّ فهمُهُ عن دَرَكِهِ ، والمُشاغِبُ المُناظِرُ في أكثرِ الأمرِ إذا أُفحِمَ . . استمرَّ على اعتقادِهِ ، وأحالَ بالقصورِ علىٰ نفْسِهِ وقالَ : لو كانَ صاحبُ مذهبي حيّاً وحاضراً . . لَقَدَرَ على الانفصالِ عنهُ .

وأكثرُ ما ذكرَهُ المُتكلِّمونَ في مُناظَراتِهِم معَ الفِرَقِ . . **جدليَّاتٌ** ، وكذٰلكَ ما يجري في مُناظَراتِ الفقهِ ؛ ولذٰلكَ لا تَنكشِفُ مُناظَرةٌ عن تنبُّهِ مُتنبِّهٍ للرُّجوعِ عن مذهبِهِ إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا القسمُ الثَّالثُ المُتعلِّقُ بالمعنىٰ . . فضربانِ : **عِلْميٌّ مُجرَّدٌ** ، **وعمليٌّ** .

أمَّا العِلْميُّ . . فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةُ الملائكةِ والأنبياءِ ؛ أي : معرفةُ النُّبوَّةِ ومراتبِها ومراتبِ الملائكةِ ، وملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ ، وآياتِ الآفاقِ والأنفُسِ ، وما بُثَّ فيها مِن دابَّةٍ مِنَ الحيواناتِ ، ومعرفةُ الكواكبِ السَّماويَّةِ والآثارِ العُلويَّةِ .

ومعرفةُ أقسامِ الموجوداتِ كلِّها ، وكيفيَّةِ ترتيبِ البعضِ منها على البعضِ ، وكيفيَّةِ ارتباطِ البعضِ منها بالبعضِ ، وكيفيَّةِ ارتباطِها بالأوَّلِ الحقِّ المُقدَّسِ عنِ الارتباطِ بغيرِهِ .

ومعرفةُ القيامةِ ، والحشرِ والنَّشرِ ، والجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والميزانِ ، ومعرفةُ الجنِّ والشَّياطينِ .

ويُحقِّقُ أنَّ ما سبقَ إلى الأفهامِ العامِّيَّةِ مِن أوَّلِ هٰذهِ الألفاظِ ، حتَّىٰ تخيَّلوها في صفةِ اللهِ تعالىٰ ، وكونِهِ على العرشِ وفوقَ العالَمِ بالمكانِ ، وقبلَهُ بالزَّمانِ ، وما اعتقدوهُ في الملائكةِ والشَّياطينِ ، بل في أحوالِ الآخرةِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ . . هل هوَ كما اعتقدوهُ مِن غيرِ تفاوتٍ ، أو هيَ أمثلةٌ وخيالاتٌ ولها معانٍ سوى المفهومِ مِن ظاهرِها ؟

فتَحقُّقُ هٰذهِ الأُمورِ بالمَصْدوقةِ والحقيقةِ الصَّافيةِ عنِ الشَّكِّ ورجْمِ الظُّنونِ ، المُنفكَّةِ عنِ المِراءِ والتَّخمينِ . . **هيَ العلومُ النَّظريَّةُ المُجرَّدةُ عنِ العملِ .**

وأمَّا العمليُّ . . فهيَ الأحكامُ الشَّرعيَّةُ ، والعلومُ الفقهيَّةُ ، والسُّننُ النَّبويَّةُ ، وذٰلكَ معرفةُ سياسةِ النَّفْسِ معَ الأخلاقِ كما مضىٰ(١) ، ومعرفةُ تدبيرِ الأهلِ والولدِ ، والمَطعَمِ والمَلبَسِ ، وكيفيَّةِ المَعيشةِ في المُعامَلةِ ؛ وهٰذا هوَ عِلْمُ الفِقهِ ، ويَشتمِلُ عليهِ رُبعُ المُعامَلاتِ والنِّكاحِ والعقوباتِ .

ثمَّ إذا عرفَ أنواعَها . . فينبغي أن يَعرِفَ مراتبَها ؛ كي لا يُضيِّعَ العُمرَ إلَّا في المقصودِ ، أو فيما يَقرُبُ منهُ .

أمَّا المُشتغِلُ بالقسمِ الأوَّلِ المُتعلِّقِ باللَّفظِ . . فمُقتصِرٌ على

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٧١) وما بعدها .

القِشرِ المحضِ ، والقانعُ منهُ بالنَّحْوِ والإعرابِ والعَروضِ ومخارجِ الحروفِ . . فقانعٌ مِنَ القِشرةِ أيضاً بأوساخِها .

وأمَّا الخائضُ في تَعرُّفِ الطَّريقِ الَّذي بهِ يَتميَّزُ الدَّليلُ الحقيقيُّ اليقينيُّ عنِ الجدليِّ والإقناعيِّ . . فمُشتغِلٌ بأمرٍ مُهِمٍّ ، فإنِ اقتصرَ عليهِ . . فهوَ مُقتصِرٌ على الآلةِ والوسيلةِ ؛ كمَن يَقصِدُ الحجَّ فيشتري الجملَ ، ويُعِدُّ الزَّادَ والرَّاحلةَ ، ويَقعُدُ في بيتِهِ ؛ فذٰلكَ مُهِمٌّ وضروريٌّ لكونِهِ آلةً ضروريَّةً ، ولٰكنْ إذا لم يُستعمَلْ في المَقصِدِ . . فلا خيرَ في مُجرَّدِ السِّلاحِ إذا لم يُستعمَلْ في قتالٍ .

وأمَّا الخائضُ في العلومِ العمليَّةِ المُقتصِرُ عليها ؛ أعني : الفقهيَّاتِ وتحقيقَها وتفصيلَها . . فحالُهُ أقربُ مِن حالِ المُقتصِرِ على اللُّغاتِ ، فهوَ بالإضافةِ إليهِ عظيمُ القَدْرِ كما أنَّ العِلْمَ باللُّغاتِ أيضاً بالإضافةِ إلى العِلْمِ بالرَّقصِ والزَّمْرِ . . عظيمٌ ، ولٰكنْ إن أُضِيفَ إلىٰ جانبِ المقصودِ . . فهوَ في غايةِ البُعْدِ .

ولا يَتشكَّلُ ذٰلكَ إلَّا بمثالٍ : فإذا عَلَّقَ السَّيِّدُ عتقَ عبدِهِ علىٰ أن يَحُجَّ ، ووعدَهُ بعدَ ذٰلكَ بمالٍ يَنالُ بهِ الرِّئاسةَ . . **فلهُ ثلاثُ مَقاماتٍ في الوصولِ إلىٰ سعادةِ العتقِ وما بعدَهُ** :

الأوَّلُ : تهيئةُ الأسبابِ ؛ بشراءِ النَّاقةِ ، وخَرْزِ الرَّاويةِ [1] ، وإعدادِ الزَّادِ .

والثَّاني : السُّلوكُ بمُفارَقةِ الوطنِ ، والتَّوجُّهِ إلى المَقصِدِ مَنزِلاً بعدَ مَنزِلٍ .

---

(١) الراوية : المزادة ؛ أي : الوعاء الذي يُحمل فيه الماء .

والثَّالثُ : الاشتغالُ بالحجّ ركناً بعدَ ركنٍ ، ثمَّ العتقُ بعدَهُ ، معَ التَّعرُّضِ لاستحقاقِ المالِ المُوصِلِ إلى الرِّئاسةِ[1] .

ولهُ في كلِّ مَقامٍ منازلُ ؛ مِن أوَّلِ إعدادِ الأسبابِ إلىٰ آخِرِها ، ومِن أوَّلِ سلوكِ الطَّريقِ إلىٰ آخِرِهِ ، ومِن أوَّلِ أركانِ الحجّ إلىٰ آخِرِهِ ، وليسَ قُرْبُ مَنِ ابتدأَ بأركانِ الحجّ مِنَ السَّعادةِ . . كقُرْبِ مَنِ ابتدأَ بالاستعدادِ ، ولا كقُرْبِ مَنِ ابتدأَ بالسُّلوكِ .

فمثالُ الحجّ ممَّا نحنُ فيهِ : كمالُ النَّفْسِ بطهارةِ الأخلاقِ وقطعِ الرَّذائلِ كلِّها ، وكمالُها معَ ذٰلكَ بانكشافِ الحقائقِ لها .

ومثالُ المالِ المُوصِلِ إلى الرِّئاسةِ ها هنا : الموتُ الَّذي يَكشِفُ الحجابَ الحائلَ بينَهُ وبينَ مُشاهَدةِ رتبةِ نفْسِهِ وكمالِها وجمالِها ؛ ليرىٰ نفْسَهُ مِنَ الكمالِ في أعلىٰ عِلّيّينَ ، فيفرحَ بهِ ويُسَرَّ سروراً مُؤبَّداً .

ومثالُ سلوكِ منازلِ الطَّريقِ مَنزِلاً بعدَ مَنزِلٍ : سلوكُ مُهذِّبِ الأخلاقِ في مَحْوِ الأخلاقِ الرَّديَّةِ عن نفْسِهِ خُلُقاً بعدَ خُلُقٍ ، وطالبِ العلومِ النَّظريَّةِ الَّتي ذكرْناها دونَ سائرِ العلومِ عِلْماً بعدَ عِلْمٍ .

ومثالُ الاستعدادِ بخَرْزِ الرَّاويةِ وشراءِ الزَّادِ والنَّاقةِ : سائرُ العلومِ الخادمةِ للعلومِ النَّظريَّةِ ؛ مِنَ الفقهيَّاتِ واللُّغويَّاتِ .

فالمُتعلِّمُ للفقهِ كالخارزِ للرَّاويةِ ، والمُقتصِرُ عليهِ كالمُقتصِرِ على الرَّاويةِ ، والمُقتصِرُ على اللُّغةِ كالمُقتصِرِ علىٰ دِباغةِ الجلدِ الَّذي تُتَّخَذُ

---

(١) قوله : (الرئاسة) : كذا في (ج) ، وفي باقي النسخ : (السعادة) .

منهُ الرَّاويةُ مثلاً ؛ فإنَّ الحاجَّ لا يستغني عنِ الدَّبَّاغِ كما لا يستغني عنِ الخَرَّازِ ، ولٰكنَّ الخَرَّازَ أقربُ إلىٰ طرفِ المقصودِ مِنَ الدَّبَّاغِ .

ومُستغرِقُ أوقاتِهِ بمعرفةِ تحقيقاتِ الفقهِ علىٰ ما يَشتمِلُ عليهِ مِنَ الخلافيَّاتِ في هٰذا العصرِ ممَّا لم يُعهَدْ في عصرِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم . . كمُستغرِقِ أوقاتِهِ في إحكامِ الرَّاويةِ بتعديدِ سلوكِ الخيوطِ الَّتي يَخرِزُها بها ويُحسِّنُ بها الخرزَ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فهٰذا إن قلتَهُ عنِ اعتقادٍ . . فهوَ خلافُ إجماعِ الفقهاءِ ، وإن قلتَهُ حكايةً . . فمَنِ المُعتقِدُ لهٰذا المذهبِ ؟

فأقولُ : لستُ أقولُهُ إلَّا حكايةً عنِ المذهبِ الَّذي مدارُ أكثرِ هٰذا الكتابِ علىٰ وصفِهِ ؛ وهوَ مذهبُ **التَّصوُّفِ** ، وقدِ اتَّفقوا على المعنى الَّذي يُفهَمُ مِن هٰذا المثالِ وإن لم يكنْ هٰذا المثالُ بعينِهِ مِن جهتِهِم .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فهل ما قالوهُ حقٌّ أم لا ؟

فأقولُ : ليسَ هٰذا الكتابُ لبيانِ الحقِّ والباطلِ بالبرهانِ في هٰذهِ الأُمورِ ، بل هيَ وصايا تُنبِّهُ عنِ الغفلةِ ، وتُرشِدُ إلىٰ مواضعِ الطَّلبِ ؛ كي لا يَغفُلَ الإنسانُ عمَّا قالوهُ ، فإنَّ إمكانَهُ ليسَ بعيداً في أوَّلِ الأمرِ ، فلْيَبحثِ المُتعلِّمُ المُسترشِدُ عنهُ ليعرفَ سرَّهُ وغائلتَهُ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : إنّي وإن كنتُ لا أعتقدُ مذهبَ التَّصوُّفِ . . فلا تسمحُ نفْسي أيضاً بعدَ أنِ استغرقتُ عُمري في الفقهيّاتِ خلافاً ومذهباً أن أُحَطَّ عندَ الصُّوفيَّةِ إلىٰ هـٰذهِ الرُّتبةِ الخسيسةِ وأُرىٰ بهـٰذهِ العينِ ، فلِمَ قلتَ : إنَّ مذهبَهُم يُوجِبُ هـٰذا ؟

فاعلمْ : أنَّكَ [تتحقَّقُ السَّببَ] إن علمتَ تفاصيلَ ما سبقَ ؛ مِنِ ارتباطِ السَّعادةِ بمحوٍ وإثباتٍ عنِ النَّفْسِ ، وفيها : المحوُ لِمَا لا ينبغي أن يكونَ تزكيةً لها ، والإثباتُ لِمَا ينبغي أن يكونَ تكميلاً لها بكشفِ الحقائقِ فيها ، وذٰلكَ لا يَحصُلُ إلَّا بتهذيبِ الأخلاقِ ، والتَّفكُّرِ في آلاءِ اللهِ سبحانَهُ وملكوتِ السَّماواتِ حتَّىٰ تَنكشِفَ أسرارُها .

والفقهُ إنَّما يُحتاجُ إليهِ مِن حيثُ إنَّهُ مُحتاجٌ إلى البَدنِ ، والبَدنُ لا يبقىٰ إلَّا بعِلْمِ الأبدانِ ؛ وهوَ الطِّبُّ ، وعِلْمِ الأديانِ ؛ وهوَ الفقهُ ؛ إذِ الآدميُّ خُلِقَ بحيثُ لا يمكنُهُ أن يعيشَ وحدَهُ كالبهيمةِ الوحشيَّةِ ، بل يَفتقِرُ إلىٰ أن يكونَ بينَ جمعٍ مُتعاونينَ علىٰ أشغالٍ كثيرةٍ في تهيئةِ المطاعمِ والملابسِ وآلاتِهِما ، ولا بدَّ إذا كانَ لهُمُ اجتماعٌ مِن أن يكونَ بينَهُم عدلٌ وقانونٌ في المعاملةِ عليها يَتردَّدونَ ، ولولاهُ . . لتنازعوا وتقاتلوا وهلكوا مِن عندِ آخِرِهِم ؛ **فالفقهُ هوَ بيانُ ذٰلكَ القانونِ ، وتفصيلُهُ في رُبعِ النِّكاحِ والمُعامَلاتِ والعقوباتِ** .

فالبَدنُ في طريقِ السَّائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ يجري مَجرى النَّاقةِ والرَّاويةِ في طريقِ الحجِّ ، ومصالحُ البَدنِ كمصالحِ النَّاقةِ والرَّاويةِ ، والعِلْمُ المُتكفِّلُ بمصالحِ البَدنِ كالصِّناعةِ المُتكفِّلةِ بخَرْزِ الرَّاويةِ

وتقديرِها وتطهيرِها ، ورتبتُهُ مِن هٰذا المَقصِدِ كرتبتِها مِن ذٰلكَ المَقصِدِ إن صحَّ ما ذكروهُ في السُّلوكِ والاستعدادِ والمَقصِدِ ؛ فإنَّهُم يقولونَ : لولا إرادةُ اللهِ عمارةَ الدُّنيا . . لارتفعَتِ الحُجُبُ ، وزالَتِ الغفلةُ ، وتَوجَّهَ الخَلْقُ كلُّهُم إلىٰ سبيلِ اللهِ ، وتركَ كلُّ فريقٍ ما هوَ بعيدٌ عنِ المقصودِ ، ولٰكنْ كلُّ حزبٍ بما لديهِم فرحونَ ، وبهِ قِوامُ العالَمِ ، بل لولاهُ . . لَبَطَلَتِ الصِّناعاتُ .

فلو لم يَعتقِدِ الخيَّاطُ والحائكُ والحجَّامُ في صنعتِهِ ما يُوجِبُ ميلَهُ إليها . . لَتركَها ، وأقبلَ الكلُّ علىٰ أشرفِ الصَّنائعِ ، ولَبَطَلَ أشرفُ الصَّنائعِ ؛ فإنَّ هٰذهِ الصِّناعاتِ ضروريَّةٌ في تهيئةِ أسبابِ أربابِ الصَّنائعِ .

فمِن رحمةِ اللهِ تعالىٰ غفلتُهُم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، وعليهِ حملَ بعضُهُم قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ »[1] ؛ يعني : اختلافَ هممِهِم ، ولو عرفَ الكنَّاسُ ما في صناعتِهِ . . لَتركَها ، ولاضطُرَّ العلماءُ والخلفاءُ والأولياءُ أن يَتولَّوها بأنفُسِهِم ، وكذٰلكَ الدِّباغةُ والحِدادةُ والزِّراعةُ وجميعُ الأُمورِ .

فلولا أنَّ اللهَ تعالىٰ حَبَّبَ عِلْمَ اللُّغةِ ، والنَّحْوِ ، والحروفِ[2] ، والطِّبِّ ، والفقهِ في قلوبِ طوائفَ . . لبَقِيَتْ هٰذهِ العلومُ مُعطَّلةً ، ولتَشوَّشَ النِّظامُ الكلِّيُّ .

وليسَ مِن شرطِ المُتجرِّدِ لصناعةٍ أو عِلْمٍ أن يَطَّلعَ علىٰ قَدْرِ

---

(١) أخرجه البيهقي في « المدخل » (١٢٤٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بنحوه .
(٢) أي : علم مخارجها .

رتبتِهِ ونسبتِهِ إلىٰ مَن فوقَهُ ، بل إلىٰ مَن تحتَهُ ، **وإنَّما المُطَّلِعُ علىٰ جُمْلةِ مراتبِ العلومِ هوَ المُتكفِّلُ بالعلومِ كلِّها** ، وهوَ الَّذي آتاهُ اللهُ الحكمةَ ، وأراهُ الأشياءَ علىٰ ما هيَ عليهِ .

فهٰذا جوابُ هٰؤلاءِ ، وإليكَ الرَّأيُ بعدَ هٰذا في الاقتصارِ علىٰ ما أنتَ فيهِ ، أو سلوكِ طريقِ هٰؤلاءِ والبحثِ عن هٰذا الفنِّ ؛ لتَعرِفَ حقيقةَ الحقِّ فيهِ إن شاءَ اللهُ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ العاشرةُ للمُتعلِّمِ : أن يكونَ قصدُهُ في كلِّ ما يَتعلَّمُهُ في الحالِ كمالَ نفْسِهِ وفضيلتَها ، وفي الآخرةِ التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا يكونَ قصدُهُ الرِّئاسةَ والمالَ ، ومُباهاةَ السُّفهاءِ ومُماراةَ العلماءِ ؛ فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَعَلَّمَ ٱلْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ ٱلسُّفَهَاءَ ، وَيُمَارِيَ بِهِ ٱلْعُلَمَاءَ . . دَخَلَ ٱلنَّارَ »[1] .

وقد سبقَ : أنَّ العلومَ لها منازلُ في الوصولِ بها إلى اللهِ تعالىٰ[2] ، والقُوَّامَ بتلكَ العلومِ كحَفَظَةِ الثُّغورِ والرِّباطاتِ في طريقِ الجهادِ ، فإذا عرفَ كلٌّ واحدٍ رتبتَهُ ، ووفَّاهُ حَقَّهُ ، وقصدَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . لم يَضِعْ أجرُهُ ؛ فإنَّ اللهَ يرفعُهُ بقَدْرِ عِلْمِهِ في الدُّنيا والآخرةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

(٢) انظر ما تقدم قريباً (ص ١٩٠) .

ولا ينبغي أن يَفتُرَ رأيُكَ في العلومِ بما حكيْناهُ مِن طريقِ الصُّوفيَّةِ ؛ فإنَّهُم لا يَعتقِدونَ حَقارةَ العلومِ ، بل يَعتقِدونَ في كلِّ عِلْمٍ حرمتَهُ وعظمتَهُ ، وما ذكروهُ إنَّما أرادوهُ بالإضافةِ إلىٰ مرتبةِ الأولياءِ والأنبياءِ ، وذٰلكَ جارٍ مَجرى استحقارِكَ الصَّيارفةَ عندَ قياسِهِم بالسَّلاطينِ والوزراءِ ، وذٰلكَ لا يُوجِبُ نقيصتَهُم مهما قستَهُم بالكَنَّاسينَ والدَّبَّاغينَ .

ولا تَظُنَّنَّ أنَّ ما نزلَ عنِ المرتبةِ القصوىٰ فساقطُ القَدْرِ ؛ فإنَّ المرتبةَ القصوىٰ للأنبياءِ ، ثمَّ للأولياءِ ، ثمَّ للعلماءِ علىٰ تفاوتِ مراتبِهِم ، ثمَّ للصَّالحينَ في الأعمالِ .

وبالجملةِ : فمَن يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً . . يَرَهُ ، ومَن قصدَ التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بالعلومِ . . نفعَهُ اللهُ ورفعَهُ لا محالةَ .

فهٰذهِ هيَ الوظائفُ العشرةُ للمُتعلِّمِ .



وأمَّا وظائفُ المُعلِّمِ المُرشِدِ . . فهيَ ثمانٍ .

واعلمْ قبلَ كلِّ شيءٍ : أنَّ للإنسانِ في العِلْمِ أربعةَ أحوالٍ كما لهُ في اقتناءِ الأموالِ ؛ **إذ لصاحبِ المالِ** :

١ ـ حالُ استفادةٍ ، **فيكونُ مُكتسِباً** .

٢ ـ وحالُ ادِّخارٍ لِمَا اكتسبَهُ ، **فيكونُ بهِ غنيّاً عنِ السُّؤالِ** .

٣ ـ وحالُ إنفاقٍ علىٰ نفسِهِ ، **فيكونُ بهِ مُنتفِعاً** .

٤ ـ وحالُ إفادةِ غيرِهِ بالإنفاقِ ، فيكونُ بهِ سخيّاً مُتفضّلاً ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فكذٰلكَ العِلْمُ كالمالِ ، ولطالبِهِ :

١ ـ حالُ استفادةٍ .

٢ ـ وحالُ تحصيلٍ ، وهوَ فيهِ مُحصِّلٌ مُستغنٍ عنِ السُّؤالِ .

٣ ـ وحالُ استبصارٍ ، وهوَ تفكُّرُهُ في المُحصَّلِ .

٤ ـ وحالُ تبصيرٍ وتعليمٍ ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فمَن أصابَ عِلْماً فاستفادَ وأفادَ . . كانَ كالشَّمسِ تضيءُ لغيرِها وهيَ مُضيئةٌ ، والمِسكِ الَّذي يُطيِّبُ وهوَ طيبٌ .

ومَن أفادَ غيرَهُ ولم يَنتفعْ هوَ بهِ . . فهوَ كالدَّفترِ يفيدُ غيرَهُ العِلْمَ وهوَ خالٍ عنهُ ، والمِسَنِّ يَشحَذُ غيرَهُ ولا يَقطعُ ، وكذُبالةِ المِصباحِ تضيءُ لغيرِها وهيَ تَحترِقُ .

فأوَّلُ وظائفِ المُعلِّمِ : أن يُجرِيَ المُتعلِّمينَ منهُ مُجرىٰ بنيهِ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ ٱلْوَالِدِ لِوَلَدِهِ »[١] .

ولْيَعتقِدِ المُتعلِّمُ أنَّ حقَّ المُعلِّمِ أكبرُ مِن حقِّ الأبِ ؛ فإنَّهُ سببُ حياتِهِ الباقيةِ ، والأبَ سببُ حياتِهِ الفانيةِ ، هٰكذا قالَ الإسكندرُ لمَّا قيلَ لهُ : أمُعلِّمُكَ أكرمُ عليكَ أم أبوكَ ؟ فقالَ : (بل مُعلِّمي)[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/٣٨) ، وابن ماجه (٣٤١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص١٧٨) .

وكما أنَّ مِن حقِّ بني الأبِ الواحدِ أن يَتحابُّوا ولا يَتباغضوا . . فكذٰلكَ حقُّ بني المُعلِّمِ الواحدِ ، بل حقُّ بني الدِّينِ الواحدِ ؛ فإنَّ العلماءَ كلَّهُم مسافرونَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وسالكونَ إليهِ الطَّريقَ ، **والتَّرافقُ في الطَّريقِ يُوجِبُ تأكُّدَ المَودَّةِ ، فأُخوَّةُ الفضيلةِ فوقَ أُخوَّةِ الولادةِ .**

وإنَّما مَنشَأُ التَّباغضِ : إرادتُهُم بالعِلْمِ المالَ والرِّئاسةَ ، فيَخرُجونَ بهِ عن سلوكِ سبيلِ اللهِ ، ويَخرُجونَ عن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ويدخلونَ تحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .



الوظيفةُ الثَّانيةُ : أن يقتديَ بصاحبِ الشَّرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ، فلا يَطلُبَ على إفاضةِ العِلْمِ أجراً وجزاءً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ؛ فإنَّ مَن طلبَ المالَ وأعراضَ الدُّنيا بالعِلْمِ . . كانَ كمَن نَظَّفَ أسفلَ مَداسِهِ بوجهِهِ ومحاسنِهِ ، فجعلَ المخدومَ خادماً ، والخادمَ مخدوماً ؛ إذ خلقَ اللهُ تعالى الملابسَ والمطاعمَ خادماً للبَدنِ ، وخلقَ البَدنَ مَركَباً وخادماً للنَّفسِ ، وجعلَ النَّفْسَ خادماً للعِلْمِ ، فالعِلْمُ مخدومٌ وليسَ بخادمٍ ، والمالُ خادمٌ وليسَ بمخدومٍ ، ولا معنىٰ للضَّلالِ إلَّا عكسُ هٰذا الأمرِ .

والعَجَبُ : أنَّ الأمرَ قدِ انتهىٰ بحُكمِ تراجعِ الزَّمانِ وخُلُوِّ العصرِ عن علماءِ الدِّينِ . . أن صارَ المُتعلِّمُ يُقلِّدُ مُعلِّمَهُ مِنَّةً ؛ ليستفيدَ

منهُ ، ويجلسُ بينَ يدَيهِ ، ويطمعُ في أعراضٍ دنيويَّةٍ عوضاً عنِ استفادتِهِ ، وهٰذا غايةُ الانتكاسِ !!

ومَنشَأُ ذٰلكَ : طلبُ المُعلِّمينَ الرِّئاسةَ والتَّجمُّلَ بكثرةِ المُستفيدينَ ؛ لقصورِ عِلْمِهِم ، وعدمِ ابتهاجِهِم بكمالِ علومِهِمُ الذَّاتيَّةِ ، فأطمعَ ذٰلكَ المُستفيدينَ منهُم فيهِم .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثَّالثةُ : ألَّا يَدَّخِرَ شيئاً مِن نصحِ المُتعلِّمِ أو زجرِهِ عنِ الأخلاقِ الرَّديَّةِ بالتَّعريضِ والتَّصريحِ ، ومنعِهِ أن يَتشوَّفَ إلىٰ رتبةٍ فوقَ استحقاقِهِ ، وأن يَتصدَّىٰ للاشتغالِ فوقَ طاقتِهِ ، وأن يُنبِّهَهُ علىٰ غايةِ العلومِ ، وأنَّها هيَ السَّعادةُ الأُخرويَّةُ ، دونَ أعراضِ الدُّنيا .

فإن رأىٰ مَن لا يَتعلَّمُ إلَّا لأجلِ طلبِ الرِّئاسةِ ومُباهاةِ العلماءِ . . لم يَزجُرْهُ عنِ التَّعلُّمِ ؛ فاشتغالُهُ بالتَّعلُّمِ معَ هٰذا القصدِ خيرٌ مِنَ الإعراضِ عنهُ ، فإنَّهُ مهما اكتسبَ العِلْمَ . . تنبَّهَ بالأَخَرةِ لحقائقِ الأُمورِ ، وعَلِمَ أنَّ الطَّالبَ بالعِلْمِ عرَضَ الدُّنيا . . مغبونٌ ، وهوَ المَعنِيُّ بقولِهِم : (تَعلَّمْنا العِلْمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العِلْمُ أن يكونَ إلَّا للهِ) .

بل أقولُ : إن كانَ النَّاسُ لا يرغبونَ في تعلُّمِ العِلْمِ للهِ . . فينبغي أن يدعوَهُم إلىٰ نوعٍ مِنَ العِلْمِ تُستفادُ بهِ الرِّئاسةُ بالإطماعِ في الرِّئاسةِ ؛ حتَّىٰ يَستدرِجَهُم بعدَ ذٰلكَ إلى الحقِّ .

ولهٰذا أرى الرُّخصةَ في عِلْمِ المُناظَرةِ في الفقهيَّاتِ ؛ لأنَّها بواعثُ

على المُواظَبةِ لطلبِ المُباهاةِ أوّلاً ، ثمَّ الذَّكيُّ بالأَخرةِ يَتنبَّهُ لفسادِ قصدِهِ ، ويَعدِلُ عنهُ إلى المَنهجِ القويمِ .

ويجري هـٰذا المَجرىٰ : عجزُنا عن إرهاقِ الصَّبيِّ إلى التَّعلُّمِ بالإطماعِ في الرِّئاسةِ ؛ فإنَّا نُطمِعُهُ فيهِ بالصَّوْلَجانِ ، وشراءِ الطُّيورِ ، وأسبابِ اللَّعبِ ، ونُطلِقُ لهُ ذٰلكَ في بعضِ الأوقاتِ لتنبعثَ داعيتُهُ إلى التَّعلُّمِ ابتداءً ، ثمَّ نَصرِفُهُ عمَّا رغَّبْناهُ فيهِ آخِراً تدريجاً .

وقد جعلَ اللهُ تعالى الرِّئاسةَ في العِلْمِ حفظاً للشَّرعِ والعِلْمِ ، ويجري تحريضُ المُتعلِّمينَ على العِلْمِ بالإطماعِ في الرِّئاسةِ وحُسْنِ الذِّكرِ مَجرى الحَبِّ الَّذي يُنثَرُ حوالَي الفَخِّ ، والمِلْواحِ المُقيَّدِ على الشَّبكةِ [1] ، ومَجرىٰ شهوةِ الغذاءِ والنِّكاحِ الَّتي خلقَها اللهُ تعالىٰ داعيةً إلى الفعلِ الَّذي فيهِ بقاءُ الشَّخصِ والنَّسلِ .

ولولا هـٰذهِ المصلحةُ في المُناظَرةِ . . لَمَا كانَ يجوزُ أن يُسمَحَ فيها بحالٍ مِنَ الأحوالِ ؛ لأنَّها ليسَتْ تُفضي إلىٰ تغيُّرِ المذاهبِ وتركِ المُعتقَداتِ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الرَّابعةُ : أنَّهُ ينبغي أن ينهىٰ عمَّا يجبُ النَّهيُ عنهُ بالتَّعريضِ لا بالتَّصريحِ ؛ لأنَّ التَّعريضَ يُؤثِّرُ في الزَّجرِ ، والتَّصريحَ بالزَّجرِ ربَّما يُغْرِي بالمنهيِّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ نُهِيَ ٱلنَّاسُ

(١) المِلْواح : بومة يربطها الصائد ويُغمِّض عينيها ليصيد بها البُزاة والصقور .

عَنْ فَتِّ ٱلْبَعْرِ . . لَفَتُّوهُ ، وَقَالُوا : مَا نُهِينَا عَنْهُ إِلَّا وَفِيهِ شَيْءٌ »[1] .

ويُنبِّهُ علىٰ هٰذا قصَّةُ آدمَ عليهِ السَّلامُ وحوَّاءَ وما نُهِيَا عنهُ .

وقد قيلَ : (رُبَّ تعريضٍ أبلغُ مِن تصريحٍ) ؛ وذٰلكَ أنَّ النُّفوسَ الفاضلةَ لميلِها إلى الاستنباطِ والتَّنبُّهِ للخفيَّاتِ . . تميلُ إلى التَّعريضِ ؛ شغفاً باستخراجِ معناهُ بالفكرِ .

والتَّعريضُ لا يَهتِكُ حجابَ الهيبةِ ، والتَّصريحُ يَرفعُهُ بالكلِّيَّةِ ، فيستفيدُ المنهيُّ جراءةً على المُخالَفةِ إذا اضطُرَّ إلى المُخالَفةِ مَرَّةً واحدةً .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الخامسةُ : أنَّ المُتكفِّلَ ببعضِ العلومِ لا ينبغي لهُ أن يُقبِّحَ في نفْسِ المُتعلِّمِ غيرَ العِلْمِ الَّذي بينَ يدَيهِ ؛ كما جرَتْ عادةُ مُعلِّمي اللُّغةِ مِن تقبيحِ الفقهِ عندَ المُتعلِّمينَ وزجرِهِم عنهُ ، وعادةُ الفقهاءِ مِن تقبيحِ العلومِ العقليَّةِ والزَّجرِ عنها .

بل ينبغي أن يُنبِّهَ علىٰ قَدْرِ العِلْمِ الَّذي فوقَهُ ؛ ليشتغلَ بهِ عندَ استكمالِ ما هوَ بصددِهِ ، وإن كانَ مُتكفِّلاً بعِلْمَينِ مُترتِّبَينِ ؛ فإذا فرغَ مِن أحدِهِما . . رَقَّى المُتعلِّمَ إلى الثَّاني ، وراعىٰ فيهِ التَّدريجَ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السَّادسةُ : أن يَقتصِرَ بالمُتعلِّمينَ علىٰ قَدْرِ أفهامِهِم ،

---

(1) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ١٧٩) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١/٣٤١) .

فلا يُرقِّيَهِم إلى الدَّقيقِ مِنَ الجليّ ، وإلى التَّحقيقِ مِنَ الظَّاهِرِ هجوماً ومِن أوَّلِ رتبةٍ ، ولـكنْ علىٰ قَدْرِ الاستعدادِ ؛ اقتداءً بمُعلِّمِ البشرِ كافَّةً ومُرشِدِهِم حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّا ـ مَعَاشِرَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ـ أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ ٱلنَّاسَ مَنَازِلَهُمْ ، وَنُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْماً حَدِيثاً لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَىٰ بَعْضِهِمْ »[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وقد أومأَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ ها هنا علوماً جَمَّةً لو وجدتُ لها حَمَلَةً)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَلِّمُوا ٱلنَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ ؟! »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ .

وسُئِلَ بعضُ المُحقِّقينَ عن شيءٍ فأعرضَ ، فقالَ السَّائلُ : أَمَا سمعتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَتَمَ عِلْماً

---

(١) هما حديثان ؛ فقد أخرج أبو داوود (٤٨٠٩) عن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزلوا الناس منازلهم » ، وأخرج العقيلي في « الضعفاء » (١٥٣٤/٤) عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ مرسلاً : « إنا ـ معشر الأنبياء ـ أمرنا أن نكلِّم الناس علىٰ قدر عقولهم » .

(٢) أخرجه العقيلي في « الضعفاء » (٩٣٧/٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧٩/١ ـ ٨٠) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٣٧٦/٦) .

(٤) أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » (ق/٥٩) مخطوط من مكتبة جار الله برقم (٣٩٢) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

نَافِعاً . . جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » ؟![1] ، فقالَ : (اتركِ اللِّجامَ واذهبْ ، فإن جاءَ مَن يَفقَهُهُ وكتمتُهُ . . فلْيُلجِمْني بهِ) .

ولـمَّا قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ . . نبَّهَ علىٰ أنَّ حفظَ العِلْمِ وإمساكَهُ عمَّن يُفسِدُهُ العِلْمُ . . أَولىٰ .

ولـمَّا قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ . . نَبَّهَ علىٰ أنَّ مَن بلغَ رُشْدَهُ في العِلْمِ ينبغي أن تُبَثَّ إليهِ حقائقُ العلومِ ، ويُرَقَّىٰ مِنَ الجليِّ الظَّاهرِ إلى الدَّقيقِ الخفيِّ ، فليسَ الظُّلْمُ في منعِ المُستحِقِّ بأقلَّ مِنَ الظُّلْمِ في إعطاءِ غيرِ المُستحِقِّ ، وقالَ المُتقدِّمُ في مثلِ ذٰلكَ[2] : [من الطويل]

فَمَنْ مَنَحَ ٱلْجُهَّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ ٱلْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وادِّخارُ حقائقِ العلومِ عنِ المُستحِقِّ لها . . فاحشةٌ عظيمةٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ السَّابعةُ : أنَّ المُتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أن يَذكُرَ لهُ ما يَحتمِلُهُ فهمُهُ ، ولا يَذكُرَ لهُ أنَّ وراءَ ما ذَكَرَ لهُ تحقيقاً وتدقيقاً ادَّخرَهُ عنهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُفتِّرُ رأيَهُ في تلقُّفِ ما أُلقِيَ إليهِ ، بل يُخيِّلُ إليهِ أنَّهُ

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٥٠) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البيت للإمام الشافعي رضي الله عنه في « الديوان » (ص ١٢٩) ، وانظر « مناقب الشافعي » ، للبيهقي (٢/٧٢) .

كلُّ المقصودِ ، حتَّىٰ إذا استقلَّ بهِ . . رُقِّيَ إلىٰ غيرِهِ بالتَّدريجِ .

ومِن هـٰذا يُعلَمُ : أنَّ مَن تَقيَّدَ مِنَ العوامِّ بقيدِ الشَّرعِ ، واعتقدَ الظَّواهرَ ، وحَسُنَ حالُهُ في السِّيرةِ . . فلا ينبغي أن يُشوَّشَ عليهِ اعتقادُهُ ، ويُنبَّهَ علىٰ تأويلاتِ الظَّواهرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُؤدِّي إلىٰ أن يَنحَلَّ عنهُ قيدُ الشَّرعِ ، ثمَّ لا يُمكِنُ أن يُقيَّدَ بتحقيقِ الخواصِّ ، فيَرتفِعُ السَّدُّ الَّذي بينَهُ وبينَ الشُّرورِ ، فيَنقلِبُ شيطاناً وشرِّيراً .

بل ينبغي ألَّا يُرشَدَ إلَّا إلىٰ عِلْمِ العباداتِ الظَّاهرةِ ، والأمانةِ في الصِّناعةِ الَّتي هوَ بصددِها ، وأن تُملأَ نفْسُهُ مِنَ الرَّغبةِ والرَّهبةِ على الوجهِ الَّذي نطقَ بهِ القرآنُ ، وألَّا يُولَّدَ لهُ شبهةٌ ، فإن تولَّدَتْ لهُ شبهةٌ وتَشوَّفَتْ نفْسُهُ إلىٰ حَلِّها . . فيُعالجُ دفعَ شبهتِهِ بما يَقنَعُ بهِ مِن كلامٍ عامِّيٍّ وإن لم يكنْ علىٰ حقائقِ الأدلَّةِ .

ولا ينبغي أن يفتحَ لهُ بابَ البحثِ والطَّلبِ ؛ فإنَّهُ تَتعطَّلُ عليهِ الصِّناعةُ الَّتي بها تَعمُرُ الأرضُ ويَنتفِعُ الخَلْقُ ، ثمَّ يَقصُرُ عن دَرْكِ العلومِ .

فإن وجدَ ذكيّاً مُستعِدّاً لقَبولِ الحقائقِ العقليَّةِ . . جازَ أن يُساعدَهُ على التَّعلُّمِ إلىٰ أن تَنحَلَّ لهُ الشُّبهاتُ .

وقد حُكِيَ عن بعضِ الأُممِ السَّالفةِ : أنَّهُم كانوا يَختبِرونَ المُتعلِّمَ مُدَّةً في أخلاقِهِ ؛ **فإن وجدوا فيهِ خُلُقاً رديّاً** . . منعوهُ التَّعلُّمَ أشدَّ المنعِ ، وقالوا : إنَّهُ يَستعينُ بالعِلْمِ علىٰ مُقتضى الخُلُقِ الرَّديءِ ، فيصيرُ العِلْمُ آلةَ شرٍّ في حقِّهِ .

وإن وجدوهُ مُهذَّبَ الأخلاقِ . . قيَّدوهُ في دارِ العِلْمِ وعلَّموهُ ، وما أطلقوهُ قبلَ الاستكمالِ ؛ خيفةً مِن أن يَقتصِرَ على البعضِ ولا تَكمُلَ نفْسُهُ ، فيُفسِدَ بهِ دِينَهُ ودِينَ غيرِهِ .

وبهٰذا الاعتبارِ قيلَ : (نعوذُ باللهِ مِن نصفِ مُتكلِّمٍ ، ونصفِ طبيبٍ ؛ فذٰلكَ يُفسِدُ الدِّينَ ، وهٰذا يُفسِدُ الحياةَ في الدُّنيا) .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثَّامنةُ : أن يكونَ المُعلِّمُ للعِلْمِ العمليِّ ـ أعني : الشَّرعيَّاتِ ـ عاملاً بما يَعلَمُهُ ، فلا يُكذِّبُ مَقالَهُ بحالِهِ ، فيُنفِّرَ النَّاسَ عنِ الاسترشادِ والرُّشْدِ .

وذٰلكَ لأنَّ العملَ مُدرَكٌ بالبصرِ ، والعِلْمَ مُدرَكٌ بالبصيرةِ ، وأصحابُ الأبصارِ أكثرُ مِن أربابِ البصائرِ ، فلْتكنْ عنايتُهُ بتزكيةِ أعمالِهِ أكثرَ منهُ بتحسينِ عِلْمِهِ ونشرِهِ .

وكلُّ طبيبٍ يَتناولُ شيئاً ويَزجُرُ النَّاسَ عنهُ ويقولُ : (لا تَتناولوهُ ؛ فإنَّهُ سمٌّ) . . يُحمَلُ على الهُزْءِ والسَّفَهِ ، أو يُتَّهَمُ ويُعتقَدُ في ذٰلكَ الشَّيءِ أنَّهُ أنفعُ الأشياءِ ، وإنَّما هوَ الَّذي يريدُ أن يَستأثِرَ بهِ ، فيَنقلِبُ النَّهيُ إغراءً وتحريضاً .

والموعوظُ مِنَ الواعظِ يجري مَجرى الطِّينِ مِنَ النَّقْشِ ، والظِّلِّ مِنَ العُودِ ، وكيفَ يُنتقَشُ الطِّينُ بما لا نقْشَ فيهِ ؟! أو كيفَ يَستوي الظِّلُّ والعُودُ أعوجُ ؟!

ولذٰلكَ قيلَ [1] : [من الكامل]

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

بل قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

ولذٰلكَ قيلَ : وِزْرُ العالِمِ في معاصيهِ أكثرُ مِن وِزْرِ غيرِهِ ؛ لأَنَّهُ يُقتدىٰ بهِ ، فيَحمِلُ أوزاراً معَ أوزارِهِ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . . فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » [2] .

فعلىٰ كلِّ عاصٍ في معصيتِهِ وظيفةٌ واحدةٌ ؛ وهيَ تركُها ، فإن فعلَ . . فقد تركَ واجباً واحداً ، **وعلى العالِمِ تركُها وتركُ الإظهارِ** ؛ لئلَّا يَتبعَهُ النَّاسُ ، فإذا أظهرَ . . فقد تركَ واجبَينِ ، وإن أخفىٰ . . فقد تركَ أحدَ الواجبَينِ .

ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قَصَمَ ظهري رجلانِ : جاهلٌ مُتنسِّكٌ ، وعالِمٌ مُتهتِّكٌ ؛ فالجاهلُ يَغُرُّ النَّاسَ بنسكِهِ ، والعالِمُ يُنفِّرُهُم بتَهتُّكِهِ) [3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « الديوان » (ص ٤٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) عن سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ١٨٤) .

بيان تناول المال وما في اكتسابه من الوظائف

اعلمْ : أنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وأنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ ؛ ففيها الخيرُ النَّافعُ ، وفيها السُّمُّ النَّاقعُ .

ومثالُها مثالُ حيَّةٍ يأخذُها الرَّاقي ويستخرجُ منها التِّرياقَ ، ويأخذُها الغافلُ فيقتلُهُ سمُّها مِن حيثُ لا يدري .

ولذٰلكَ قيلَ : المالُ مِنَ الخيراتِ المُتوسِّطةِ ؛ فإنَّهُ ينفعُ مِن وجهٍ ، ويَضُرُّ مِن وجهٍ ، فلم يكنْ بدٌّ مِنَ الاقتصارِ على النَّافعِ منهُ ، والاحترازِ عنِ المُهلِكِ منهُ .

وأصلُ ذٰلكَ : معرفةُ رتبةِ المالِ مِنَ المقاصدِ ؛ فإنَّ أصلَ الأُمورِ كلِّها العِلْمُ بحقائقِ الأشياءِ .

فنقولُ : علىٰ طالبِ السَّعادةِ الأُخرويَّةِ وظائفُ في حقِّ المالِ ؛ مِن حيثُ جهةُ الدَّخْلِ ، وجهةُ الخَرْجِ ، وقَدْرُ المُتناوَلِ ، والنِّيَّةُ الواجبةُ في تناولِهِ .

الوظيفةُ الأُولىٰ : معرفةُ رتبتِهِ .

وقد سبقَ : أنَّ المُقتنَياتِ المرغوبَ فيها ثلاثةٌ : **نفسيَّةٌ** ، **ثمَّ بدنيَّةٌ** ، **ثمَّ خارجةٌ**[1] .

---

(١) انظر (ص ١٣٦) .

والخارجةُ أدناها رتبةً ، والمالُ مِن جملةِ الخارجةِ ، وأدناها الدَّراهمُ والدَّنانيرُ ؛ فإنَّهُما خادمانِ ولا خادمَ لهُما ؛ إذِ النَّفْسُ تَخدُمُ العلومَ والفضائلَ النَّفسيَّةَ لتُحصِّلَها ، والبَدنُ يَخدُمُ النَّفْسَ ، فيكونُ آلةً ومَركَباً لها ، والمطاعمُ والملابسُ تَخدُمُ البَدنَ ، والدَّراهمُ والدَّنانيرُ تَخدُمُ المطاعمَ والملابسَ .

وقد سبقَ : أنَّ المقصودَ مِنَ المطاعمِ : **إبقاءُ البَدنِ** ، ومِنَ المناكحِ : **إبقاءُ النَّسلِ** ، ومِنَ البَدنِ : **تكميلُ النَّفْسِ** (١) .

فمَن عرفَ هـٰذا التَّرتيبَ . . فقد عرفَ قَدْرَ المالِ ووجهَ رتبتِهِ ، وعرفَ وجهَ شرفِهِ مِن حيثُ هوَ ضرورةٌ في المطاعمِ والمناكحِ والملابسِ الَّتي هيَ ضرورةُ بقاءِ البَدنِ الَّذي هوَ ضرورةُ كمالِ النَّفْسِ .

ومَن عرفَ غايةَ شيءٍ واستعملَهُ لتلكَ الغايةِ . . فقد أحسنَ ، وعندَ ذٰلكَ يَقتصِرُ علىٰ قَدْرِ الحاجةِ المُوصِلةِ إلى الغايةِ ، ولا يَركَنُ إليهِ مُعتكِفاً بكُنْهِ هِمَّتِهِ عليهِ .

وبهـٰذا النَّظرِ تَنكشِفُ لهُ الشُّبهةُ في ذمِّ اللهِ تعالى المالَ في مواضعَ ؛ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، ومدحِهِ حيثُ امتنَّ بهِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ .

فإنَّهُ مِن حيثُ كونُهُ وسيلةً إلى الآخرةِ . . **محمودٌ** ، ومِن حيثُ كونُهُ صارفاً عنها . . مذمومٌ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) انظر (ص ٩١ ، ١٥٣ ، ١٥٧) .

« نِعْمَ ٱلْمَالُ ٱلصَّالِحُ لِلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ »[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

وكيفَ لا يكونُ خاسراً مَن يَجمَعُ الشَّعيرَ لدابَّتِهِ ، فيُضيِّعُ الدَّابَّةَ ، ويَشتغِلُ بتنقيةِ الشَّعيرِ وعدِّ حبَّاتِهِ وبناءِ حصنٍ حوالَيهِ حتَّىٰ تَهلِكَ الدَّابَّةُ جوعاً ؟!

وهٰذا مثالُ مَن صرفَتْهُ الدُّنيا عنِ الآخرةِ ، وهوَ الخُسرانُ المُبينُ .

بل مثالُ النَّاسِ كلِّهِم في الاغترارِ بزهرةِ الدُّنيا والاعتكافِ علىٰ لذَّاتِها . . مثالُ راكبي سفينةٍ مُتوجِّهينَ إلىٰ أفضلِ بلدةٍ يُنالُ فيها أعلىٰ رتبةٍ ، فأفضَتْ بهِمُ السَّفينةُ إلىٰ جزيرةٍ ذاتِ أُسودٍ وأَساوِدَ[2] ، فأُمِروا بالخروجِ تَهيُّؤاً للطَّهارةِ[3] ، وأن يكونوا علىٰ حَذَرٍ مِن غوائلِ الجزيرةِ .

فرأَوا حجراً مُزَبْرجاً وزَهراً مُنوَّراً ، فأعجبَهُم ذٰلكَ ، وشُغِفوا بهِ ، فتباعدوا عنِ المَركَبِ ، ونسُوا المَركَبَ والمقصودَ ، وبقُوا لاهينَ حتَّىٰ سارَتِ السَّفينةُ وجَنَّ عليهِمُ اللَّيلُ ، فثارَتْ عليهِمُ الأُسودُ تَفترِسُهُم ، والأَساودُ تَنهشُهُم ، ولم يُغْنِ عنهُم حَجَرُهُم وزَهرُهُم شيئاً ، فيقولُ واحدٌ : ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٢) عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ١٣٨) .

(٢) الأساود : جمع أَسْود ؛ وهو العظيم من الحيّات .

(٣) في هامش (ج) : (للراحة) ، وأُشير لها بصحيح .

ويقولُ الآخرُ : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

ويقولُ الآخرُ : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

ولم يبقَ بأيديهِم إلَّا حسرةٌ وندامةٌ لا آخِرَ لها ، ومُجاوَرةُ الأفاعي والأُسودِ ، معَ الخِزْيِ والنَّكالِ .

فهٰذا بعينِهِ مثالُ المُغترّينَ بمتاعِ الدُّنيا .

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ استعاذَ إبراهيمُ خليلُ اللهِ صلواتُ اللهِ عليهِ ، فقالَ : ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، وعنىٰ بها : هٰذينِ الحجرَينِ الذَّهبَ والفضَّةَ ؛ إذ رتبةُ النُّبوَّةِ أجلُّ مِن أن يُخشىٰ فيها أن تُعتقَدَ الإلٰهيَّةُ في شيءٍ مِنَ الحجارةِ .

ولهٰذا قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (يا حمراءُ ؛ غُرّي غيري ، ويا بيضاءُ ؛ غُرّي غيري)[1] .

ولذٰلكَ شَبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طُلَّابَ الدَّنانيرِ والدَّراهمِ المشغوفينَ بها . . بعَبَدةِ الحجارةِ ، فقالَ : « تَعِسَ عَبۡدُ ٱلدِّرۡهَمِ ، تَعِسَ عَبۡدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ وَلَا ٱنۡتَعَشَ ، وَإِذَا شِيكَ . . فَلَا ٱنۡتَقَشَ »[2] .



(١) أورده ابن قتيبة في « غريب الحديث » (١/٣٤٧) ، وأخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/٨٠ ـ ٨١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ، ومعنىٰ (**شِيك فلا انتقش**) : أصابته شوكة فلا خرجت بالمنقاش ، والمنقاش : ما يُخرَج به الشوكُ ، وفيه دعاء عليه بما يثبّطه عن السعي والحركة ؛ لأنه قصر عمله علىٰ جمع الدنيا والاشتغال بها .

الوظيفةُ الثَّانيةُ : في مُراعاةِ جهةِ الدَّخْلِ .

والدَّخْلُ : إمَّا بالاكتسابِ ، وإمَّا بالبَخْتِ[1] .

أمَّا البَخْتُ . . فميراثٌ ، أو وجودُ كنزٍ ، أو حصولُ عطيَّةٍ مِن غيرِ سؤالٍ .

والكسبُ : جهاتُهُ معلومةٌ ، ومَن أخذَ مِن حيثُ كانَ . . فهوَ مذمومٌ شرعاً ، فلا ينبغي أن يأخذَ إلَّا مِن وجهِهِ .

والوجوهُ الطَّيِّبةُ معلومةٌ مِنَ الشَّرعِ ؛ فإن وجدَ حلالاً طيِّباً . . فلْيأخذْهُ ، وإن كانَ حراماً محضاً . . فلْيجتنبْهُ ، وإن كانَ مُشتبِهاً والغالبُ أنَّهُ حرامٌ . . فلْيجتنبْهُ .

وإن كانَ الغالبُ أنَّهُ حلالٌ ؛ فإن قَدَرَ على الحلالِ المُطلَقِ مِن غيرِ تعبٍ . . فلْيتركِ المُشتبِهَ الغالبَ عليهِ الحلالُ ؛ فإنَّ مَن حامَ حولَ الحمىٰ . . يُوشِكُ أن يقعَ فيهِ ، وإن لم يَتيسَّرِ الحلالُ المُطلَقُ . . فلْيأخذْ منهُ قَدْرَ الحاجةِ .

فإن كانَ يَقدِرُ على الحلالِ المُطلَقِ ، ولٰكنْ بعدَ طُولِ التَّعبِ واستغراقِ الوقتِ بهِ ؛ فإن كانَ مِنَ العُبَّادِ العاملينَ بالجوارحِ معَ اعتقادٍ مُصمِّمٍ عامِّيٍّ . . فلْيشتغلْ بطلبِ الحلالِ ؛ فإنَّ تعبَهُ في طلبِ الحلالِ عبادةٌ كتعبِهِ في سائرِ العباداتِ .

وإن كانَ مِن أصحابِ القلوبِ وأربابِ العلومِ ، وكانَ يَتعطَّلُ عليهِ

(١) البَخْت : الحَظُّ .

ما هوَ بصددِهِ لوِ استغرقَ أوقاتَهُ في الحلالِ المُطلَقِ . . فلْيأخذْ مِنَ الَّذي يَتيسَّرُ قَدْرَ الحاجةِ ؛ فإنَّ المحظورَ المحضَ قد يَنقلِبُ مباحاً خوفاً مِن محظورٍ آخَرَ أشدَّ منهُ ؛ فمَن غَصَّ بلقمةٍ . . فلهُ أن يَتناولَ الخمرَ حذراً مِن فواتِ النَّفْسِ .

والعِلْمُ وعملُ القلبِ لا يوازيهِ غيرُهُ ، فالكلُّ خَدَمٌ لهُ ؛ فكما يُباحُ إتلافُ مالِ الغيرِ عندَ الخوفِ على النَّفْسِ ، بل يحلُّ تناولُ لحمِ الخنزيرِ . . فكذٰلكَ في محلِّ الشُّبهةِ يُتساهَلُ في التَّحريضِ على العِلْمِ .

وعندَ هٰذا قد يَثورُ شَغْبُ الجاهلِ مهما تناولَ العالِمُ ما زُجِرَ عنهُ الجاهلُ ؛ إذ لا يُدرِكُ الجاهلُ تفاوتَ هٰذهِ الدَّقيقةِ بينَهُما ، ولْيكنِ العالِمُ مُتلطِّفاً في ذٰلكَ ؛ كي لا يُحرِّكَ سلاسلَ الشَّيطانِ .



الوظيفةُ الثَّالثةُ : في المِقدارِ المأخوذِ .

ومهما عرفتَ أنَّ المالَ لماذا يُرادُ . . فمعيارُهُ مِقدارُ الحاجةِ المذكورةِ ، ولا غنىٰ بكَ عن مَلبَسٍ ومَسكَنٍ ومَطعَمٍ ، **وفي كلِّ واحدٍ منها ثلاثُ مراتبَ : أدنىٰ ، وأوسطُ ، وأعلىٰ .**

فأدنى المَسكَنِ : ما يُقِلُّكَ مِنَ الأرضِ ؛ مِن رباطٍ ، أو مَسجِدٍ ، أو وقفٍ كيفَما كانَ .

وأوسطُهُ : مُلْكٌ لا تُزاحَمُ فيهِ ، فتَقدِرُ علىٰ أن تخلوَ فيهِ بنفْسِكَ ،

ويبقىٰ معَكَ عُمرَكَ كلَّهُ ، وهوَ علىٰ أقلِّ الدَّرجاتِ مِن حُسنِ البناءِ وكثرةِ المرافقِ ، وهوَ حدُّ الكفايةِ .

وأعلاهُ : دارٌ فيحاءُ مُزيَّنةُ البناءِ ، كثيرةُ المرافقِ ، وتَتبعُها زياداتٌ لا تَنحصِرُ ، علىٰ ما ترىٰ عليهِ أربابَ الدُّنيا وأُولي المراتبِ .

والأوَّلُ : هوَ قَدْرُ الضَّرورةِ ؛ إذ مقصودُ المَسكَنِ أرضٌ تُقِلُّكَ يُحيطُ بها حائطٌ يَمنَعُ عنكَ السِّباعَ ، ويُظِلُّ عليهِ سقفٌ يَمنَعُ المطرَ وحرَّ الشَّمسِ ، ولن يقنعَ بهِ إلَّا المُتوكِّلونَ .

والأوسطُ : هوَ حدُّ الكفايةِ .

وما بعدَهُ : خارجٌ عن حدِّ الدِّينِ ، وإقبالٌ علىٰ أمرِ الدُّنيا ؛ أعني : الاشتغالَ بزينتِها ، فأمَّا الجلوسُ فيها معَ الغفلةِ عنها مِن غيرِ ابتهاجٍ بها وطمأنينةٍ إليها . . فمِنَ المباحاتِ ، وأمَّا صرفُ الأوقاتِ إلىٰ تزيينِها . . **فمباحٌ للعوامِّ علىٰ لسانِ الفقهِ** الَّذي قَصَرَهُ ضرورةُ جهلِ العوامِّ عن مُشافَهتِهِم بالمنعِ منهُ ، **وأمَّا في طريقِ التَّصوُّفِ . . فحرامٌ** .

وأعني بالتَّصوُّفِ : ما خُلِقَ الإنسانُ لهُ مِن سلوكِ سبيلِ القُربِ إلى اللهِ تعالىٰ .

والعباراتُ لا مُناقَشةَ فيها ؛ ولذٰلكَ قيلَ : (مباحاتُ الصُّوفيَّةِ فريضةٌ ، وفريضتُهُم مباحةٌ) أي : يَقتصِرونَ علىٰ قَدْرِ الضَّرورةِ مِنَ المباحِ ، وذٰلكَ فريضةٌ ، ويواظبونَ على الفرائضِ كما يواظبونَ علىٰ هٰذهِ المباحاتِ ، فهيَ عندَهُم كالمباحاتِ .

وأمَّا المَطعَمُ . . فهوَ الأصلُ العظيمُ ؛ إذِ المَعِدةُ مِفتاحُ الخيراتِ والشُّرورِ ، **ولها أيضاً ثلاثُ درجاتٍ** :

أدناها : قَدْرُ الضَّرورةِ ؛ وهوَ ما يَسُدُّ الرَّمَقَ ، وتبقىٰ معَهُ قُوَّةُ البَدنِ وقُوَّةُ العبادةِ ، وذٰلكَ يمكنُ تقليلُهُ بالعادةِ ؛ تارةً بتقليلِ الطَّعامِ شيئاً شيئاً حتَّىٰ يعودَ إلىٰ وزنِ درهمٍ ، وتارةً بحسَبِ الوقتِ بتأخيرِهِ شيئاً شيئاً حتَّىٰ يَتعوَّدَ الصَّبرَ عنهُ عشرةَ أيَّامٍ وعشرينَ يوماً .

وقدِ انتهىٰ بعضُ الزُّهَّادِ في القَدْرِ كلَّ يومٍ إلىٰ حِمِّصَةٍ ، وبعضُهُم في الوقتِ إلى الصَّبرِ عشرينَ يوماً ، وقيلَ : إلىٰ أربعينَ يوماً ، **وهٰذهِ رتبةٌ عظيمةٌ يَقِلُّ مَن يَستقِلُّ بها** .

فإن لم يَقدِرْ عليهِ . . **فالدَّرجةُ الوسطىٰ** ؛ وهيَ في ثُلثِ البطنِ كما ذكرْناهُ مِن قبلُ (١) ، ولا ينبغي أن يزيدَ على الحدِّ الَّذي قَدَّرَهُ الشَّرعُ ؛ فالزِّيادةُ عليهِ بِطْنَةٌ .

ثُمَّ يَقتصِرُ مِن نوعِهِ أيضاً على الوسطِ كما اقتصرَ مِن قَدْرِهِ على الوسطِ .

نعم ؛ السَّعيدُ مَن قَنِعَ بقَدْرِ الكفايةِ مِنَ الجملةِ ، ولٰكنَّ النَّظرَ يَختلِفُ في قَدْرِ الكفايةِ بالإضافةِ إلى الوقتِ ، فربَّ إنسانٍ هوَ فارغُ القلبِ مِن قُوتِ يومِهِ ، مشغولُ القلبِ بغدِهِ ، وينتهي حرصُهُ إلىٰ أن يُقدِّرَ لنفسِهِ عُمراً طويلاً ، ويريدُ أن يُفرِغَ قلبَهُ مِنَ القُوتِ طُولَ عُمرِهِ !!

---

(١) انظر ما تقدم (ص ١٥٥ ـ ١٥٦) .

ثـمَّ قد يُقدِّرُ لنفْسِهِ أيضاً حوائجَ ، فيطلبُ الاستظهارَ بالخزائنِ ؛ وهوَ الضَّلالُ المحضُ .

وفي المُدَّخَرِ بالإضافةِ إلى المُستقبَلِ ثلاثُ درجاتٍ :

أدناها : قُوتُ يومٍ وليلةٍ .

وأعلاها : ما يُجاوِزُ السَّنةَ .

وأوسطُها : قُوتُ سنةٍ .

وأرفعُ الدَّرجاتِ : درجةُ مَن لم يَلتفِتْ إلىٰ غدِهِ ، وقَصَرَ هِمَّتَهُ علىٰ يومِهِ ، ومِن يومِهِ علىٰ ساعتِهِ ، ومِن ساعتِهِ علىٰ نَفَسِهِ ، وقَدَّرَ نَفْسَهُ في كلِّ لحظةٍ مُرتحِلاً مِنَ الدُّنيا ، مُستعِدّاً للارتحالِ .

ومَن لم يَشتغِلْ بهٰذا ، وكانَ فارغَ القلبِ عن قُوتِ سنةٍ ، واشتغلَ بما وراءَهُ . . كانَ مِنَ المطرودينَ المذكورينَ بقولِهِ : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ .

وأمَّا المَلبَسُ . . فكذٰلكَ فيهِ ثلاثُ درجاتٍ :

فأدناها مِن حيثُ القَدْرُ : ما يَستُرُ العورةَ أوِ الجملةَ المُعتادَ سَترُها مِن أدنى الأنواعِ وأخشنِها ، **وبالإضافةِ إلى الوقتِ** : ممَّا يبقىٰ يوماً وليلةً ؛ كما نُقِلَ عن عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ رَقَعَ قميصَهُ بوَرَقِ شجرٍ ، فقيلَ لهُ : هٰذا لا يبقىٰ !! فقالَ : (أوَأحيا إلىٰ أن يَفنىٰ ؟!) .

وأوسطُهُ : ما يليقُ بمثلِ حالِهِ مِن غيرِ تَنعُّمٍ ولا تَرفُّهٍ ولا ملبوسٍ حرامٍ فيهِ إبريسمٌ غالبٌ .

وأعلاهُ : جمعُ الثِّيابِ ، وطلبُ التَّرفُّهِ بها علىٰ ما عليهِ جماهيرُ أهلِ الدُّنيا .

وأمَّا المَنكَحُ . . فإنَّهُ يزيدُ في حقِّ مَن تاقَتْ نفْسُهُ إلى الوِقاعِ ، وبحسَبِهِ تزيدُ الحاجةُ ، وقد ذكرْنا ما يُحمَدُ مِنَ النِّكاحِ وما يُذَمُّ ، وفيما قدَّمْناهُ مقنَعٌ (١) .

ومَن ساعدَهُ مِن هٰذهِ الأُمورِ قَدْرُ كفايتِهِ ، فشَغَلَ قلبَهُ بغيرِهِ . . كانَ مغبوناً ، بل ملعوناً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ ، مُعَافىً فِي بَدَنِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ . . فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » (٢) ؛ وذٰلكَ لأنَّ الدُّنيا بلاغٌ إلى الآخرةِ ، وهٰذا القَدْرُ كافٍ في البُلْغةِ ، فالباقي فضلٌ على الكفايةِ وزيادةٌ ، ووجودُها في حقِّ العاقلِ كعدمِها .



الوظيفةُ الرَّابعةُ : في الخَرْجِ والإنفاقِ .

وكما للدَّخْلِ وجهٌ مُعيَّنٌ . . فكذٰلكَ للخَرْجِ ، فلا بدَّ مِن مُراعاةِ التَّرتيبِ فيهِ ، فالإنفاقُ محمودٌ ومذمومٌ كالأخذِ .

والمحمودُ : منهُ ما يُكسِبُ صاحبَهُ العدالةَ ؛ وهوَ الصَّدقةُ المفروضةُ ، والإنفاقُ على العيالِ ، ومنهُ ما يُكسِبُ الحرِّيَّةَ والفضيلةَ ؛

---

(١) انظر ما تقدم (ص١٥٧ ـ ١٥٩) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤٣٠٢) عن سيدنا عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه .

وهوَ إيثارُ الغيرِ على النَّفْسِ على الوجهِ المندوبِ إليهِ شرعاً .

والمذمومُ ضربانِ : إفراطٌ ، وتفريطٌ .

فالإفراطُ : هوَ الإنفاقُ أكثرَ ممَّا يجبُ بحيثُ لا تَحتمِلُهُ حالُهُ فيما لا يجبُ ، أوِ الإخلالُ بالأهمِّ والصَّرفُ إلىٰ ما دونَهُ .

والتَّفريطُ : هوَ المنعُ عمَّا يجبُ الصَّرفُ إليهِ ، أوِ النُّقصانُ مِنَ القَدْرِ الَّذي يليقُ بالحالِ .

ومهما أخذَ العبدُ المالَ مِن وجهِهِ ، ووضعَهُ في وجهِهِ . . كانَ مأجوراً ومحموداً .

❀ ❀ ❀

فإن قلتَ : فمَن وَسَّعَ اللهُ تعالىٰ عليهِ المالَ . . فأخذُهُ وإنفاقُهُ في المعروفِ أَولىٰ ، أوِ الإعراضُ عن أخذِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ النَّاسَ قدِ اختلفوا في هٰذا ، فقالوا : **النَّاسُ ثلاثةُ أصنافٍ** :

صِنفٌ : هُمُ المُنهمِكونَ في الدُّنيا بلا التفاتٍ إلى العُقبىٰ إلَّا باللِّسانِ وحديثِ النَّفْسِ ؛ وهُمُ الأكثرونَ ، وقد سُمُّوا في كتابِ اللهِ تعالىٰ : (عَبَدَةَ الطَّاغوتِ)[1] ، و(شرَّ الدَّوابِّ)[2] ، ونحوَها .

---

(١) وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

(٢) وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

وصِنفٌ : مُخالِفونَ لهُم غايةَ المُخالَفةِ ، أقبلوا بكُنْهِ هممِهِم على العُقبىٰ ، ولم يَلتفِتوا أصلاً إلى الدُّنيا ؛ وهُمُ النُّسَّاكُ .

وصِنفٌ ثالثٌ : مُتوسِّطونَ ، وَفَّوُا الدَّارَينِ حقَّهُما ؛ وهُمُ الأفضلونَ على التَّحقيقِ عندَ المُحقِّقينَ ؛ لأنَّ بهِم قِوامَ أسبابِ الدُّنيا والآخرةِ ، ومنهُم عامَّةُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِم ؛ إذ بعثَهُمُ اللهُ تعالىٰ لإقامةِ مصالحِ العبادِ في المَعاشِ والمَعادِ .

وقيلَ : ثلاثتُهُمُ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ ﴾ ، فالمُراعي للدِّينِ والدُّنيا كما يجبُ وعلىٰ ما يجبُ جامعاً بينَهُما . . خليفةُ اللهِ تعالىٰ في أرضِهِ ، فهوَ السَّابقُ عندَ قومٍ .

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ .

فاعلمْ : أنَّ مُراعاةَ مصالحِ العبادِ مِن جملةِ العبادةِ ، بل هيَ مِن أعظمِ العباداتِ [١] ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ ٱللهِ ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى ٱللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » [٢] .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (أ ، و) : (بل هي أعظمُ العبادات) .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٨٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فإن قلتَ : فقد قالَ بعضُ المُحقِّقينَ : **النَّاسُ ثلاثةٌ** :

١ ـ رجلٌ شغلَهُ مَعادُهُ عن مَعاشِهِ ؛ فهوَ مِنَ الفائزينَ .

٢ ـ ورجلٌ شغلَهُ مَعاشُهُ عن مَعادِهِ ؛ فهوَ مِنَ الهالكينَ .

٣ ـ ورجلٌ مُشتغِلٌ بهِما ؛ وذٰلكَ درجةُ المُخاطِرينَ .

والفائزُ أحسنُ حالاً مِنَ المُخاطِرِ .

فاعلمْ : أنَّ فيهِ سرّاً ؛ وهوَ أنَّ المَنازلَ الرَّفيعةَ لا تُنالُ إلَّا باقتحامِ الأخطارِ ، وإنَّما هٰذا الكلامُ ذُكِرَ تحذيراً وتنبيهاً علىٰ خطرِ الخلافةِ للهِ تعالىٰ في أمرِ عبادِهِ ؛ حتَّىٰ لا يَترشَّحَ لها مَن لا يَقدِرُ عليها .

وقد حُكِيَ : أنَّ بعضَ أولادِ الملوكِ العادلةِ عَظُمَتْ رتبتُهُ في العِلْمِ والحكمةِ ، فاعتزلَ النَّاسَ ، وزهدَ في الدُّنيا ، فكتبَ إليهِ بعضُ الملوكِ : قدِ اعتزلتَ ما نحنُ فيهِ ؛ فإن علمتَ أنَّ ما اخترتَهُ أفضلُ . . فعرِّفْنا لنذرَ ما نحنُ فيهِ ، ولا تَحسَبْني أَقبلُ منكَ قولاً بلا حُجَّةٍ .

فكتبَ إليهِ : **اعلمْ** : أنَّا عبيدٌ لمَلِكٍ رحيمٍ ، بعثَنا إلىٰ حربِ عدوٍّ ، وعرَّفَنا أنَّ المَقصِدَ مِن ذٰلكَ قهرُهُ أوِ السَّلامةُ منهُ ، فلمَّا قرُبْنا مِنَ الزَّحفِ . . **صرْنا ثلاثةَ أقسامٍ** :

١ ـ مُنحرِفٌ طلبَ السَّلامةَ منهُ فاعتزلَ عنهُ ، فاكتسبَ تركَ المَلامةِ وإن لم يكتسبِ المَحمدةَ .

٢ ـ ومُتهوِّرٌ أقدمَ علىٰ غيرِ بصيرةٍ ، فجرحَهُ العدوُّ وقهرَهُ ، فاستجلبَ بذٰلكَ سخطَ ربِّهِ .

٣ ـ وشجاعٌ أقدمَ علىٰ بصيرةٍ ، فقاتلَ وأبلىٰ واجتهدَ ، فهوَ الفائزُ التَّامُّ الفوزِ .

وأنا لمَّا وجدتُني ضعيفاً . . رضيتُ بأدنى الهِمَّتَينِ وأدونِ المَنزلتَينِ .

فكنْ ـ أيُّها المَلِكُ ـ مِن أفضلِ الطَّوائفِ . . تكنْ مِن أكرمِهِم عندَ اللهِ تعالىٰ .

وهٰذا الكلامُ يَكشِفُ لكَ عن حقيقةِ الأمرِ فيهِ ، ويُنبِّهُ علىٰ صحَّةِ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٨/٧٧﴾ ﴾ .

وإنَّما يمكنُ الإحسانُ وإدخالُ السُّرورِ علىٰ قلوبِ المسلمينَ بالمالِ ، ولٰكنَّ الخطرَ فيهِ عظيمٌ ؛ فإنَّهُ ربَّما يَشغَلُ مَن ضَعُفَتْ بصيرتُهُ في الدِّينِ مِن حيثُ لا يدري ، فلِخَطَرِهِ وجبَتِ المُبالَغةُ في الزَّجرِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الخامسةُ : أن تكونَ نيَّتُهُ صالحةً في الأخذِ والتَّركِ .

فيأخذُ ما يأخذُ ليستعينَ بهِ على العبادةِ ، ويأكلُ ليتقوَّىٰ بهِ على العبادةِ ، ويتركُ ما يتركُ زهداً فيهِ واستحقاراً لهُ ؛ فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طَلَبَ رِزْقَهُ عَلَىٰ مَا سُنَّ . . فَهُوَ فِي جِهَادٍ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي مسعودٍ : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لَيُؤْجَرُ فِي

---

(١) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٢٧٩) .

كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى ٱللُّقْمَةِ يَضَعُهَا فِي فِي ٱمْرَأَتِهِ »[1] ، **وأرادَ بالمُؤمِنِ** : مَن يَعرِفُ حقائقَ الأُمورِ ، فيقصدُ بما يَتعاطاهُ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، والاستعانةَ بهِ علىٰ سلوكِ طريقِهِ .

وعندَ هٰذا يَتبيَّنُ : أنَّهُ ليسَ الزَّاهدُ مَن لا مالَ لهُ ، بلِ الزَّاهدُ مَن ليسَ مشغولاً بالمالِ وإن كانَ لهُ أموالُ العالَمينَ ؛ ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لو أنَّ رجلاً أخذَ جميعَ ما في الأرضِ وأرادَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ زاهدٌ ، ولو أنَّهُ تركَ الجميعَ ولم يُرِدْ بتركِهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فليسَ بزاهدٍ)[2] .

فلْتكنْ جميعُ حركاتِكَ وسكناتِكَ للهِ تعالىٰ ؛ بأن تكونَ حركتُكَ مقصورةً علىٰ عبادةٍ ، أو علىٰ ما يُعينُ على العبادةِ ولا تستغني العبادةُ عنهُ ؛ كالأكلِ وقضاءِ الحاجةِ مثلاً ؛ فإنَّهُما مُعينانِ على العبادةِ ، وهُما أبعدُ الحركاتِ عنِ العبادةِ .

وعندَ هٰذا يكونُ الكاملُ النَّفْسِ في تناولِ الدُّنيا كالرَّاقي الحاذقِ في مَسِّ الحيَّةِ مُتَّقِياً سُمَّها ، ومُستخرِجاً جوهرَها .

والعامِّيُّ إذا تَشبَّهَ بهِ ونظرَ إليهِ . . ظنَّ أنَّهُ أخذَها مُستحسِناً شكلَها ، مُستلِيناً صورتَها ومَسَّها ، مُستصلِحاً إيَّاها ، فإذا ظنَّ ذٰلكَ . . أخذَها وتَقلَّدَها فقتلَتْهُ .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣٦) ، ومسلم (١٦٢٨) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بنحوه .

(٢) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

وقد شُبِّهَتِ الدُّنيا بها فقيلَ [1] : [من الخفيف]

هِيَ دُنْيَا كَحَيَّةٍ تَنْفُثُ ٱلسُّمَّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَجَسَّةُ لَانَتْ

وكما يَستحيلُ أن يَتشبَّهَ الأعمىٰ بالبصيرِ في تخطِّي قُلَلِ الجبالِ وأطرافِ البحارِ والطُّرُقِ المَشُوكَةِ . . فمُحالٌ أن يَتشبَّهَ العامِّيُّ بالكاملِ في تناولِ الدُّنيا .

وإذا تأمَّلَ مُلْكَ سليمانَ وما أُوتِيَ معَ رتبةِ النُّبوَّةِ . . علمَ أنَّ الزُّهدَ زهدُ النَّفْسِ لا خلوُّ اليدِ .

وكيفَ تَضُرُّ الدُّنيا بالأنبياءِ والأولياءِ وهُم يَعرِفونَ نفعَها وضرَّها ورتبتَها في الوجودِ ، **ويعلمونَ أنَّ للإنسانِ في وجودِهِ ثلاثَ منازلَ** : مَنزِلةٌ في بطنِ أُمِّهِ ، ومَنزِلةٌ في فضاءِ العالَمِ ، ومَنزِلةٌ بعدَ الموتِ ؟!

والدُّنيا في مثالِ رباطٍ بُنِيَ وينتهي إليهِ المُسافِرُ في المَنزِلِ الأوسطِ ، وقد هُيِّئَتْ فيهِ أسبابٌ وأوانٍ وأقواتٌ ليستعينَ بها المُسافِرُ ، ويَنتفِعَ بها انتفاعَهُ بالعاريَّةِ والمِنْحَةِ ، ويُخلِيَها لِمَن يَلتحِقُ بعدَهُ ، فيأخذَها بشكرٍ ، ويتركَها بانشراحِ صدرٍ .

وقدِ انتهىٰ إلى الرِّباطِ جماعةٌ مِنَ الحمقىٰ ، فظنُّوا أنَّ هٰذا المَنزِلَ وطنٌ ، وأنَّ هٰذهِ الأسبابَ ليسَتْ عاريَّةً ، وإنَّما هيَ موهوبةٌ مُؤبَّدةٌ ، فصاروا لا يُخرِجونَها عن أيديهِم إلَّا بكسرِ اليدِ ونزعِ الرُّوحِ .

وقيلَ : إنَّ مَثَلَ النَّاسِ فيما أُعطُوا مِنَ الدُّنيا كمَثَلِ رجلٍ هَيَّأَ داراً ،

---

(١) البيت لأبي العتاهية في « الديوان » (ص ٧٥) .

وهوَ يدعو أقواماً إلىٰ دارِهِ على التَّرتيبِ واحداً بعدَ واحدٍ ، فدخلَ واحدٌ دارَهُ ، فقَدَّمَ إليهِ طبقَ ذهبٍ عليهِ بَخُورٌ ورياحينُ ليَشَمَّهُ ويتركَهُ لمَن يَلحقُهُ لا ليتملَّكَهُ ، فجهلَ رسمَهُ ، فظنَّ أنَّهُ قد وُهِبَ لهُ ، فلمَّا استُرجِعَ منهُ . . ضَجِرَ وتَفجَّعَ ، ومَن كانَ عالِماً برسمِهِ . . انتفعَ بهِ وشكرَهُ ، وردَّهُ بانشراحِ صدرٍ .

فهٰذهِ وظائفُ المُباشِرِ لأموالِ الدُّنيا .

* * *

بيان الطّريق في نفي الغمّ في الدّنيا

مهما كانَ الإنسانُ في الحالِ آمناً في سِرْبِهِ ، مُعافىً في بَدنِهِ ، ولهُ قُوتُ يومِهِ . . فحزنُهُ وغمُّهُ بسببِ أمرٍ في الدُّنيا أمارةُ نقصانِهِ وحماقتِهِ ؛ **فإنَّ غَمَّهُ ليسَ يخلو :**

إمَّا أن يكونَ تأسُّفاً علىٰ ماضٍ .

أو خوفاً مِن مُستقبَلٍ .

أو تَحزُّناً علىٰ سببٍ حاضرٍ في الحالِ .

❀ ❀ ❀

فإن كانَ علىٰ فائتٍ . . فالعاقلُ بصيرٌ بأنَّ الجَزَعَ علىٰ ما كانَ لا يَلُمُّ ما تَشعَّثَ ، ولا يُبرِمُ ما انتكثَ ، وما لا حيلةَ لهُ . . فالغمُّ عليهِ خُرْقٌ ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ .

وقالَ الشَّاعرُ (١) : [من الطويل]

. . . . وَهَلْ جَزَعٌ مُجْدٍ عَلَيَّ فَأَجْزَعَا

❀ ❀ ❀

(١) البيت لأبي يعقوب الخريمي في « تاريخ دمشق » (١٦/٣٣٧) ، وهو بتمامه :

صبرتُ وكانَ الصبرُ خيرَ مغبَّةٍ ... وهلْ جزعٌ مُجْدٍ علي فأجزعُ

برفع (فأجزعُ) متابعة لروي القصيدة .

وإن كانَ علىٰ حاضرٍ :

فإمَّا أن يكونَ حسداً لوصولِ نعمةٍ إلىٰ مَن يَعرِفُهُ .

أو يكونَ حزناً للفقرِ وفقدانِ المالِ والجاهِ وأسبابِ الدُّنيا .

وسببُ هـٰذا : الجهلُ بغوائلِ الدُّنيا وسمومِها ، ولو عرفَها حقَّ معرفتِها . . لشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كونِهِ مِنَ المُخِفِّينَ دونَ المُثقِلينَ (١) .

كما قيلَ (٢) : [من السريع]

لَوْ فَكَّرَ ٱلْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَىٰ حُسْنِ ٱلَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

إذ يَعلَمُ أنَّ الدُّنيا جَمَّةُ المصائبِ ، رَنْقَةُ المشاربِ (٣) ، تُورِثُ للبريَّةِ أنواعَ البليَّةِ ، معَ كلِّ لقمةٍ غصَّةٌ ، فما أحدٌ فيها إلَّا وهوَ في كلِّ حالٍ غَرَضٌ لأسهمٍ ثلاثةٍ : سهمُ بليَّةٍ ، وسهمُ رزيَّةٍ ، وسهمُ منيَّةٍ .

كما قيلَ (٤) : [من الطويل]

تُنَاضِلُهُ ٱلْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَتُخْطِئُهُ طَوْراً وَطَوْراً تُصِيبُهُ

فمَن كانَ مُعتبِراً بما يَتجدَّدُ كلَّ يومٍ ؛ مِنِ ارتجاعِ النِّعمِ مِن أربابِها ، وحلولِ القوارعِ بأصحابِها ، وشدَّةِ اهتمامِهِم بفقدِها . . لم يَتأسَّفْ علىٰ فواتِها .

---

(١) المُخِفُّ : قليل المال خفيف الحال .

(٢) البيت للمتنبي في « الديوان » (ص ٤١٧) .

(٣) الرَّنْقة : المكدَّرة ، يقال : رَنِقَ الماءُ : إذا كدر .

(٤) البيت من غير نسبة في « محاضرات الأدباء » (٤/٦٩) .

ولذٰلكَ قيلَ لبعضِهِم : لِمَ لا تَغتمُّ ؟ فقالَ : (لأنّي لا أقتني ما يَغُمُّني فقدُهُ) .

ومهما أمعنَ الإنسانُ فِكْرَهُ في غفلةِ أربابِ الدُّنيا عنِ الآخرةِ ، وكثرةِ مصائبِهِم فيها . . تَسلَّىٰ عنها ، وهانَ عليهِ تركُها .

وكانَ بعضُ الصُّوفيَّةِ وَظَّفَ علىٰ نفْسِهِ كلَّ يومٍ أن يَحضُرَ دارَ المرضىٰ ، فيشاهدَهُم ويشاهدَ عِلَلَهُم ومِحَنَهُم ، **ويَحضُرَ حبسَ السُّلطانِ** ، ويشاهدَ أربابَ الجناياتِ ومِحَنَهُم في التَّعرُّضِ لإقامةِ العقوباتِ ، **ويَحضُرَ المقابرَ** ، فيشاهدَ أصحابَ العَزاءِ وتأسُّفَهُم علىٰ ما لا يَنفَعُ معَ اشتغالِ الموتىٰ بما هُم فيهِ ، وكانَ يعودُ إلىٰ بيتِهِ ويَشتغِلُ بالشُّكرِ طُولَ النَّهارِ علىٰ نِعَمِ اللهِ عليهِ في تخليصِهِ مِن كلِّ تلكَ البلايا .

وحقُّ الإنسانِ في الدُّنيا أن ينظرَ أبداً إلىٰ مَن هوَ دونَهُ ليشكرَ ، وفي الدِّينِ إلىٰ مَن هوَ فوقَهُ ليُشَمِّرَ .

والشَّيطانُ إذا استولىٰ . . نَكَسَ هٰذا النَّظرَ وعَكَسَهُ .

فإذا قيلَ لهُ : لِمَ تتعاطىٰ هٰذا الفعلَ القبيحَ ؟ . . اعتذرَ بأنَّ فلاناً يَتعاطىٰ ما هوَ أكبرُ منهُ .

فإذا قيلَ لهُ : لِمَ لا تَقنَعُ بهٰذا الموجودِ ؟ . . فيقولُ : فلانٌ أغنىٰ منِّي ، فلِمَ أصبرُ عمَّا ليسَ يَصبِرُ عنهُ ؟!

وهٰذا عينُ الضَّلالِ .

ومهما انتفى الغمُّ بهٰذا الطَّريقِ . . بطَلَ غمُّ الحسدِ ، فمَن أنعمَ اللهُ عليهِ بنعمةٍ ؛ فإن كانَ يَستحِقُّها . . لم يَغتمَّ بهِ ، وإن كانَ لا يَستحِقُّها . . فوَبالُها عليهِ أكثرُ مِن نفعِها .

❀ ❀ ❀

وأمَّا إن كانَ الغمُّ لأمرٍ في المُستقبَلِ :

فإن كانَ علىٰ أمرٍ مُمتنِعٍ كونُهُ ، أو واجبٍ كونُهُ مثلَ الموتِ . . فهوَ مُحالٌ .

وإن كانَ مُمكِناً كونُهُ . . نُظِرَ :

فإن كانَ لا يَقبلُ الدَّفعَ ؛ كالموتِ قبلَ الهَرَمِ . . فالحزنُ لهُ حماقةٌ .

وإن كانَ قابلاً للدَّفعِ . . فلا معنىٰ للغمِّ ، بل ينبغي أن يَحتالَ للدَّفعِ بعقلٍ غيرِ مَشوبٍ بحزنٍ ، فإذا فعلَ ما قَدرَ عليهِ مِن تمهيدِ حِيَلِ الدَّفعِ . . بقيَ ساكنَ القلبِ ، مُنتظِراً لقضاءِ اللهِ تعالىٰ وقَدَرِهِ ، عالِماً بأنَّهُ لا مَرَدَّ لِمَا قضاهُ ، فيَتلقَّاهُ بصبرٍ إن لم يندفعْ ، ويَتحقَّقُ أنَّ ما قُدِّرَ فهوَ كائنٌ ، ويَتذكَّرُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ . . . ﴾ الآيةَ .

وإنَّما حرصُ النَّاسِ علىٰ تهيئةِ أسبابِ الدُّنيا . . مَنشؤُهُ : الغُرورُ ، وحُسنُ الظَّنِّ بانحسارِ الآفاتِ ، وتقديرُ صفاءِ الأوقاتِ ، وهيهاتَ ثمَّ هيهاتَ !!

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما قالَ النَّاسُ لقومٍ : طُوبىٰ لكُم إلَّا وقد خبأَ لهُمُ الدَّهرُ يومَ سوءٍ)[1] .

وصدقَ الشَّاعرُ في قولِهِ[2] : [من البسيط]

إِنَّ ٱللَّيَالِيَ لَمْ تُحْسِنْ إِلَىٰ أَحَدٍ ... إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

وما قَصَّرَ أبو منصورٍ الثَّعالبيُّ في وصفِ الدُّنيا حيثُ قالَ[3] : [من الطويل]

تَسَلَّ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تَخْطُبَنَّهَا ... وَلَا تَخْطُبَنْ قَتَّالَةً مَنْ تُنَاكِحُ

فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهَا ... وَمَكْرُوهُهَا إِمَّا تَدَبَّرْتَ رَاجِحُ

لَقَدْ قَالَ فِيهَا ٱلْوَاصِفُونَ فَأَكْثَرُوا ... وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لَعَمْرِيَ صَالِحُ

سُلَافٌ قُصَارَاهَا زُعَافٌ وَمَرْكَبٌ ... شَهِيٌّ إِذَا ٱسْتَلْذَذْتَهُ فَهْوَ جَامِحُ

وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُونِقُ ٱلنَّاسَ حُسْنُهُ ... وَلَـٰكِنْ لَهُ أَسْرَارُ سُوءٍ قَبَائِحُ

فالعاقلُ إذا أمعنَ النَّظرَ في هـٰذهِ الأُمورِ . . خفَّ علىٰ قلبِهِ أكثرُ الغمومِ ، إلَّا إذا كانَتِ العلاقةُ قدِ استحكمَتْ بينَهُ وبينَ معشوقٍ ؛ مِن آدميٍّ ، أو مالٍ ، أو عَقارٍ ، أو حِرْفةٍ ، أو رئاسةٍ ، أو وِلايةٍ ، أو أمرٍ مِنَ الأُمورِ . . فلا خَلاصَ لهُ مِن غمومِها إلَّا بعدَ قطعِ العلائقِ عنها ، ولا يمكنُ ذٰلكَ إلَّا بكفِّ النَّفْسِ عنها تَدرُّجاً ، والاشتغالِ

---

(١) أورده الراغب الأصفهاني في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » (ص ٢٣٦) .

(٢) البيت لمحمد بن عبيد الله العرزمي في « الوزراء والكتاب » (ص ٤٩٦) .

(٣) ديوان الثعالبي (ص ٣٩) .

بغيرِها وإن كانَ ذٰلكَ الغيرُ أيضاً ممَّا يُجانِسُهُ في وجوبِ التَّباعدِ عنهُ ، ولٰكنْ لا بأسَ بغسلِ الدَّمِ بالدَّمِ إذا كان الأوَّلُ أشدَّ لُصوقاً والتزاقاً[1] .

وهٰذا مِن دقائقِ الرِّياضاتِ ؛ فإنَّ النُّزوعَ عمَّا وقعَ الإِلْفُ بهِ دَفعةً واحدةً . . عسيرٌ ، بل مُمتنِعٌ .

ولذٰلكَ يُرقَّى الصَّبيُّ إلىٰ تَعلُّمِ الأدبِ بالتَّرغيبِ في اللَّعبِ بالصَّوْلَجانِ والطُّيورِ ، ثمَّ يُكَفُّ عنِ اللَّعبِ بالتَّرغيبِ في الثَّروةِ والمالِ والتَّزيُّنِ بالثِّيابِ الجميلةِ وغيرِها ، ثمَّ يُرقَّىٰ بعدَ ذٰلكَ بالتَّرغيبِ في المَحمَدةِ والثَّناءِ ، ونيلِ الكرامةِ والرِّئاسةِ ، ثمَّ يُرقَّىٰ بالتَّرغيبِ في سعادةِ الدَّارِ الآخرةِ ، وتكونُ الرِّئاسةُ آخِرَ ما يَخرجُ مِن رؤوسِ الصِّدِّيقينَ .

ولقد كانَتْ هٰذهِ المُعالَجةُ بأُمورٍ محذورةٍ في نفسِها ، ولٰكنْ مطلوبةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ شرٌّ منها ، وكأنَّها منازلُ وأطوارٌ للآدميِّ لا بدَّ أن يَرتقيَ فيها واحداً واحداً ، ولا يمكنُ الخَلاصُ إلَّا بهٰذا التَّدريجِ .

فلْيُراعِ ذٰلكَ في كلِّ صفةٍ استولَتْ على النَّفْسِ واشتدَّتْ علاقتُها ، **وبقطعِ العلائقِ تنمحي الغمومُ .**

❋ ❋ ❋

(١) في (د ، ز) : (ولٰكن لا بأس بغسل الدم بالبول إذ كان الأول أشدَّ لزوماً والتصاقاً) .

بيان نفي الخوف من الموت

للإنسانِ حالتانِ : حالةٌ قبلَ الموتِ ، وحالةٌ عندَ الموتِ .

أمَّا ما قبلَ الموتِ . . فينبغي أن يكونَ الإنسانُ فيها دائمَ الذِّكرِ للموتِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ ٱللَّذَّاتِ ؛ فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ ، وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ »[1] .

والنَّاسُ فيها قسمانِ :

غافلٌ ؛ وهوَ الأحمقُ الحقيقيُّ الَّذي لا يَتفكَّرُ في الموتِ وما بعدَهُ إلَّا نظراً في حالِ أولادِهِ وتركاتِهِ بعدَ موتِهِ ، أو مَن يَنظُرُ ويَتدبَّرُ في أحوالِ نفْسِهِ ، ولٰكنْ لا يَتذكَّرُ إلَّا إذا رأىٰ جنازةً ، فيقولُ بلسانِهِ : (إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ) ، ولا يَرجِعُ إلى اللهِ تعالىٰ بأفعالِهِ إلَّا بقولِهِ ، فيكونُ كاذباً في قولِهِ تحقيقاً .

وأمَّا العاقلُ الكَيِّسُ . . فلا يُفارِقُهُ ذِكرُ الموتِ ؛ كالمُسافِرِ إلىٰ مَقصِدِ الحجِّ مثلاً ؛ فإنَّهُ لا يُفارِقُهُ ذِكرُ المَقصِدِ ، وأشغالُ المنازلِ في الحَطِّ والتَّرحالِ لا تُنسيهِ مقصودَهُ .

وعلى الجملةِ : فذِكرُ الموتِ يَطرُدُ فضولَ الأملِ ، ويَكُفُّ غَرْبَ المُنىٰ ، ويُهوِّنُ المصائبَ ، ويحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الطُّغيانِ .

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الصحيح » (٢٩٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ومِن ذِكْرِ الموتِ تَتولَّدُ القناعةُ بما رُزِقَ ، والمُبادَرةُ إلى التَّوبةِ ، وتركُ المُحاسَدةِ والحرصِ على الدُّنيا ، والنَّشاطُ في العبادةِ .

وينبغي أن يكونَ الموتُ المُتراخي بينَ عينَيهِ ، فلا يصبحُ يوماً إلَّا ويُقدِّرُ أنَّهُ سيموتُ مِن غدٍ ، بل يُقدِّرُ الموتَ العاجلَ ؛ فإنَّهُ مُمكِنٌ .

ومهما قَدَّرَ الموتَ بعدَ سنينَ . . لم يَحرِصْ على العبادةِ ، ولم تَفتُرْ رغبتُهُ في الدُّنيا ، بل لا ينبغي أن يُمهِلَ نفْسَهُ أكثرَ مِن يومٍ ، فيصبحُ كلَّ يومٍ علىٰ تقديرِ الاستعدادِ للارتحالِ ليلاً ، وكلَّ ليلةٍ علىٰ تقديرِ الاستعدادِ للرِّحلةِ نهاراً .

فكلُّ مَن ينتظرُ أن يدعوَهُ مَلِكٌ مِنَ الملوكِ كلَّ ساعةٍ . . فينبغي أن يكونَ مُستعِدّاً للإجابةِ ، فإن لم يكنْ . . فربَّما يأتيهِ الرَّسولُ وهوَ غافلٌ ، فيُحرَمُ السَّعادةَ ، وما مِن وقتٍ إلَّا ويُرى الموتُ فيهِ مُمكِناً .

❀ ❀ ❀

فإن قلتَ : إنَّ الموتَ فجأةً بعيدٌ .

قلْنا : فالمرضُ فجأةً غيرُ بعيدٍ ، وإذا وقعَ المرضُ . . فالموتُ غيرُ بعيدٍ ، وذٰلكَ يمكنُ في أقلَّ مِن يومٍ ، ولا يكونُ بعيداً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الاغتمامُ لأجلِ الموتِ . . فليسَ مِنَ العقلِ أيضاً ؛ فإنَّ ذٰلكَ الغمَّ لا يخلو مِن أربعةِ أوجُهٍ :

١ ـ إمَّا لفَواتِ شهوةِ بطنِهِ وفرْجِهِ .

٢ ـ وإمَّا علىٰ ما يُخلِّفُهُ مِن مالِهِ .

٣ ـ وإمَّا علىٰ جهلِهِ بحالِهِ بعدَ الموتِ ومآلِهِ .

٤ ـ وإمَّا لخوفِهِ علىٰ ما قَدَّمَهُ مِن عصيانِهِ .

فإن كانَ ذٰلكَ لشهوةِ بطنِهِ وفرْجِهِ . . فهوَ فيهِ كمُشتهي داءٍ ليُقابِلَهُ بداءٍ مثلِهِ ؛ **فإنَّ معنىٰ لَذَّةِ الطَّعامِ** : إزالةُ أَلَمِ الجوعِ ؛ ولذٰلكَ إذا زالَ الجوعُ وامتلأَتِ المَعِدةُ . . كَرِهَ عينَ ما اشتهاهُ ، وهوَ كمَن يَشتهي القُعودَ في الشَّمسِ ليَنالَهُ الحَرُّ حتَّىٰ يَتلذَّذَ بالرُّجوعِ إلى الظِّلِّ ، وكمَن يَشتهي الحبسَ في حمَّامٍ حارٍّ ليُدرِكَ لَذَّةَ ماءِ الثَّلجِ إذا شربَهُ ، وهٰذا عينُ الرَّقاعةِ والخُرْقِ (١) .

وإن كانَ ذٰلكَ على ما يُخلِّفُهُ مِن مالِهِ . . فهوَ لجهلِهِ بخَساسةِ الدُّنيا وحَقارتِها بالإضافةِ إلى المُلْكِ الكبيرِ ، والنَّعيمِ المُقيمِ الموعودِ للمُتَّقينَ .

وإن كانَ ذٰلكَ لجهلِهِ بعاقبةِ أمرِهِ بعدَ الموتِ . . فعليهِ أن يطلبَ العِلْمَ الحقيقيَّ الَّذي يَكشِفُ لهُ حالَ الإنسانِ بعدَ موتِهِ ؛ كما قالَ حارثةُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : (كأنِّي أنظرُ إلىٰ عرشِ ربِّي بارزاً ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ أهلِ الجنَّةِ يَتزاورونَ فيها ، وإلىٰ أهلِ النَّارِ يَتعاوَوْنَ فيها) (٢) .

وهٰذا العِلْمُ إنَّما يَحصُلُ بالبحثِ عن حقيقةِ النَّفْسِ وماهيَّتِهِ ،

---

(١) الرَّقاعة : الحمق وضعف العقل .

(٢) أخرجه العقيلي في « الضعفاء » (١٥٥٧/٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

ووجهِ علاقتِهِ بالبَدنِ ، ووجهِ خاصِّيَّتِهِ الَّتي خُلِقَتْ لهُ ، ووجهِ التذاذِهِ بخاصِّيَّتِهِ وكمالِهِ ، معَ معرفةِ الرَّذائلِ المانعةِ لهُ مِن كمالِهِ ، وقد نَبَّهَ الشَّرعُ عليهِ في مواضعَ كثيرةٍ ، وأمرَ بالتَّفكُّرِ في النَّفْسِ كما أمرَ بالتَّفكُّرِ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ .

وإن كانَ ذٰلكَ لِمَا سبقَ مِن عصيانِهِ . . فلا يَنفَعُ الغمُّ فيهِ ، بلِ المُداواةُ ؛ وهيَ المُبادَرةُ بالتَّوبةِ ، وإصلاحُ ما فَرَّطَ مِن أمرِهِ .

بل مثالُهُ في الاغتمامِ وتركِ التَّداركِ **مثالُ مَن فتحَ عِرْقاً مِن عُروقِهِ** وقد خرجَ بعضُ دمِهِ وهوَ قادرٌ علىٰ تعصيبِهِ وحفظِ حُشاشتِهِ ، فأهملَهُ وجلسَ مُتأسِّفاً علىٰ خروجِ ما خرجَ مِن دمِهِ .

وذٰلكَ أيضاً مِنَ الحماقةِ ؛ فإنَّ الفائتَ لا تداركَ لهُ ، ولا ينفعُ التَّأسُّفُ فيهِ ، فلْيشتغلْ بالمُستقبَلِ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثَّانيةُ : حالُ النَّاسِ عندَ الموتِ ، والنَّاسُ عندَهُ ثلاثةُ أقسامٍ :

الأوَّلُ : مُوفَّقٌ ذو بصيرةٍ ، يَعلَمُ أنَّ الموتَ يُعتِقُهُ ، والحياةَ تَسترِقُّهُ ، وأنَّ الإنسانَ وإن طالَ في الدُّنيا مُكثُهُ . . فهوَ كخَطْفةِ برقٍ لَمَعَتْ في أكنافِ السَّماءِ ، ثمَّ عادَتْ إلى الاختفاءِ ، فلا يَثقُلُ عليهِ الخروجُ مِنَ الدُّنيا إلَّا بقَدْرِ ما يَفوتُهُ مِن خدمةِ ربِّهِ تعالىٰ ، والازديادِ مِن تَقرُّبِهِ ، والإشفاقِ ممَّا يقولُ ويُقالُ لهُ ؛ كما قالَ بعضُهُم لمَّا قيلَ لهُ : لِمَ تَجزَعُ ؟

قالَ : (لأنِّي أسلكُ طريقاً لم أعهدْهُ ، وأَقدَمُ علىٰ ربٍّ لم أرَهُ ، ولا أدري ما أقولُ ولا ما يُقالُ لي) .

ومثلُ هٰذا الشَّخصِ لا يَنفِرُ مِنَ الموتِ ، بل إذا عَجزَ عن زيادةِ العبادةِ . . ربَّما اشتاقَ إليهِ ؛ ولذٰلكَ قالَ بعضُهُم في مُناجاتِهِ : (إلٰهي ؛ إن سألتُكَ الحياةَ في دارِ المَماتِ . . فقد رغبتُ في البُعدِ عنكَ ، وزهدتُ في القُربِ منكَ ؛ فقد قالَ نبيُّكَ وصفيُّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ ٱللهِ . . أَحَبَّ ٱللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ ٱللهِ . . كَرِهَ ٱللهُ لِقَاءَهُ »)[1] .

والقسمُ الثَّاني : رجلٌ رديءُ البصيرةِ ، مُتلطِّخُ السَّريرةِ ، مُنهمِكٌ في الدُّنيا ، مُنغمِسٌ في علائقِها ، رضيَ بالحياةِ الدُّنيا واطمأنَّ إليها ، ويئسَ مِنَ الدَّارِ الآخرةِ كما يئسَ الكُفَّارُ مِن أصحابِ القبورِ .

فإذا خرجَ إلىٰ دارِ الخلودِ . . أضرَّ بهِ كما تُضِرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ ، وإذا خرجَ مِن قاذوراتِ الدُّنيا . . لم يوافقْهُ عالَمُ العُلا ، ومُصاحَبةُ الملأ الأعلىٰ ، فكانَ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ .

فالدُّنيا سِجْنُ الأوَّلِ ، وجنَّةُ الثَّاني ، والأوَّلُ كعبدٍ دعاهُ مولاهُ فأجابَهُ طوعاً ، فقَدِمَ عليهِ مسروراً بتوفُّرِهِ على الخدمةِ ، والثَّاني كعبدٍ آبقٍ رُدَّ إلىٰ مولاهُ مأسوراً ، وقِيدَ إلىٰ حضرتِهِ مقهوراً ، فيبقىٰ ناكسَ الرَّأسِ بينَ يدَيْ مولاهُ مُتخوِّفاً مِن جنايتِهِ ، وشتَّانَ بينَ الحالتَينِ .

---

(١) أخرج الحديث البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

والقسمُ الثَّالثُ : رتبةٌ بينَ الرُّتبتَينِ : رجلٌ عرفَ غوائلَ هٰذا العالَمِ وكَرِهَ صُحبتَهُ ، ولٰكنْ أَنِسَ بهِ وأَلِفَهُ ، فسبيلُهُ سبيلُ مَن أَلِفَ بيتاً مُظلِماً قَذِراً ولم يرَ غيرَهُ ، فهوَ يكرهُ الخروجَ منهُ وإن كانَ قد كرهَ دخولَهُ ، فإذا خرجَ ورأىٰ ما أعدَّ اللهُ للصَّالحينَ . . لم يَتأسَّفْ علىٰ ما كرهَ فواتَهُ ، بل قالَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

ولا يَبعُدُ أن يكرهَ الإنسانُ مُفارَقةَ شيءٍ ، ثمَّ إذا فارقَهُ . . لا يَتأسَّفُ عليهِ ؛ فالصَّبيُّ وقتَ الولادةِ إنَّما يبكي لِمَا يَنالُهُ مِن أَلَمِ الانتقالِ ، ثمَّ إذا عَقَلَ . . لم يَتمنَّ العودةَ إليهِ ، والموتُ ولادةٌ ثانيةٌ يُستفادُ بها كمالٌ لم يكنْ مِن قبلُ ، بشرطِ ألَّا يكونَ قد تَقدَّمَ قبلَ ذٰلكَ الكمالِ مِنَ الآفاتِ والعوارضِ ما أبطلَ قَبولَ المَحَلِّ للكمالِ ، كما أنَّ الولادةَ سببُ كمالٍ مغبوطٍ لم يكنْ عندَ الاجتِنانِ (١) ، بشرطِ ألَّا يكونَ قد تَمكَّنَ في رحمِ الأُمِّ مِنَ الأسبابِ والعِللِ والعوارضِ ما منعَ قَبولَ ذٰلكَ الكمالِ ، فاختلَّتِ القُوىٰ ، واستولَتِ العِللُ والأمراضُ ، وبَطَلَتْ أسبابُ الكمالِ .

ولكونِ الموتِ سببَ كمالٍ قالَ بعضُهم : ينبغي أن يكونَ دعاؤُنا لعزرائيلَ وشكرُنا لهُ مثلَ دعائِنا لجبريلَ وميكائيلَ ؛ ولذٰلكَ وردَ في الدُّعاءِ : (اللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وجبريلَ وميكائيلَ ومَلَكِ

(١) أي : وقت كان جنيناً في بطن أمه .

الموتِ) ؛ فإنَّ جبريلَ وميكائيلَ هُما سببانِ لإعلامِنا بما فيهِ خلاصُنا مِنَ الدُّنيا ونجاتُنا في الآخرةِ ؛ وذٰلكَ بواسطةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومَلَكُ الموتِ سببُ إخراجِنا إلىٰ ذٰلكَ العالَمِ ، فحقُّهُ عظيمٌ ، وشكرُهُ لازمٌ .

وحُكِيَ عن طائفةٍ مِن حكماءِ الأُممِ السَّالفةِ : (أنَّهُم كانوا يُعظِّمونَ زُحَلَ بالتَّقديسِ والتَّسبيحِ ؛ مِن حيثُ اعتقدوا أنَّهُ لا يُعينُ على الحياةِ العَرَضيَّةِ ، بل هوَ سببُ الهلاكِ الَّذي بهِ الخَلاصُ مِنَ الدُّنيا الدَّنيَّةِ) .

❋ ❋ ❋

بيان علامة المنزل الأوّل من منازل السّائرين إلى الله تعالىٰ

اعلمْ : أنَّ سالكَ سبيلِ اللهِ تعالىٰ قليلٌ ، والمُدَّعِيَ فيهِ كثيرٌ ، ونحنُ نُعرِّفُكَ علامتَينِ تجعلُهُما أمامَ عينِكَ ، وتعتبرُ بهِما نفْسَكَ وغيرَكَ :

فالعلامةُ الأُولىٰ : أن تكونَ جميعُ أفعالِهِ الاختياريَّةِ موزونةً بميزانِ الشَّرعِ ، موقوفةً علىٰ حدِّ توقيفاتِهِ إيراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ؛ إذ لا يمكنُ سلوكُ هـٰذهِ السَّبيلِ إلَّا بعدَ التَّلبُّسِ بمكارمِ الشَّريعةِ كلِّها ، ولا يمكنُ ذٰلكَ إلَّا بعدَ تهذيبِ الأخلاقِ كما وصفْنا مِن قبلُ (١) .

ولا يصلُ إلىٰ ذٰلكَ إلَّا مَن تركَ جملةً مِنَ المباحاتِ ، فكيفَ يَتأتَّىٰ ممَّن لم يَهجُرِ المحظوراتِ ؟!

ولا يَتوصَّلُ إليهِ ما لم يواظبْ علىٰ جملةٍ مِنَ النَّوافلِ ، فكيفَ يصلُ إليهِ مَن أهملَ الفرائضَ ؟!

بلِ الشَّرعُ في تكليفِهِ العامِّ اقتصرَ علىٰ فرائضَ ومحظوراتٍ يَشترِكُ فيها عوامُّ النَّاسِ ؛ بحيثُ لا يُؤدِّي الاشتغالُ بها إلىٰ خرابِ العالَمِ ، والسَّالكُ لسبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ يُعرِضُ عنِ الدُّنيا إعراضاً لو ساواهُ النَّاسُ كلُّهُم . . لخَرِبَ العالَمُ ، فكيفَ يُنالُ ذٰلكَ بمُجرَّدِ الفرائضِ والواجباتِ اقتصاراً عليها دونَ النَّوافلِ ؟!

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٩٩) وما بعدها .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : « لَا يَزَالُ ٱلْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِنَوَافِلِهِ حَتَّىٰ أَصِيرَ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً ؛ فَبِي يُبْصِرُ ، وَبِي يَسْمَعُ »[1] .

وعلى الجملةِ : لا يدعو إلىٰ إهمالِ الفرائضِ واقتحامِ المحظوراتِ إلَّا كسلٌ غالبٌ ، وهوىً قاهرٌ ، وكيفَ يسلكُ سبيلَ اللهِ مَن هوَ بعدُ في أسرِ الكسلِ وقيدِ الهوىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

فإن قلتَ : فسالكُ سبيلِ اللهِ تعالىٰ مَن خاضَ في مُجاهَدةِ الكسلِ والهوىٰ ، فأمَّا مَن فرغَ مِن قهرِهِما . . فهوَ واصلٌ لا سالكٌ .

فيُقالُ : هـٰذا عينُ الغُرورِ ، وجهلٌ بالطَّريقِ والمَقصِدِ جميعاً ، بل لو محا جميعَ الصِّفاتِ الرَّديَّةِ عن نفْسِهِ . . كانَ نِسبتُهُ إلى المقصودِ نسبةَ مَن يَقصِدُ الحجَّ ولهُ غرماءُ مُتشبِّثونَ بأذيالِهِ ، فقضىٰ ديونَهُم ، وقطعَ علائقَهُم ؛ فإنَّ الصِّفاتِ البَدنيَّةَ المُستولِيةَ على النَّاسِ مثلُ الغرماءِ الآخذينَ بمُخَنَّقِهِ[2] ، والسِّباعِ الضَّاريةِ الطَّالبةِ لأقواتِها ، فإذا محاها ودفعَها . . فقد دفعَ العلائقَ ، وبعدَهُ يَستعِدُّ لابتداءِ السُّلوكِ .

بل هوَ كمُعتدَّةٍ تطمعُ أن يَنكِحَها الخليفةُ ، فإذا قضَتْ عِدَّتَها المانعةَ مِن صِحَّةِ النِّكاحِ . . ظنَّتْ أنَّ الأُمورَ قد تَمَّتْ ، وهيهاتَ !! فلم يَحصُلْ منها إلَّا الاستعدادُ للقَبولِ برفعِ المانعِ ، وبقيَ إقبالُ الخليفةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .
(٢) المخنَّق : الحَلْق .

وإنعامُهُ بالرَّغبةِ ، وذٰلكَ رزقٌ إلٰهيٌّ ، فلا كلُّ مَن تَطهَّرَ . . وصلَ إلى الجمعةِ ، ولا كلُّ مَن قضَتْ عِدَّتَها . . وصلَتْ إلىٰ كلِّ ما أرادَتْ .

❊ ❊ ❊

فإن قلتَ : فهل تنتهي رتبةُ السَّالكِ إلىٰ حدٍّ يَنحَطُّ عنهُ بعضُ وظائفِ العباداتِ ، ولا يَضرُّهُ بعضُ المحظوراتِ ؛ كما نُقِلَ عن بعضِ المشايخِ مِنَ التَّساهلِ في هٰذهِ الأُمورِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا عينُ الغُرورِ ، وأنَّ المُحقِّقينَ قالوا : (لو رأيتَ إنساناً يمشي على الماءِ وهوَ يَتعاطىٰ أمراً يخالفُ الشَّرعَ . . فاعلمْ أنَّهُ شيطانٌ) .

وهوَ الحقُّ ؛ وذٰلكَ أنَّ الشَّريعةَ حنيفيَّةٌ سمحةٌ ، فمهما مَسَّتْ حاجةٌ أو حصلَتْ ضرورةٌ . . كانَ للشَّرعِ فيها رخصةٌ ، فمَن جاوزَ مَحَلَّ الرُّخصةِ . . فلا يكونُ عن ضرورةٍ ، بل عن هوىً وشهوةٍ ، والإنسانُ ما دامَ في هٰذا العالَمِ لا يأمنُ استيلاءَ الشَّهوةِ وعودَها إلى القهرِ بعدَ الانقهارِ ، فينبغي أن يأخذَ منها حِذْرَهُ .

فلا يُتصوَّرُ أن يدعوَ إلىٰ مُخالَفةِ الشَّرعِ إلَّا طلبُ رفاهيةٍ ودَعَةٍ ، أو نوعُ كسلٍ ، أو نوعُ شهوةٍ ، وكلُّ ذٰلكَ يدعو إلى التَّسمُّحِ بالأخلاقِ الرَّديَّةِ المُناقِضةِ لها .

فمَن زكَّىٰ نفسَهُ وغذَّاها بغذاءِ العلومِ الحقيقيَّةِ . . قَوِيَ على المُواظَبةِ على العبادةِ ، بل صارَتِ الصَّلاةُ قُرَّةَ عينِهِ ، وصارَتْ خلوةُ اللَّيلِ أطيبَ الأشياءِ عندَهُ لمُناجاةِ ربِّهِ .

فهٰذهِ العلامةُ لا بدَّ منها في أوَّلِ المنازلِ ، وتبقىٰ إلىٰ آخِرِها وإن لم يكنْ لمنازلِ السَّيرِ إلى اللهِ تعالىٰ آخِرٌ ، وإنَّما الموتُ يقطعُ طريقَ السُّلوكِ ، فيبقىٰ كلُّ إنسانٍ بعدَ الموتِ على الرُّتبةِ الَّتي حَصَّلَها في مُدَّةِ الحياةِ ؛ إذ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ .

❀ ❀ ❀

العلامةُ الثَّانيةُ : **أن يكونَ حاضرَ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ حضوراً ضروريّاً غيرَ مُتكلَّفٍ** ، بل حضوراً يَعظُمُ تَلذُّذُهُ بهِ .

وأن يكونَ معَ الحضورِ مُنكسِراً ضراعةً وخضوعاً لِمَا انكشفَ عندَهُ مِن جلالِ اللهِ تعالىٰ وبهائِهِ ، ولا يُفارِقَهُ ذٰلكَ في أطوارِهِ وأحوالِهِ وإنِ اشتغلَ بضروراتِ بَدنِهِ ؛ مِن تناولِ طعامٍ ، وقضاءِ حاجةٍ ، وغَسْلِ ثوبٍ وغيرِهِ .

بل يكونُ مثالُهُ في جميعِ الأحوالِ مثالَ عاشقٍ سَهِرَ في انتظارِ معشوقِهِ مُدَّةً ، وتَعِبَ فيهِ زماناً ، ثمَّ قَدِمَ عليهِ معشوقُهُ ، فاستبشرَ بهِ ، واستولىٰ عليهِ قضاءُ حاجةٍ ، فلزمَهُ ضرورةُ مُفارَقتِهِ ، وقصدَ بيتَ الماءِ ، فيُفارِقُهُ ببَدنِهِ مُضطرّاً والقلبُ حاضرٌ عندَهُ حضوراً لو خُوطِبَ في أثناءِ ما هوَ فيهِ . . لم يَسمعْهُ ؛ لشِدَّةِ استغراقِ فكرِهِ بمعشوقِهِ ، ولا يكونُ ما هوَ فيهِ صارفاً لهُ عن قُرَّةِ عينِهِ وهوَ مُكرَهٌ فيهِ .

فالسَّالكُ ينبغي أن يكونَ كذٰلكَ في أشغالِهِ الدُّنيويَّةِ ، بل لا يكونُ لهُ شغلٌ سوىٰ ضروراتِ بَدنِهِ ، وهوَ في جملةِ ذٰلكَ مصروفُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ ، معَ غايةِ الإجلالِ والتَّواضعِ .

وإذا لم يَبعُدْ أن تُحرِّكَهُ شهوةُ الوِقاعِ تحريكاً هٰذهِ صفتُهُ عندَ مَنِ استولَتْ عليهِ الشَّهوةُ ، ووقعَ في عينِهِ جمالُ صورةِ آدميٍّ خُلِقَتْ مِن نطفةٍ مَذِرَةٍ ، ويصيرُ على القُربِ جِيفةً قَذِرَةً ، وهوَ فيما بينَ ذٰلكَ يَحمِلُ العَذِرَةَ[1] . . فكيفَ يَبعُدُ ذٰلكَ في إدراكِ جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ الَّذي لا نهايةَ لهُ ؟!

وعلى الجملةِ : فلا يَتِمُّ سلوكُ هٰذا السَّبيلِ إلَّا بحرصٍ شديدٍ ، وإرادةٍ تامَّةٍ ، وطلبٍ بليغٍ .

ومَبدَأُ الحرصِ والطَّلبِ : إدراكُ جمالِ المطلوبِ المُوجِبِ للشَّوقِ والعِشقِ .

ومَبدَأُ إدراكِ جمالِ المطلوبِ : النَّظرُ وتحديقُ بصرِ العينِ نحوَهُ إعراضاً عن سائرِ المُبصَراتِ .

فكذٰلكَ بقَدْرِ ما يَلوحُ لكَ مِن جلالِ اللهِ تعالىٰ . . يَنبعِثُ شوقُكَ وحرصُكَ ، وبحسَبِهِ يكونُ سعيُكَ وانبعاثُكَ .

ثمَّ قد يزدادُ العِشقُ بطُولِ الصُّحبةِ إذا كانَ يَلوحُ في أثنائِها مَحاسنُ أخلاقٍ كانَتْ خفيَّةً مِن قبلُ ، فيتضاعفُ العِشقُ ، فكذٰلكَ ما يَلوحُ مِن بهاءِ الحضرةِ الإلٰهيَّةِ وجلالِها في أوَّلِ الأمرِ ربَّما يكونُ ضعيفاً ؛ لضَعفِ إدراكِ المُريدِ المُبتدِئِ ، ولٰكنْ يَنبعِثُ منهُ طلبٌ وشوقٌ ، فلا يزالُ يواظبُ على الفكرِ في ذٰلكَ الجمالِ بسببِهِ ، فيَطَّلِعُ علىٰ مزايا ، فيتضاعفُ في كلِّ وقتٍ عِشقُهُ .

---

(١) العذرة : الغائط .

وكما يَطلُبُ العاشقُ القُرْبَ مِن معشوقِهِ . . فكذا المُريدُ يَطلُبُ القُرْبَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، إلَّا أنَّ ذٰلكَ قُرْبٌ بنهاياتِ ـ أو بتماسِّ ـ سطوحِ الأجرامِ ، أو بكمالِ خيالِ صورتِهِ ؛ بأن يصيرَ مُبصَراً حاضراً في القُوَّةِ الباصرةِ صورتُهُ ، وهٰذا القُرْبُ قُرْبٌ في الكمالِ لا في المكانِ .

والأمثلة لا تُخيِّلُ مِن هٰذهِ المعاني إلَّا شيئاً بعيداً ، ولٰكنْ تشبيهُ ذٰلكَ بعِشقِ التِّلميذِ أُستاذَهُ وطلبِهِ القُرْبَ منهُ في كمالِهِ . . أصدقُ في التَّخييلِ ؛ فإنَّهُ يَتقرَّبُ إليهِ بحركتِهِ في التَّعلُّمِ ، ولا يزالُ يَقرُبُ منهُ قليلاً قليلاً وغايتُهُ رتبتُهُ .

وقد يكونُ ذٰلكَ مُمكِناً ، وقد يكونُ في بعضِ الأحوالِ مُتعذِّراً ، ولٰكنِ التَّرقِّي مِنَ الرُّتبةِ الَّتي هوَ فيها في البُعدِ مُمكِنٌ ، فيزدادُ قُرْباً بالنِّسبةِ ، والبلوغُ ها هنا غيرُ مُمكِنٍ ، ولٰكنَّ السَّفرَ عن أسفلِ السَّافلينَ بقصدِ جهةِ العُلُوِّ . . مُمكِنٌ .

وقد يكونُ المُمثَّلُ في عينِ التِّلميذِ رتبةً مُقيَّدةً لا أنَّهُ تَلبَّسَ بعِشقِ رتبةِ أُستاذِهِ ، ولٰكنْ يَشتاقُ إلى التَّرقِّي درجةً درجةً ، فلا يَتشوَّقُ إلى الأقصىٰ دَفعةً ، فإذا نالَ تلكَ الرُّتبةَ . . طَمَحَتْ عينُهُ إلىٰ ما فوقَهُ .

فكذٰلكَ مَن ليسَ عالِماً يبغي التَّشبُّهَ بالعلماءِ الَّذينَ هُم ورثةُ الأنبياءِ ، والعلماءُ يَتشبَّهونَ بالأولياءِ ، والأولياءُ يَتشبَّهونَ بالأنبياءِ ، والأنبياءُ بالملائكةِ حتَّىٰ تنمحيَ عنهُم صفاتُ البشريَّةِ بالكلِّيَّةِ ، فينقلبونَ ملائكةً في صورةِ النَّاسِ .

والملائكةُ أيضاً لهُم مراتبُ ، والأعلىٰ رتبةً معشوقٌ للأدنىٰ ، ومَطمَحُ نظرِهِ لهُ ، والملائكةُ المُقرَّبونَ هُمُ الَّذينَ ليسَ بينَهُم وبينَ الأوَّلِ الحقِّ واسطةٌ ، ولهُمُ الجمالُ الأظهرُ والبهاءُ الأتمُّ بالنِّسبةِ إلىٰ مَن دونَهُم مِنَ الموجوداتِ الكاملةِ البهيَّةِ ، ثمَّ كلُّ جمالٍ وكمالٍ بالإضافةِ إلىٰ جمالِ الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ مُستحقَرٌ .

فهٰكذا ينبغي أن تَعتقِدَ التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، لا بأن تُقدِّرَهُ في بيتٍ في الجنَّةِ فتَقرُبَ مِن بابِ البيتِ ، فيكونَ قُربُكَ بالمكانِ ، تعالىٰ عن ذٰلكَ ربُّ الأربابِ .

ولا بأن تُهدِيَ لهُ هديَّةً بعبادتِكَ ، فيَفرحَ بها ويَهتزَّ لها ، فيرضىٰ عنكَ ؛ كما يُتقرَّبُ إلى الملوكِ بطلبِ رضاهُم وتحصيلِ أغراضِهِم ، فيُسمَّىٰ ذٰلكَ (تَقرُّباً) ، تعالى اللهُ وتَقدَّسَ عن هٰذا المعنى الَّذي يُوصَفُ بهِ الملوكُ ؛ مِنَ السَّخَطِ والرِّضا ، والابتهاجِ بالخدمةِ ، والاهتزازِ للخضوعِ والانقيادِ ، والفرحِ بالمُتابَعةِ والمُشايَعةِ (١) ، واعتقادُ جميعِ ذٰلكَ جهلٌ .

❀ ❀ ❀

فإن قلتَ : فقدِ اعتقدَ أكثرُ عوامِّ الخَلْقِ ذٰلكَ .

فأقولُ : ما أبعدَ عنِ التَّحصيلِ مَن يَطلُبُ العَنْبرَ مِن دُكَّانِ الدَّبَّاغِ !! وكيفَ تطمعُ في رتبةٍ وأنتَ بعدُ تَعرِفُ الحقَّ بالرِّجالِ ، ولستَ تَعرِفُ الرِّجالَ بالحقِّ ؟! بل أنتَ تَعرِفُ الحقَّ بالحُمُرِ ،

(١) المشايعة : المتابعة والمطاوعة ، فهي من باب عطف التفسير .

فلا فرقَ بينَ العوامِّ الَّذينَ لم يمارسوا العلومَ وبينَ حُمُرٍ مُستنفِرةٍ ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرةٍ[1] .

أَمَا تراهُم كيفَ اعتقدوا في اللّهِ تعالىٰ أنَّهُ جالسٌ على العرشِ تحتَ مِظَلَّةٍ خضراءَ . . . إلىٰ تمامِ ما اعتقدوهُ في التَّشبيهاتِ ؟!

فأكثرُ النَّاسِ مُشبِّهةٌ ، ولٰكنْ للتَّشبيهِ درجاتٌ :

منهُم مَن يُشبِّهُ في الصُّورةِ ؛ فيُثبِتُ اليدَ والعينَ ، والنُّزولَ والانتقالَ .

ومنهُم مَن يُثبِتُ السَّخَطَ والرِّضا ، والغضبَ والسُّرورَ .

واللّهُ تعالىٰ مُتقدِّسٌ عن جميعِ ذٰلكَ .

وإنَّما أُطلِقَتْ هٰذهِ الألفاظُ في الشَّرعِ علىٰ تمثيلٍ وتأويلٍ ، يَفهمُها مَن يَفهمُها ، ويُنكِرُها مَن يُنكِرُها ، ولو تساوى النَّاسُ في الفهمِ . . لَبطَلَ قولُهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »[2] .

ولْنتجاوزْ هٰذا الكلامَ ؛ فإنَّهُ يُحرِّكُ سلسلةَ المجانينِ ، ويَحُلُّ قيودَ الشَّياطينِ ، ولْنحمدِ اللّهَ تعالىٰ علىٰ ما أولىٰ مِن نَعمائِهِ ، ومَنَحَ مِن آلائِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) القسورة : الأسد .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وابن ماجه (٢٤٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وقد تقدم تخريجه (ص ٥٧) .

بيان معنى المذهب واختلاف النّاس فيه

لعلَّكَ تقولُ : كلامُكَ في هٰذا الكتابِ انقسمَ :

إلىٰ ما يُطابِقُ مذهبَ الصُّوفيَّةِ .

وإلىٰ ما يُطابِقُ مذهبَ الظَّاهريِّينَ .

وإلىٰ ما يُطابِقُ مذهبَ الأشعريَّةِ وبعضِ المُتكلِّمينَ .

ولا يُفهَمُ الكلامُ إلَّا علىٰ مذهبٍ واحدٍ ، فما الحقُّ مِن هٰذهِ المذاهبِ ؟

فإن كانَ الكلُّ حقّاً . . فكيفَ يُتصوَّرُ هٰذا ؟ وإن كانَ بعضُهُ حقّاً . . فما ذاكَ الحقُّ ؟

فيُقالُ لكَ : إذا عرفتَ حقيقةَ المذهبِ . . عرفتَ أنَّ السُّؤالَ عنِ المذهبِ لا يَنفعُكَ قطُّ ؛ إذِ النَّاسُ فيهِ فريقانِ :

فريقٌ يقولُ : المذهبُ اسمٌ مُشترَكٌ لثلاثِ مراتبَ :

إحداها : ما يُتعصَّبُ لهُ في المُباهاةِ والمُناظَراتِ .

والأُخرىٰ : ما يُنطَقُ بهِ في التَّعليماتِ والإرشاداتِ .

والثَّالثةُ : ما يَعتقِدُهُ الإنسانُ في نفْسِهِ ممَّا يَنكشِفُ لهُ مِنَ النَّظريَّاتِ .

ولكلِّ كاملٍ ثلاثةُ مذاهبَ بهٰذا الاعتبارِ :

فأمَّا المذهبُ بالاعتبارِ الأوَّلِ . . فهوَ نمطٌ واحدٌ ؛ وهوَ مذهبُ

الآباءِ والأجدادِ ، أو مذهبُ المُعلِّمِ ، أو مذهبُ أهلِ البلدِ الَّذي فيهِ النَّشءُ ، وذٰلكَ يختلفُ بالبلادِ والأقطارِ ، ويختلفُ بالمُعلِّمينَ .

فمَن وُلِدَ في بلادِ المُعتزلةِ أوِ الأشعريَّةِ ، أوِ الشَّافعيَّةِ أوِ الحنفيَّةِ . . انغرسَ في نفْسِهِ منذُ صباهُ التَّعصُّبُ لهُ ، والذَّبُّ دونَهُ ، والذَّمُّ لِمَا سواهُ ، فيُقالُ : هوَ أشعريُّ المذهبِ ، أو مُعتزِليٌّ ، أو شافعيٌّ ، أو حنفيٌّ .

ومعناهُ : أنَّهُ يَتعصَّبُ لهُ ؛ أي : يَنصُرُ عصابتَهُ المُتظاهِرينَ بالمُوالاةِ فيهِ ، ويَجري ذٰلكَ مَجرىٰ تناصرِ القبيلةِ بعضِهِم لبعضٍ .

ومَبدَأُ التَّعصُّبِ : حرصُ جماعةٍ علىٰ طلبِ الرِّئاسةِ باستتباعِ العوامِّ ، ولا تنبعثُ دواعي العوامِّ إلَّا بجامعٍ يَحمِلُ على التَّظاهرِ والتَّناصرِ ، فجُعِلَتِ المذاهبُ في تفصيلِ الأديانِ جامعاً ، فانقسمَ النَّاسُ فِرَقاً ، وتَحرَّكَتْ غوائلُ الحسدِ والمُنافَسةِ ، فاشتدَّ تعصُّبُهُم ، واستحكمَ بهِ تناصرُهُم .

وفي بعضِ البلادِ لمَّا اتَّحدَ المذهبُ ، وعَجَزَ طلَّابُ الرِّئاسةِ عنِ الاستتباعِ . . وضعوا أُموراً وخيَّلوا وجوبَ المُخالَفةِ فيها والتَّعصُّبِ لها ؛ كالعَلَمِ الأسودِ والعَلَمِ الأحمرِ ، فقالَ قومٌ : الحقُّ هوَ الأسودُ ، وقالَ آخَرونَ : الحقُّ هوَ الأحمرُ ، وانتظمَ مقصودُ الرُّؤساءِ في استتباعِ العوامِّ بذٰلكَ القَدْرِ مِنَ المُخالَفةِ ، وظنَّ العوامُّ أنَّ ذٰلكَ مُهِمٌّ ، وعرفَ الرُّؤساءُ الواضعونَ غرضَهُم في الوضعِ .

المذهبُ الثَّاني : ما يُنطَقُ بهِ في الإرشادِ والتَّعليمِ لمَن جاءَ

مُستفيداً مُسترشِداً ، وهٰذا لا يَتعيَّنُ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، بل يَختلِفُ بحسَبِ المُسترشِدِ ، فيُناطَقُ كلُّ مُسترشِدٍ بما يَحتمِلُهُ فهمُهُ .

فإن وقعَ لهُ مُسترشِدٌ تركيٌّ أو هنديٌّ أو رجلٌ بليدٌ جَلْفُ الطَّبعِ ، وعَلِمَ أنَّهُ لو ذُكِرَ لهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ ليسَ ذاتُهُ في مكانٍ ، وأنَّهُ ليسَ داخلَ العالَمِ ولا خارجَهُ ، ولا مُتَّصِلاً بالعالَمِ ولا مُنفصِلاً عنهُ ؛ لم يلبثْ أن يُنكِرَ وجودَ اللهِ تعالىٰ ويُكذِّبَ بهِ . . فينبغي أن يُقرِّرَ عندَهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ على العرشِ ، وأنَّـهُ تُرضيهِ عبادةُ خَلْقِهِ ويفرحُ بها ، فيثيبُهُم ويدخلُهُمُ الجنَّةَ عوضاً وجزاءً .

وإنِ احتملَ أن يُذكَرَ لهُ ما هوَ الحقُّ المُبينُ ويُكشَفَ . . فالمذهبُ بهٰذا الاعتبارِ يَتغيَّرُ ويَختلِفُ ، **ويكونُ معَ كلِّ واحدٍ علىٰ حسَبِ ما يَحتمِلُهُ فهمُهُ .**

المذهبُ الثَّالثُ : ما يَعتقِدُهُ الرَّجلُ سرّاً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، لا يَطَّلعُ عليهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ ، ولا يَذكرُهُ إلَّا معَ مَن هوَ شريكٌ معَهُ في الاطِّلاعِ علىٰ ما اطَّلعَ ، أو بلغَ رتبةً يَقبلُ الاطِّلاعَ عليهِ ويَفهمُهُ ؛ وذٰلكَ بأن يكونَ المُسترشِدُ ذكيّاً ، ولم يكنْ قد رَسَخَ في نفْسِهِ اعتقادٌ موروثٌ نشأَ عليهِ وعلى التَّعصُّبِ لهُ ، ولم يكنْ قدِ انصبغَ بهِ قلبُهُ انصباغاً لا يمكنُ محوُهُ منهُ .

ويكونُ مثالُهُ ككاغَدٍ كُتِبَ عليهِ ما غاصَ فيهِ ، ولم يمكنْ إزالتُهُ إلَّا بخرقِ الكاغَدِ أو إحراقِهِ .

فهٰذا رجلٌ فَسَدَ مِزاجُهُ ، ويُئِسَ مِن إصلاحِهِ ؛ فإنَّ كلَّ ما يُذكَرُ لهُ

علىٰ خلافِ ما سمعَهُ . . لا يُقنِعُهُ ، بل يَحرِصُ علىٰ ألَّا يَقنعَ بما يُذكَرُ لهُ ، ويَحتالُ في دفعِهِ ، ولو أصغىٰ غايةَ الإصغاءِ ، وانصرفَتْ هِمَّتُهُ إلى الفهمِ . . لكانَ يُشَكُّ في فهمِهِ ، فكيفَ إذا كانَ غرضُهُ أن يَدفعَهُ وألَّا يَفهمَهُ ؟!

فالسَّبيلُ معَ مثلِ هـٰذا : أن يُسكَتَ عنهُ ، ويُترَكَ علىٰ ما هوَ عليهِ ، فليسَ هوَ بأوَّلِ أعمىٰ هلكَ بضلالِهِ .

فهـٰذا طريقُ فريقٍ مِنَ النَّاسِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الفريقُ الثَّاني ـ وهُمُ الأكثرونَ ـ . . فيقولونَ : إنَّ المذهبَ واحدٌ ؛ هوَ المُعتقَدُ ، وهوَ الَّذي يُنطَقُ بهِ تعليماً وإرشاداً معَ كلِّ آدميٍّ كيفَما اختلفَتْ حالُهُ ، وهوَ الَّذي يُتعصَّبُ لهُ ؛ وهوَ إمَّا مذهبُ الأشعريِّ ، أوِ المُعتزِليِّ ، أوِ الكرَّاميِّ ، أو مذهبٌ مِنَ المذاهبِ .

والأوَّلونَ يُوافِقونَ علىٰ أنَّهُم لو سُئِلوا عنِ المذهبِ أنَّهُ واحدٌ أو ثلاثةٌ . . لم يَجُزْ أن يُذكَرَ أنَّهُ ثلاثةٌ ، بل يجبُ أن يُقالَ : إنَّهُ واحدٌ .

وهـٰذا يُبطِلُ تعبَكَ بالسُّؤالِ عنِ المذهبِ إن كنتَ عاقلاً ؛ فإنَّ النَّاسَ مُتَّفِقونَ على النُّطقِ بأنَّ المذهبَ واحدٌ ، ثمَّ يَتَّفِقونَ على التَّعصُّبِ لمذهبِ أبيهِم ومُعلِّمِهِم وأهلِ بلدِهِم ، ولو ذكرَ ذاكرٌ مذهبَهُ . . فما مَنفَعتُكَ بهِ ومذهبُ غيرِهِ يخالفُهُ ؟! وليسَ معَ واحدٍ منهُم مُعجِزةٌ يَترجَّحُ بها جانبُهُ .

فجانبِ الالتفاتَ إلى المذاهبِ ، واطلبِ الحقَّ بطريقِ النَّظرِ ، ولْتكنْ صاحبَ مذهبٍ ، ولا تكنْ في صورةِ أعمىٰ تُقلِّدُ قائداً يُرشِدُكَ إلىٰ طريقٍ وحواليكَ ألفُ مثلُ قائدِكَ ينادونَ عليكَ بأنَّهُ أهلكَكَ وأضلَّكَ عن سواءِ السَّبيلِ ، وستعلمُ في عاقبةِ أمرِكَ ظُلْمَ قائدِكَ ، ولا خلاصَ لكَ إلَّا في الاستقلالِ .

قالَ الشَّاعرُ[1] : [من البسيط]

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

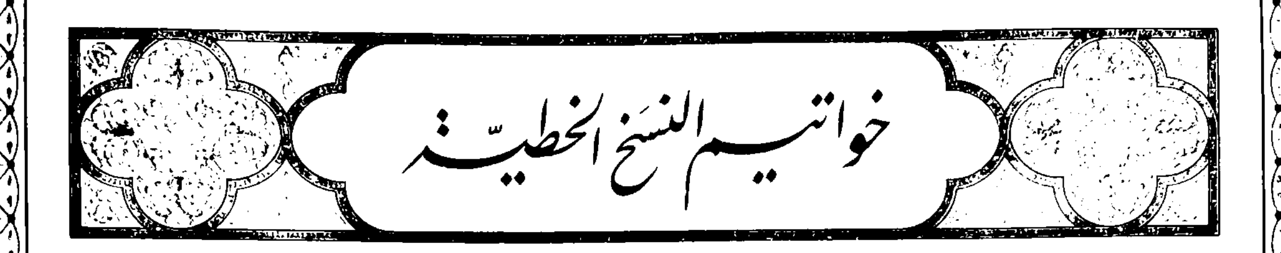
ولو لم يكنْ في مَجاري هٰذهِ الكلماتِ إلَّا ما يُشكِّكُكَ في اعتقادِكَ الموروثِ لتَنتَدِبَ بهِ للطَّلبِ . . فناهيكَ بهِ نفعاً ؛ **إذِ الشُّكوكُ هيَ المُوصِلةُ إلى الحقِّ ، فمَن لم يُشكِّكْ ويَشُكَّ**[2] . . **لم يَنظُرْ** ، ومَن لم يَنظُرْ . . لم يُبصِرْ ، ومَن لم يُبصِرْ . . بقيَ في العمىٰ والضَّلالِ .

نعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم
والسّلام

---

(١) البيت للمتنبي في « الديوان » (ص ٢٥٨) .

(٢) كذا في (أ) ، وفي باقي النسخ : (فمن لم يشكَّ) .



خاتمة النسخة (أ)

تمَّ كتابُ « ميزانِ العملِ » ، وكُتِبَ بأسوانَ في سنةِ ستٍّ وأربعينَ وخمسِ مئةٍ ، والحمدُ للهِ وحدَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ نبيِّهِ وآلِهِ وسلَّمَ تسليماً ، حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

خاتمة النسخة (ب)

كَمُلَ كتابُ « ميزانِ العملِ » للغزاليِّ بحمدِ اللهِ وعونِهِ ، وكانَ الفراغُ مِن نَسْخِهِ علىٰ يدِ البَهْنَسيِّ في اليومِ الثَّالثَ عشرَ مِن صفرٍ سنة أربعٍ وثمانينَ وخمسِ مئةٍ .

كتبَهُ لنفْسِهِ الفقيرُ إلىٰ رحمةِ ربِّهِ عليُّ بنُ إسماعيلَ بنِ زيدِ بنِ جابرِ بنِ إدريسَ بنِ موسى بنِ محمَّدِ بنِ المُؤمِّلِ البَهْنَسيُّ نفعَهُ اللهُ بهِ واستعملَهُ فيما يرضيهِ ، وغفرَ لهُ ولوالدَيهِ ولجميعِ المسلمينَ .

الحمدُ للهِ وحدَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ نبيِّهِ وآلِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً [. . .] (١) .

---

(١) كتب في الهامش : (قوبلت) .

خاتمة النسخة (ج)

كَمُلَ كتابُ « ميزانِ العملِ » لأبي حامدٍ الغزاليّ رحمَهُ اللهُ ورضيَ عنهُ ، والحمدُ للهِ كثيراً .

خاتمة النسخة (د)

واللهُ أعلمُ

تمَّ الكتابُ بعونِ اللهِ تعالىٰ وحُسْنِ توفيقِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيّدِنا ومولانا محمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ . . . في ثمانيةَ عشرَ في شهرِ [ذي] القعدةِ سنةَ ألفٍ ومئةٍ وتسعةٍ .

خاتمة النسخة (هـ)

تمَّ كتابُ « الميزانِ » ، والحمدُ للهِ علىٰ ما أولاهُ مِنَ الإنعامِ والامتنانِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ جميعِ أنبيائِهِ والمُصطفَينَ مِن عبادِهِ وأوليائِهِ .

خاتمة النسخة (و)

تمَّ الكتابُ ، والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخِراً ظاهراً وباطناً ، والصَّلاةُ علىٰ خيرِ خلقِهِ محمَّدٍ وآلِهِ أجمعينَ .

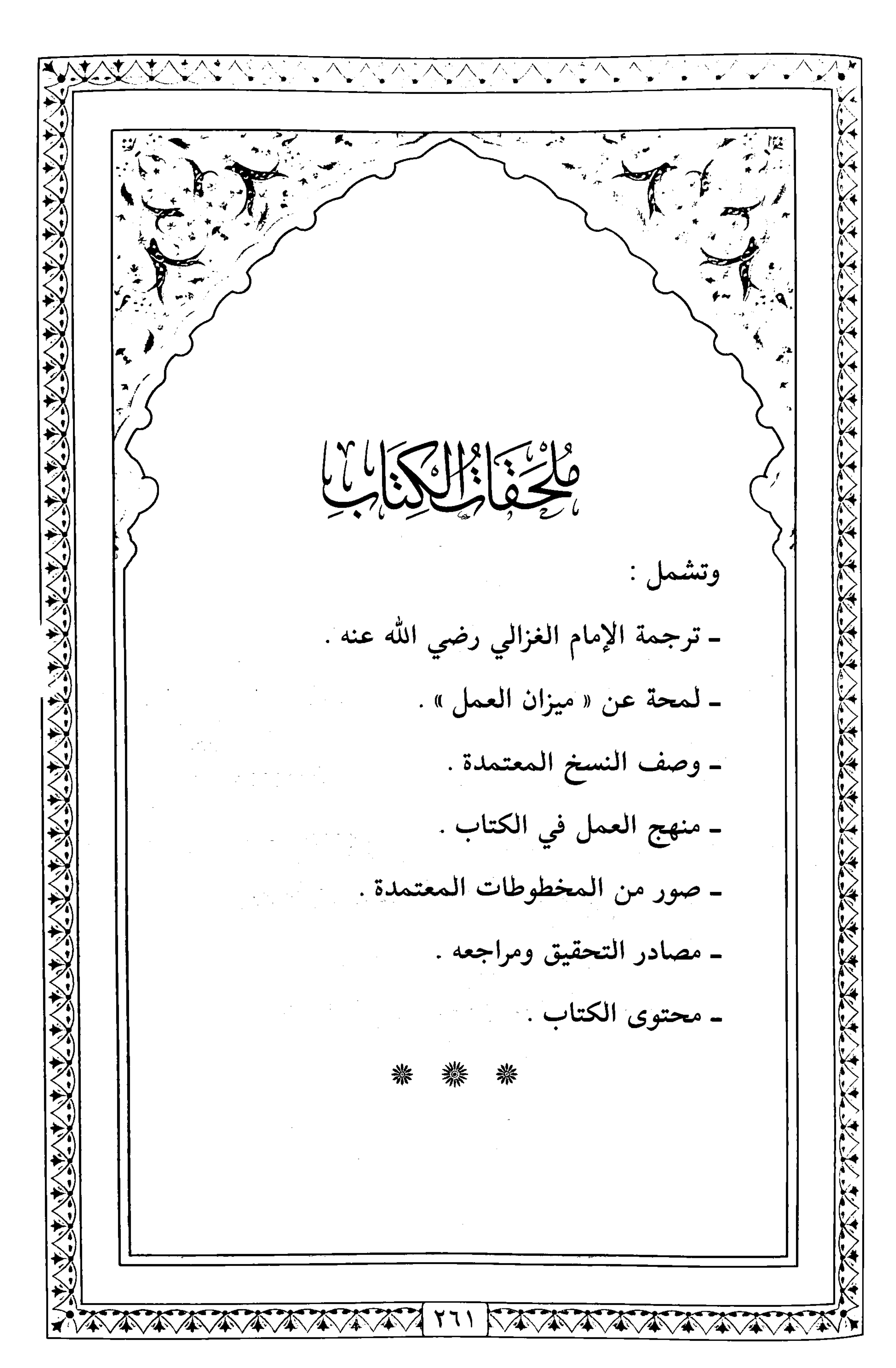
كتابُ « ميزانِ العملِ » تصنيفُ الشَّيخِ الإمامِ الهُمامِ حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ محمَّدِ بنِ محمَّدِ بنِ محمَّدٍ الغزاليِّ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ .

خاتمة النّسخة (ز)

والله أعلمُ

تَـمَّتِ الكتابُ علىٰ يدِ حسنِ بنِ زبيرٍ سنةَ (١٢٢٢) [. . .] بلده في آخرِ شعبانَ ، في قريةِ قادي ، كأنَّـها مِن جهنَّـمَ وادي ، وأهلُها إلى البدعِ مُتنادي ، وكلٌّ واحدٍ بالبغضاءِ نادي ، وليسَ فيهِم هادي .

❋ ❋ ❋

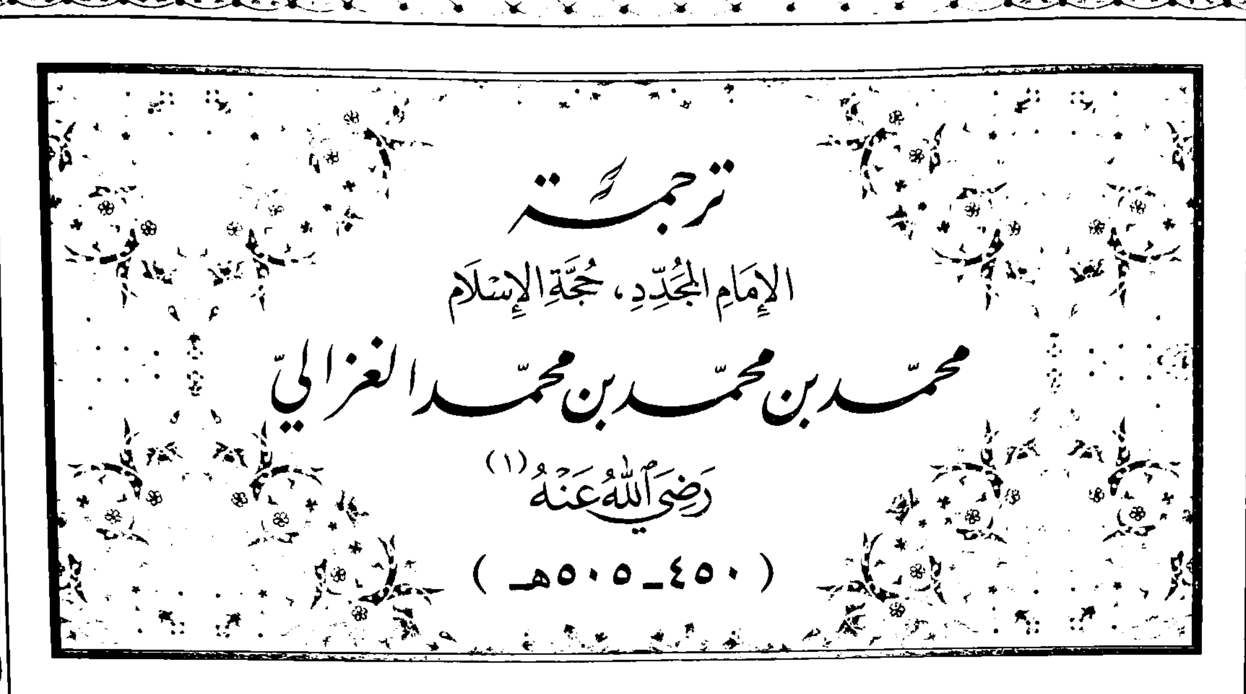


ملحقات الكتاب

وتشمل :

- ترجمة الإمام الغزالي رضي الله عنه .
- لمحة عن « ميزان العمل » .
- وصف النسخ المعتمدة .
- منهج العمل في الكتاب .
- صور من المخطوطات المعتمدة .
- مصادر التحقيق ومراجعه .
- محتوى الكتاب .

❋ ❋ ❋



هوَ الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ زينُ الدِّينِ ، أبو حامدٍ ، محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدٍ الطُّوسيُّ الطَّابَرانيُّ ، الشافعيُّ ، الغزاليُّ .

وُلِدَ بطُوسَ سنةَ (٤٥٠ هـ) ، وتُوفِّيَ أبوهُ وهوَ صغيرٌ ، وكانَ قد أوصىٰ بهِ وبأخيهِ أحمدَ إلىٰ صديقٍ لهُ ، فرعاهُما حتىٰ أدخلَهُما المدرسةَ يَتعلَّمانِ إلىٰ أن كَبِرا فيها .

❁ ❁ ❁

ثمَّ بدأَتْ مرحلةُ التحصيلِ العلميّ علىٰ أكابرِ شيوخِ العصرِ ؛ فقرأَ الإمامُ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ على الشيخِ الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ الرَّاذَكانيِّ بطُوسَ .

وسافرَ إلىٰ جُرجانَ ، فقرأَ على الشيخِ الإمامِ أبي القاسمِ الإسماعيليِّ ، وعَلَّقَ عنهُ « التعليقةَ » .

ثمَّ قدمَ نيسابورَ ، ولازمَ الإمامَ أبا المعالي الجُوَيْنيَّ إمامَ الحرمينِ

---

(١) أهم مصادر الترجمة : « تاريخ دمشق » (٥٥/٢٠٠ ـ ٢٠٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/١٩١ ـ ٣٨٩) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/٦ ـ ٥٣) .

وتَخرَّجَ بهِ ، وعَرَضَ عليهِ باكورةَ مُؤلَّفاتِهِ « المنخولَ » في أُصولِ الفقهِ .

ولمَّا تُوفِّيَ الإمامُ الجُوَيْنيُّ . . خرجَ إلى المعسكرِ ، وسمعَ بهِ الوزيرُ **نظامُ المُلْكِ** ، فقَدَّمَهُ في مجلسِهِ ، وحَظِيَ عندَهُ بالقَبولِ ، وبَرَعَ في المناظرةِ حتىٰ ظهرَ اسمُهُ في الآفاقِ ، فأُرسِلَ إلىٰ بغدادَ للتدريسِ في المدرسةِ النِّظاميةِ سنةَ (٤٨٤ هـ) .

وفي أثناءِ تدريسِهِ ببغدادَ تَفرَّغَ للتأليفِ ؛ فكَثُرَتْ مُؤلَّفاتُهُ ، وعَلَتْ شهرتُهُ ؛ حتىٰ أضحىٰ يُشارُ إليهِ بالبَنانِ .

❁ ❁ ❁

ثمَّ جاءَتْهُ السعادةُ الحقيقيةُ ؛ فسلكَ طريقَ الزهدِ والتألُّهِ ، وخرجَ مِن جميعِ ما كانَ فيهِ ، وتركَهُ وراءَ ظهرِهِ ، وقصدَ بيتَ اللهِ الحرامَ ؛ فخرجَ إلى الحجِّ سنةَ (٤٨٨ هـ) .

ثمَّ دخلَ دمشقَ سنةَ (٤٨٩ هـ) ، فأقامَ بها نحوَ عشرِ سنينَ ، أخذَ نفْسَهُ فيها بالرياضةِ ، والمجاهدةِ والخلوةِ ، وأَلَّفَ فيها كتابَهُ العظيمَ « إحياءَ علومِ الدِّينِ » .

ثمَّ عادَ إلىٰ طُوسَ ، فاستدعاهُ فخرُ المُلْكِ إلىٰ نيسابورَ ، فدَرَّسَ بها في المدرسةِ النِّظاميةِ .

ثمَّ تركَ المدرسةَ ، وعادَ إلىٰ بيتِهِ مُوزِّعاً أوقاتَهُ بينَ تلاوةِ القرآنِ ، والتدريسِ والإفادةِ ، والنُّصحِ والإرشادِ ، إلىٰ أن وافَتْهُ المنيةُ بطُوسَ سنةَ (٥٠٥ هـ) .

❁ ❁ ❁

تركَ الإمامُ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ مُؤلَّفاتٍ مشهورةً لم يُسبَقْ إليها ، مَن تأمَّلَها . . عَلِمَ فضلَهُ وقَدْرَهُ في فنونِ العِلْمِ ، وقد قيلَ : (أُحصِيَتْ كتبُ

الغزاليِّ التي صَنَّفَها ، ووُزِّعَتْ على عُمرِهِ ؛ فخصَّتْ كلَّ يومٍ أربعُ كراريسَ ، وذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَن يشاءُ)[1] .

ومِن هٰذهِ المُؤلَّفاتِ النافعةِ : « إحياءُ علومِ الدِّينِ » ، و« الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، و« مقاصدُ الفلاسفةِ » ، و« بدايةُ الهدايةِ » ، و« تهافتُ الفلاسفةِ » ، و« المُنقِذُ مِنَ الضَّلالِ » ، و« مِحَكُّ النظرِ » ، و« مِعيارُ العِلْمِ » ، و« القِسطاسُ المستقيمُ » ، و« المنخولُ » ، و« المستصفىٰ » ، و« البسيطُ » ، و« الوسيطُ » ، و« الوجيزُ » ، و« الخلاصةُ » ، و« إلجامُ العوامِّ » ، و« أيُّها الولدُ » ، و« فيصلُ التفرقةِ » ، و« الأربعينَ في أُصولِ الدِّينِ » ، و« المَقصِدُ الأسنىٰ » ، و« ميزانُ العملِ » وهوَ كتابُنا هٰذا ، وغيرُها الكثيرُ[2] .

❁ ❁ ❁

ومِن ثناءاتِ أهلِ العِلْمِ في حقِّهِ :

قالَ فيهِ شيخُهُ الإمامُ الجُوَيْنيُّ : (الغزاليُّ بحرٌ مُغْرِقٌ) .

وقالَ الحافظُ ابنُ عساكرَ : (كانَ إماماً في عِلْمِ الفقهِ مذهباً وخلافاً ، وفي أُصولِ الدِّياناتِ) .

وقالَ الحافظُ ابنُ النجارِ : (إمامُ الفقهاءِ على الإطلاقِ ، وربَّانيُّ الأُمَّةِ باتفاقٍ ، ومُجتهِدُ زمانِهِ) .

---

(١) الكراريس : جمع كُرَّاسة ؛ وهي عبارة عن مجموع من الأوراق المزدوجة المتداخلة فيما بينها بحدود عشر ورقات ، فكان ما يكتبه رضي الله عنه يقارب أربعين ورقة يومياً ، وهٰذا راجع للبركة في الوقت .

(٢) وقد أكرم الله سبحانه وتعالىٰ دار المنهاج بخدمة أهم كتب هٰذا الإمام الجليل ؛ وهي : « إحياء علوم الدين » ، و« الأربعين في أصول الدين » ، و« إلجام العوام » ، و« أيها الولد » ، و« الاقتصاد في الاعتقاد » ، و« بداية الهداية » ، و« جواهر القرآن » ، و« الخلاصة » ، و« فيصل التفرقة » ، و« القسطاس المستقيم » ، و« محكُّ النظر » ، و« مشكاة الأنوار » ، و« معيار العلم » ، و« مقاصد الفلاسفة » ، و« المقصد الأسنىٰ » ، و« المنقذ من الضلال » ، و« منهاج العابدين » ، و« **ميزان العمل** » ، ونسأل الله أن يتمم نعمته علينا بخدمة جميع كتب هٰذا الإمام العبقري رضي الله عنه .

وقالَ الحافظُ الذهبيُّ : (الشيخُ الإمامُ البحرُ ، حُجَّةُ الإسلامِ ، أُعْجُوبةُ الزمانِ) .

وقالَ الإمامُ ابنُ السبكيِّ : (حُجَّةُ الإسلامِ ، ومَحَجَّةُ الدِّينِ التي يُتوصَّلُ بها إلىٰ دارِ السلامِ ، جامعُ شتاتِ العلومِ ، والمُبَرِّزُ في المنقولِ منها والمفهومِ) .

رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، ونفع بعلومه

إنّه خير مسؤول

آمين



فطرَ اللهُ تعالى الإنسانَ علىٰ طلبِ السعادةِ ، السعادةِ الحقيقيةِ الكبرى المتمثلةِ ابتداءً وانتهاءً بمعرفةِ الحقّ سبحانَهُ وحُسْنِ التعبُّدِ لهُ ، والذُّلِّ والخضوعِ بينَ يدَيهِ . . عبرَ طريقٍ واضحٍ هوَ طريقُ الوحيِ والسنَّةِ ؛ **إذ كلُّ معرفةٍ لا تكونُ عن هٰذا الطريقِ . . فهيَ جَذْماءُ بتراءُ .**

وأدعياءُ طلبِ السعادةِ مازجوا الصادقينَ فكاثروهُم ، فالتبسَ الحالُ على العامَّةِ وأهلِ التقليدِ ، فاحتاجَ الأمرُ في طريقِ العملِ إلىٰ ميزانٍ يُعرَفُ بهِ الحقُّ مِنَ الباطلِ ؛ فجاءَ كتابُ « **ميزانِ العملِ** » **لبيانِ معنى السعادةِ الحقيقيةِ وبيانِ صفةِ طُلَّابِها** ، وأنَّها لا تحصلُ إلَّا بعلمٍ وعملٍ معاً ، ولا تنفكُّ عنِ الاسترشادِ بنورِ الوحيِ إلىٰ جنبِ نورِ العقلِ ؛ **فالإيمانُ باللهِ والنبوّةِ واليومِ الآخرِ** هيَ الأُصولُ الثلاثةُ التي عنها بفضلِ اللهِ تنشأُ السعادةُ في الدَّارينِ .

مرحلةُ التأليفِ ، ومكانةُ « ميزانِ العملِ » بينَ مُؤلَّفاتِ الغزاليّ

كتابُ « معيارِ العِلْمِ » أسَّسَ فيهِ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ منهجاً **يَضمَنُ بهِ سلامةَ طريقِ العِلْمِ والمعلومِ** مِن أن يَعترِيَهُما تشويشٌ وتلبيسٌ ، وقُلْ مثلَ ذٰلكَ أيضاً في كتابِهِ « مِحكِّ النظرِ » وغيرِهِ مِن كتبِ الجدلِ والنظرِ المفقودةِ .

وكانَ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ قد وعدَ في نهايةِ « معيارِ العِلْمِ » بتصنيفٍ **يضمنُ سلامةَ العملِ مِنَ الآفاتِ** ؛ ليكونَ الطالبُ بهِما مُحصِّلاً للسعادةِ المركبةِ منهُما ، ولذٰلكَ قالَ في « المعيارِ » : (وإذا كانَتِ السعادةُ في الدنيا والآخرةِ **لا تُنالُ إلَّا بالعِلْمِ والعملِ** ، وكانَ يَشتبِهُ العِلْمُ الحقيقيُّ بما

لا حقيقةَ لهُ ، وافتقرَ بسببِهِ إلىٰ معيارٍ . . **فكذٰلكَ يَشتبهُ العملُ الصالحُ النافعُ في الآخرةِ بغيرِهِ ، فيفتقرُ إلىٰ ميزانٍ تُدرَكُ بهِ حقيقتُهُ** ، فلْنصنِّفْ كتاباً في ميزانِ العملِ كما صنَّفْنا هٰذا في معيارِ العِلْمِ ، ولْنفرِدْ ذٰلكَ الكتابَ بنفْسِهِ ؛ ليتجرَّدَ لهُ مَن لا رغبةَ لهُ في هٰذا الكتابِ)[١] .

سلوكُ طريقِ السعادةِ بفَناءِ الإرادةِ

المُستبصِرُ بكلامِ حُجَّةِ الإسلامِ الإمامِ الغزاليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ يعلمُ ضِنَّتَهُ في الحديثِ عن شيوخِهِ[٢] ، وضِنَّتَهُ في الحديثِ عن أحوالِهِ وأخبارِهِ فيما خلا « المنقذَ » ، بيدَ أنَّنا نجدُ في « الميزانِ » عباراتٍ توحي بذٰلكَ وتُلوِّحُ دونَ أن تُصرِّحَ ، في ثناياها ما يفيدُ **كونَ الإمامِ قد سلكَ طريقَ القومِ سلوكَ عملٍ لا سلوكَ عِلْمٍ فقطْ** .

ومِمَّا يُؤكِّدُ ما ذهبْنا إليهِ قولُهُ : (حتىٰ إنَّ في الوقتِ الذي **صدقَتْ فيهِ رغبتي بسلوكِ هٰذا الطريقِ** . . شاورتُ متبوعاً مُقدَّماً في الصوفيةِ في المواظبةِ علىٰ تلاوةِ القرآنِ ، فمنعَني عنهُ وقالَ : **السبيلُ : أن تقطعَ علائقَكَ عنِ الدنيا بالكليةِ** ؛ بحيثُ لا يلتفتُ قلبُكَ إلىٰ أهلٍ وولدٍ ، ومالٍ ووطنٍ ، وعِلْمٍ وولايةٍ ، بل تصيرُ إلىٰ حالةٍ يستوي عندَكَ وجودُها وعدمُها . . .) إلىٰ آخِرِ ما قالَ[٣] .

وهٰذا نصٌّ واضحٌ بسلوكِ الإمامِ الغزاليِّ طريقَ القومِ على الطريقةِ المعهودةِ ؛ مِن تلقينٍ للذِّكرِ ، ومواظبةٍ عليهِ ، إلىٰ حصولِ الفتحِ ، كما يفيدُهُ

---

(١) معيار العلم (ص ٤٣٩) ، وبهٰذا تدرك الخطأ الجسيم للمستشرق مونتجمري في تشكيكه في نسبة « ميزان العمل » للإمام الغزالي .

(٢) ولا تغترَّ بكتاب « سر العالمين » ؛ فهو من الكتب المنحولة على الإمام الغزالي أسلوباً ومضموناً ، وحسبك ما ورد فيه من اجتماعه بالمعري الشاعر ، والمعري طواه القبر ولم يولد الإمام الغزالي بعد .

(٣) انظر (ص ٥٩ ـ ٦٠) .

ويُقرِّرُهُ نصُّ الكلامِ بطولِهِ ؛ ولذا قالَ عقبَهُ : (**فهـٰذا منهاجُ الصوفيةِ** ، وقد ردُّوا الأمرَ إلىٰ تطهيرٍ محضٍ مِن جانبِكَ ، وتصفيةٍ وجِلاءٍ ، ثمَّ استعدادٍ وانتظارٍ فقطْ)[1] .

❊ ❊ ❊

هـٰذا الطَّورُ العلميُّ العمليُّ مِن حياةِ الحُجَّةِ الإمامِ الغزاليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ هوَ الذي أشارَ إليهِ مُؤرِّخاً في كتابِهِ « المنقذِ مِنَ الضلالِ » بقولِهِ : (ثمَّ إنِّي لمَّا فرغتُ مِن هـٰذهِ العلومِ . . **أقبلتُ بهِمَّتي علىٰ طريقِ الصوفيةِ** ، وعلمتُ أنَّ طريقتَهُم إنَّما تَتِمُّ بعِلْمٍ وعملٍ . . . ، ثمَّ دخلتُ الشامَ ، وأقمتُ بهِ قريباً مِن سنتَينِ ، لا شغلَ لي إلَّا العُزلةُ والخلوةُ ، والرياضةُ والمجاهدةُ ؛ اشتغالاً بتزكيةِ النفْسِ وتهذيبِ الأخلاقِ . . . ، **والقَدْرُ الذي أذكرُهُ ليُنتفَعَ بهِ** : أنِّي علمتُ يقيناً **أنَّ الصوفيةَ همُ السالكونَ لطريقِ اللهِ تعالىٰ خاصَّةً** ، وأنَّ سيرتَهُم أحسنُ السِّيرِ ، وطريقَهُم أصوبُ الطرقِ ، وأخلاقَهُم أزكى الأخلاقِ .

بل لو جُمِعَ عقلُ العقلاءِ ، وحكمةُ الحكماءِ ، وعِلْمُ الواقفينَ علىٰ أسرارِ الشرعِ مِنَ العلماءِ ؛ ليغيِّروا شيئاً مِن سيرِهِم وأخلاقِهِم ، ويبدِّلوهُ بما هوَ خيرٌ منهُ . . لم يجدوا إليهِ سبيلاً ؛ فإنَّ جميعَ حركاتِهِم وسكناتِهِم في ظاهرِهِم وباطنِهِم مقتبسةٌ مِن مشكاةِ النبوَّةِ ، وليسَ وراءَ نورِ النبوَّةِ علىٰ وجهِ الأرضِ نورٌ يُستضاءُ بهِ)[2] .

❊ ❊ ❊

وعلى الجملةِ : فسلوكُ طريقِ الصوفيةِ المُحقِّقينَ هوَ السبيلُ لتحقيقِ السعادةِ ، وإنَّما كانَ « **ميزانُ العملِ** » بياناً لطريقِهِم ؛ فقد قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (مدارُ أكثرِ هـٰذا الكتابِ علىٰ وصفِهِ ؛ وهوَ مذهبُ

---

(١) انظر (ص ٦١) .

(٢) المنقذ من الضلال (ص ٩٢ ـ ٩٩) .

التصوُّفِ)[1] ، **والتصوُّفُ عندَهُ لبُّ المعرفةِ والعبادةِ** ؛ ولذا قالَ في حدِّهِ : (**وأعني بالتصوُّفِ** : ما خُلِقَ الإنسانُ لهُ مِن سلوكِ سبيلِ القُربِ إلى اللهِ تعالىٰ)[2] .

محاذرةُ ترجيحِ طريقِ السعادةِ بالكثرةِ والقِلَّةِ

يذهبُ بعضُ الضَّعَفَةِ إلىٰ ترجيحِ سبيلِ السعادةِ بكثرةِ السالكينَ ، ظانّاً أنَّ الكثرةَ علامةُ ذٰلكَ باستبعادِ أن تكونَ أكثرُ العقولِ ناهجةً نهجَ الضلالِ ، وهٰذا كمَن ظنَّ أنَّ اتباعَ السوادِ الأعظمِ في الأُصولِ منجاةٌ ، شاهداً لرأيِهِ بحديثِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عَلَيْكُمْ بِٱلسَّوَادِ ٱلْأَعْظَمِ »[3] ، **ولم يتنبَّهْ إلىٰ كونِ هٰذا الحديثِ قد جاءَ في سياقِ ذمِّ الخروجِ وشقِّ عصا المسلمينَ** ، لا لبيانِ كونِ الكثرةِ في حدِّ ذاتِها علامةَ نجاةٍ ؛ ولهٰذا قالَ إمامُ الحرمَينِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (**لا مُعوَّلَ على السوادِ الأعظمِ في أصلِ الدِّينِ** ، فإنَّ سوادَ الكَفَرةِ أعظمُ مِن سوادِنا ، ولقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صدرِ الإسلامِ في شِرْذِمةٍ قليلةِ العددِ)[4] .

ورحمَ اللهُ الإمامَ النوويَّ ، فكثيراً ما يُردِّدُ هٰذهِ العبارةَ : (الزمْ طُرقَ الهدىٰ ، ولا يضرَّكَ قِلَّةُ السالكينَ ، وإيَّاكَ وطُرقَ الضلالةِ ، ولا تغترَّ بكثرةِ الهالكينَ)[5] ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

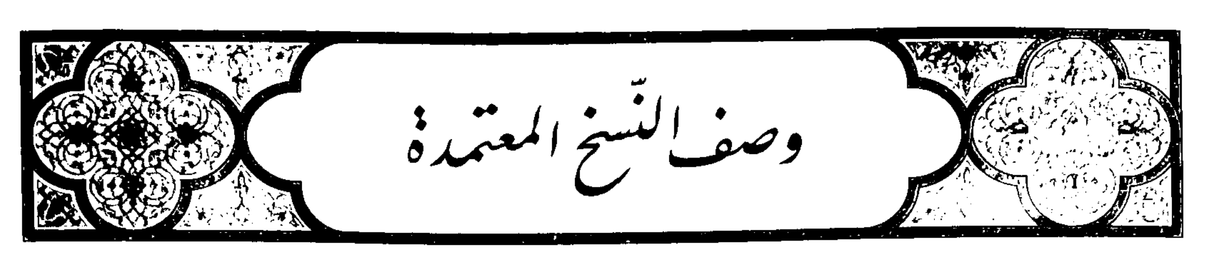
(١) انظر (ص ٢٠٠) .

(٢) انظر (ص ٢٢١) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) انظر « التلخيص في أصول الفقه » (٣/٤٣٢) .

(٥) الأذكار (ص ٢٧٥) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .



وصف النسخ المعتمدة

اعتُمد في إخراج هـٰذا الكتاب القيّم علىٰ سبع نسخ خطية متباينة الأعصار والأمصار على الجملة ، يظهر هـٰذا بجلاء عند النظر في نوع الفروق والمغايرات بينها ، علىٰ أنها متعاونة في إخراج نصِّ الكتاب ، قُوبل بين أربع منها ، وجُعلت ثلاث استئناساً .

النسخة الأولىٰ : نسخة مكتبة أسعد أفندي بإستنبول ، ذات الرقم (١٧٥٩) .

وهي نسخة مفردة تامَّة ، وقعت في (١٧٣) ورقة .

وكتبت بخطٍّ نسخي واضح في مدينة أسوان ، سنة (٥٤٦ هـ) كما وَقَعَ في آخرها ، دون ذكر اسم الناسخ لها .

وتُعَدُّ هـٰذه النسخة من أقدم نسخ كتاب « ميزان العمل » .

ورمز لها بـ (أ) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثانية : نسخة مكتبة فاتح بإستنبول ، ذات الرقم (٢٨٧٧) .

وهي نسخة مفردة تامة ، وقعت في (٥٥) ورقة .

وكتبت بخطِّ الناسخ علي بن إسماعيل بن زيد بن جابر بن إدريس بن موسى بن محمد بن المؤمل البهنسي ، في الثالث عشر من صفر ، سنة (٥٨٤ هـ) .

ورمز لها بـ (ب) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثالثة : نسخة مكتبة فيض الله أفندي بإستنبول ، ذات الرقم (١٢٧٩) .

وقعت ضمن مجموع في (٩٤) ورقة ، وفيه ـ كما يظهر من الورقة الأولىٰ منها ـ كتاب « المبادئ التي بها قوام الأجسام والأعراض » لأبي نصر الفارابي .

وهي نسخة مضبوطة ، ومقروءة ومقابلة بنسخ أخرىٰ كما يظهر من حواشيها ، أثبت في الورقة الأولىٰ منها حكمة منسوبة لذي النون المصري ، مع بعض الأشعار .

وكتبت بخط نسخي معتاد .

ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

ورمز لها بـ (ج) .

❁ ❁ ❁

النسخة الرابعة : نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، ذات الرقم (٣٣٢٣ تصوف) ١٣٤٢٢٥ .

وهي نسخة مفردة تامة ، وقعت في (٤٩) ورقة .

وكتبت بخط نسخي معتاد ، وبلونين متغايرين .

ولم يذكر فيها اسم الناسخ ، ولـٰكن ألحقت بها عظة كتبت سنة (١١٠٩هـ) .

وقد كان لهـٰذه النسخة أثر كبير في استدراك بعض التصحيفات واستبانة بعض المبهمات في غيرها من النسخ .

ورمز لها بـ (د) .

❁ ❁ ❁

النسخة الخامسة : نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا ، رقم (١١٣٠) .

وهي ضمن مجموع فيه : « بداية الهداية » ، و« كتاب الجواهر » ، و« المقصد الأسنىٰ » ، و« معراج السالكين » ، و« المعارف العقلية » ، و« النفخ والتسوية » ، و« مشكاة الأنوار » ، و« فيصل التفرقة » ، و« **ميزان العمل** » ، و« الانتصار لما

وقع في الإحياء من الأسرار » ، و« انتصار الإمام الزناني » ، و« انتصار آخر » ، و« المنقذ من الضلال » .

ووقع « ميزان العمل » فيه من الورقة (٩٢) إلى الورقة (١٠٨) .

ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

وهـٰذه النسخة كانت للاستئناس فقط .

ورمز لها بـ (هـ) .

❁ ❁ ❁

النسخة السادسة : نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض .

وهي ضمن مجموع برقم (٣١٢٩) ، يبدأ كتاب « ميزان العمل » من الورقة (٤٥) وينتهي بالورقة (٥٧) .

ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

كتبت بخطٍّ نسخي معتاد ، وكتبت العناوين باللون الأحمر .

وقد جعلنا هـٰذه النسخة للاستئناس .

ورمز لها بـ (و) .

❁ ❁ ❁

النسخة السابعة : نسخة مكتبة السيدة زينب بمصر ، ذات الرقم (٤٧١٥/ عام ـ ١٠٧٤/ خاص) .

وهي نسخة مفردة تامَّة ، وقعت في (٧٥) ورقة .

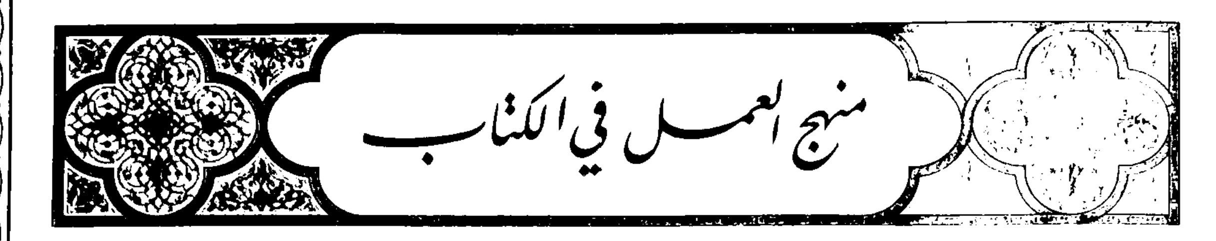
كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت العناوين باللون الأحمر .

وكتبت بخط الناسخ حسن بن زبير سنة (١٢٢٢ هـ) .

وقد جعلنا هـٰذه النسخة للاستئناس .

ورمز لها بـ (ز) .

❁ ❁ ❁



منهج العمل في الكتاب

ـ نسخنا الكتاب ، وقابلنا بين أصوله الخطية الأربعة المعتمدة ، واستأنسنا بالثلاثة الباقية ، وأثبتنا أهمَّ الفروق والزيادات الواقعة في بعض النسخ ؛ مما يفيد معنىً جديداً ، أو يزيد السياقَ وضوحاً .

ـ أثبتنا الآيات القرآنية بالرسم العثماني من رواية الإمام حفص عن الإمام عاصم رحمهما الله تعالىٰ ، وحصرناها بين هلالين مزهَّرين ﴿ ﴾ ، وخرَّجناها في متن الكتاب بذكر رقم السورة مع رقم الآية بهـٰذا الشكل : (رقم السورة ← ٣/١١ → رقم الآية) .

ـ خرَّجنا ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة من دواوين السُّنة المطهَّرة .

ـ وثَّقنا النصوص النقلية وخرَّجنا الأشعار من مصادرها حيث وُجدت .

ـ ضبطنا النص المحقَّق بالحركات ضبطاً إعرابياً للأواخر ، وضبطاً حرفياً تامّاً للأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض المُشْكِل والملتبس بغيره ، أو المُوهِم ضمن سياقه .

ـ رقمنا النص بعلامات الترقيم المناسبة حسب المنهج المعتمد في مركز دار المنهاج .

ـ شرحنا الألفاظ الغريبة الواردة فيه شرحاً لغوياً موجزاً .

ـ ترجمنا للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ترجمة موجزة تناسب حجم الكتاب .

ـ عرَّفنا بالكتاب تعريفاً لطيفاً يبين أهميته وموضوعه .

ـ صنعنا فهرساً لموضوعات الكتاب الرئيسة وبعض المهمات الفرعية .



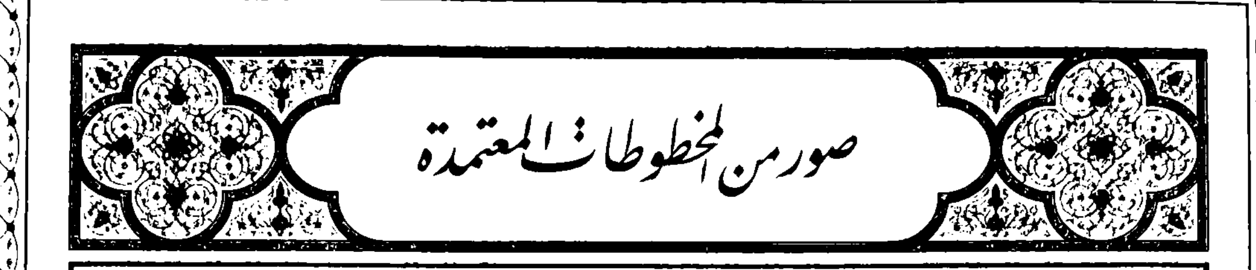
وختاماً : **نسأل الله تعالىٰ أن يكون الجهد المبذول قرَّةَ عين للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ** ، وأن تقرَّ به كذٰلك أعين القُرَّاء الكرام ؛ إذ « ميزان العمل » كتاب متداول بين أيدي شرائح متنوعة علميّاً وفكريّاً وعلى المحيط الإقليمي والعالمي ؛ إذ حَظِيَ بالترجمة إلى اللغة العبرية ـ إلا أنَّها كانت ترجمة سقيمة ، قد ملأها مترجمها بالتحريف المُتعمَّد خدمة لاعتقاداته ـ وكذٰلك الحال فقد تمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية [1] .

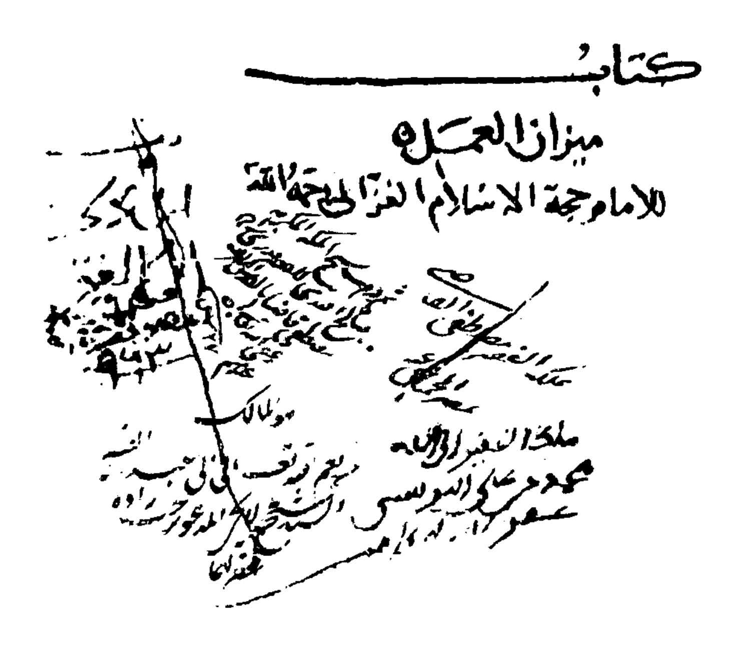
ونأمل أن تكون طبعتنا هٰذه وسيلةً وسبيلاً إلىٰ تجدد الانتفاع بهٰذا الكتاب المبارك ، ولله الحمد من قبل ومن بعد .

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم

اللّجنة العلميّة
بمركز دار المنهاج للدّراسات والتّحقيق العلميّ
بإشراف
عمر سالم باجخيف

(١) انظر « مؤلفات الغزالي » (ص ٨٠ ـ ٨١) .





كتاب

ميزان العمل

للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله

صورة ورقة العنوان من النّسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم

قال الشيخ الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد حجة الإسلام الغزالي رحمة الله عليه: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله أجمعين.

أما بعد فلما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل افتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار، وفرغنا منه ووجب معرفة العمل المسعد ومعرفة التمييز بينه وبين العمل فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان فأردنا أن نخوض فيه

ونبين

ونبين أن القعود عن طلب السعادة حماقة ثم نبين أن لا طريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل ثم نبين العلم المسعد وطريقه وكل ذلك بطريق يترقى عن حد التقليد إلى حد الوضوح لو استقصي تحقيقه وطول الكلام فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التي ذكرناها معيار العلم وإن كنا لسنا نطول الكلام به ولكنا نرشد إلى أصوله وقوانينه ○ بيان أن القعود عن طلب السعادة حماقة ○

السعادة الأخروية التي نعني بها بقاء بلا فناء ولذة بلا عناء وسرورا بلا كدورة وغنى بلا فقر وكمالا بلا نقصان

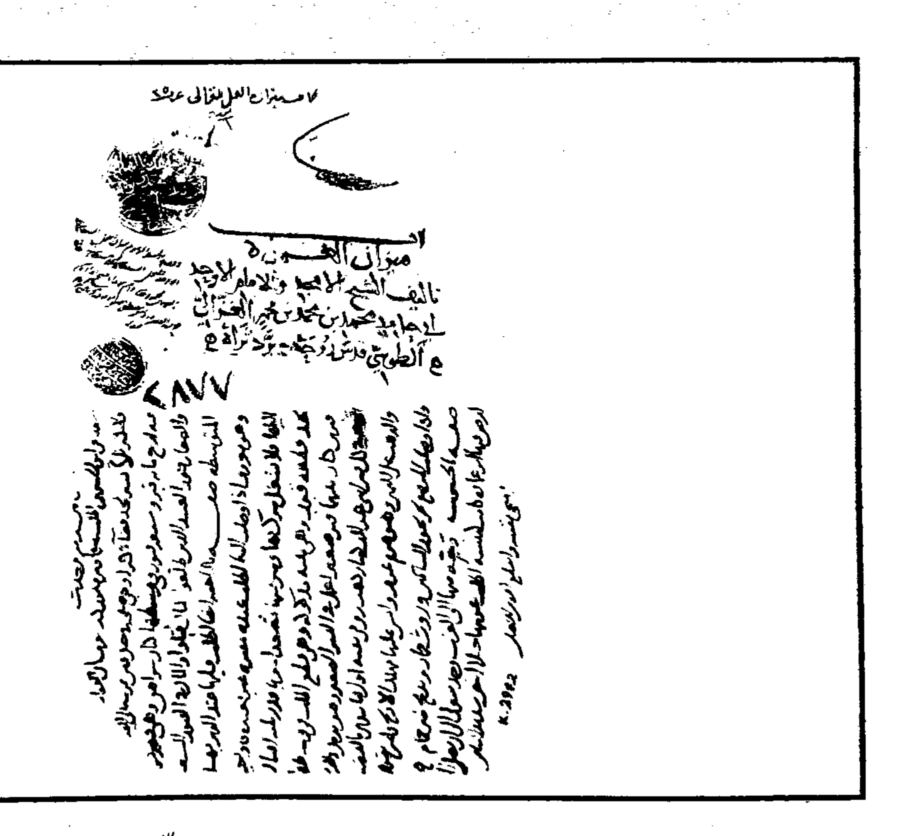
صورة الورقة الأولى من النّسخة (أ)

دع علمهم واهل بلدهم ولو ذكر ذاكر مذهبهم لما
سمعناه به ومذهب غيره يخالفه وليس مع كل
واحد معجزة ترجح بها جانبه عن الالتفات الى
المذاهب المختلفة والحوالة على النظر ولكن ربما جنيت مذهب
لا تسعون في صورة اعمى يقلد قايدا يرشد الى الطريق
وحواليه الفصل قايدك ينادون عليك لا انه اهلك
واضلك عن سوا السبيل وستعلم في عاقبة امرك ظلم
قايدك ولا خلاص لك في الاستسلام قال الشاعر
خذ ما تراه ودع شيا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في

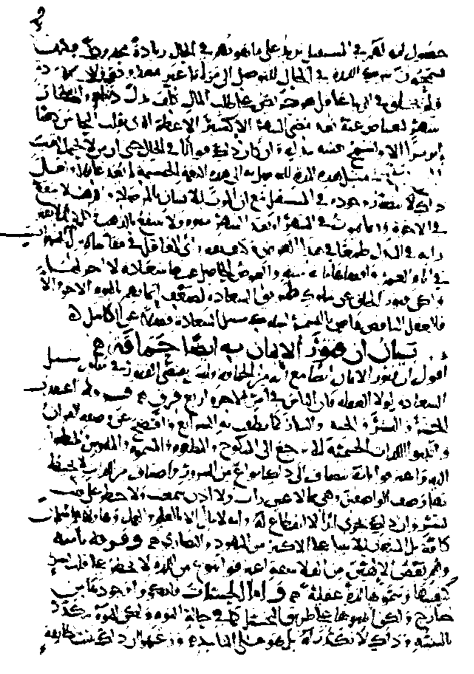
اعتقادك الموروث لتوجب الطلب فاهيك به
نفعا اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق فمن لم يشك لم ينظر
ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال
نعوذ بالله من الشيطان الرجيم والسلام

تم هذا
ميزان العمل وكتبت ما سوا في سنة
ست واربعين وخمسمايه هـ
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه واله وسلم
تسليما حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة الورقة الأخيرة من النّسخة (أ)

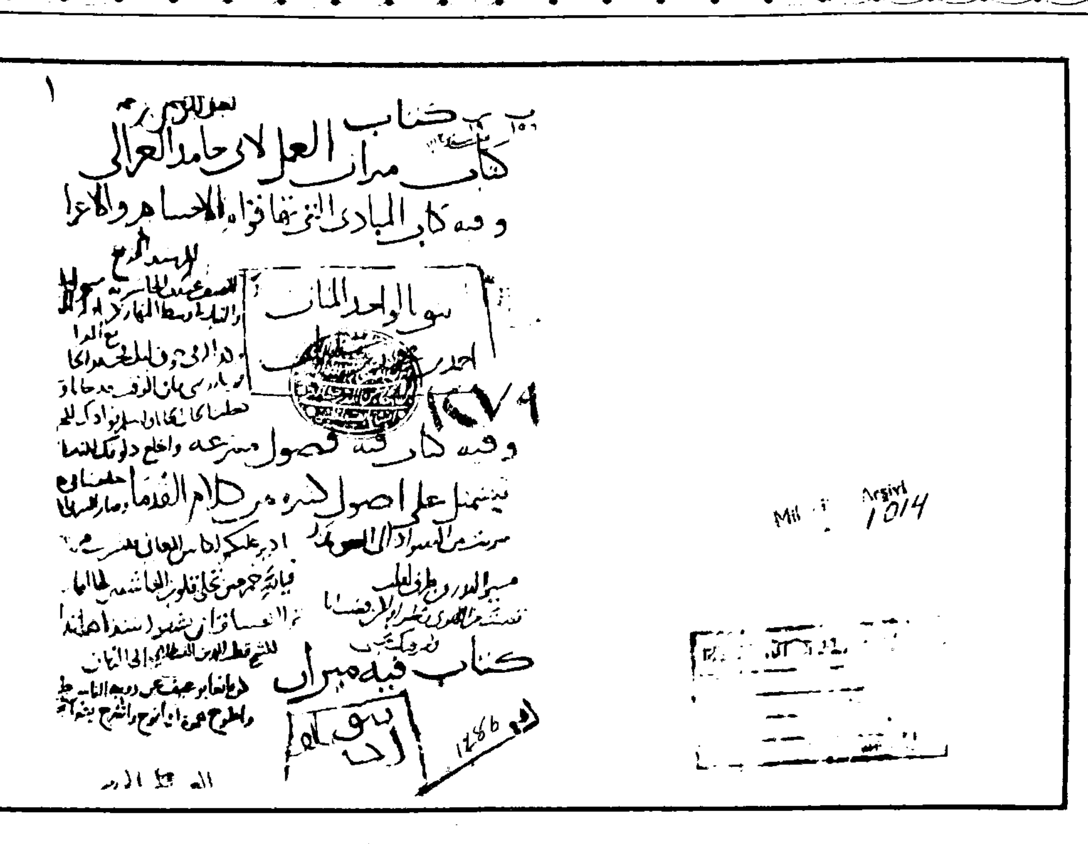


صورة ورقة العنوان من النّسخة (ب)



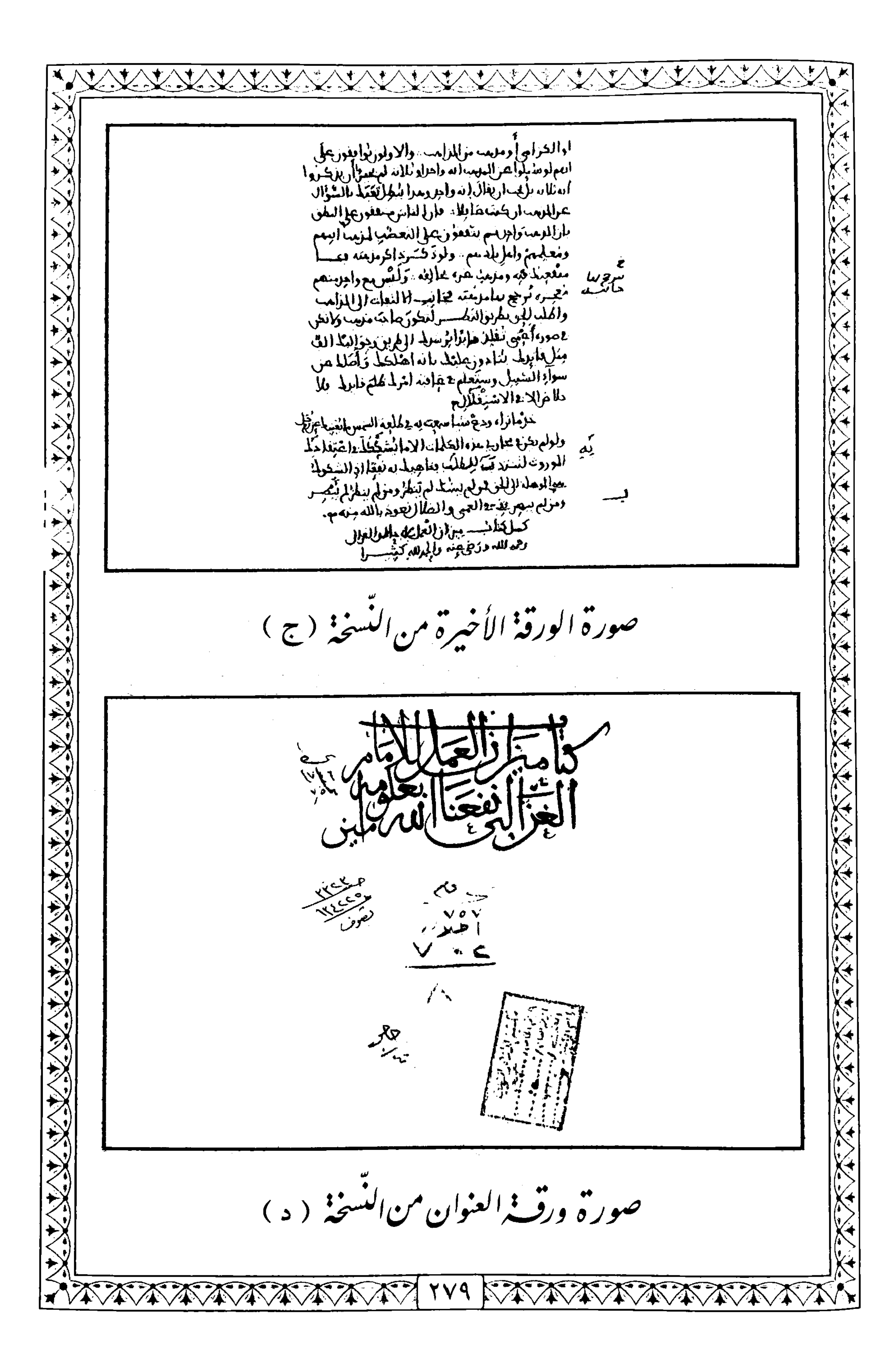
صورة الورقة الأولى من النّسخة (ب)

صورة الورقة الأخيرة من النّسخة (ب)



صورة ورقة العنوان من النّسخة (ج)

صورة الورقة الأولى من النّسخة (ج)



كمل كتاب ميزان العمل للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله ورضي عنه والحمد لله كثيرا

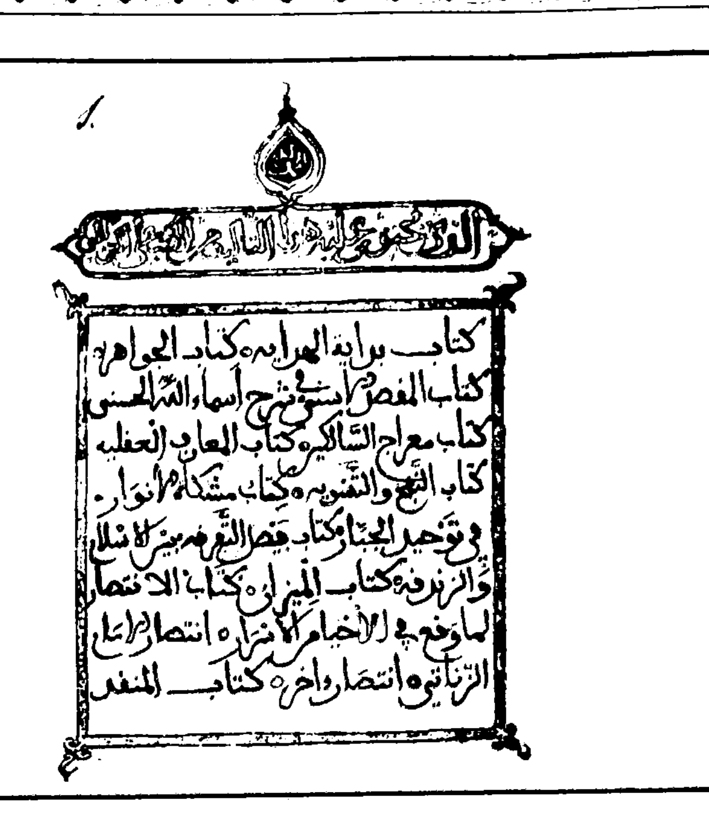
صورة الورقة الأخيرة من النّسخة (ج)

كتاب ميزان العمل للإمام الغزالي نفعنا الله بعلومه آمين

صورة ورقة العنوان من النّسخة (د)

صورة الورقة الأولى من النّسخة (د)

صورة الورقة الأخيرة من النّسخة (د)



كتاب بداية الهداية، كتاب الجواهر
كتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى
كتاب معراج السالكين، كتاب المعارف العقلية
كتاب النفخ والتسوية، كتاب مشكاة الأنوار
في توحيد الجبار، كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام
والزندقة، كتاب الميزان، كتاب الانتصار
لما وقع في الأحياء الأسرار، انتصار
الرباني، انتصار وآخره كتاب المنقذ

صورة ورقة العنوان من النّسخة (هـ)

صورة الورقة الأولى من النّسخة (هـ)

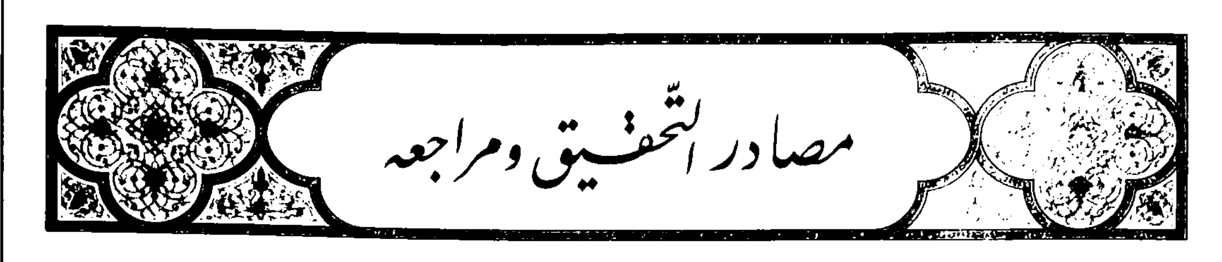
صورة ورقة العنوان من النّسخة (و)

صورة الورقة الأولى من النّسخة (و)

هذا كتاب ميزان العمل للإمام الغزالي
نقل مما نقل من نسخة قريبة لكتابتها خمسمائة وستة عشرين
سنة وقرأنا هذا الكتاب على أستاذنا
الكامل الشيخ محمد عبد الرحيم شاه ...
هذا الكتاب بخط نسخة هندية ...

صورة ورقة العنوان من النّسخة (ز)

صورة الورقة الأولى من النّسخة (ز)



مصادر التحقيق ومراجعه

قِوَام السنة الأصبهاني

أبو القاسم إسماعيل بن محمَّد بن الفضل القرشي الشَّافعي (ت ٥٣٥ هـ)

١ ـ التَّرغيب والتَّرهيب ، خرَّج أحاديثه محمد السعيد زغلول ، ط ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، السعودية .

أبو نعيم الأصبهاني

أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الشَّافعي (ت ٤٣٠ هـ)

٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

٣ ـ الطب النبوي ، تحقيق الدكتور مصطفىٰ خضر دونمز التركي ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

الراغب الأصفهاني

أبو القاسم الحسين بن محمَّد بن المفضل (ت ٥٠٢ هـ)

٤ ـ الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

٥ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، تحقيق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

البخاري

أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦ هـ)

٦ ـ صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله

صلَّى الله عليه وسلَّم وسننه وأيامه) « الطبعة السلطانية اليونينية » ، تشرف بخدمته والعناية به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ٣ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، السعودية . بيروت ، لبنان .

البدوي

العلامة الدكتور عبد الرَّحمٰن بدوي (ت ١٤٢٣ هـ)

٧ ـ مؤلفات الغزالي ، ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

البزار

أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت ٢٩٢ هـ)

٨ ـ مسند البزار (البحر الزخار) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله (ت ١٤١٨ هـ) وعادل سعد وصبري عبد الخالق ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية .

الخطيب البغدادي

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الشَّافعي (ت ٤٦٣ هـ)

٩ ـ اقتضاء العلم العمل ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٠ ـ تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

البلاذري

أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي (ت ٢٧٩ هـ)

١١ ـ أنساب الأشراف ، تحقيق الدكتور سهيل زكار (ت ١٤٤١ هـ) والدكتور رياض زركلي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

البيهقي

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي الشَّافعي (ت ٤٥٨ هـ)

١٢ ـ الجامع لشعب الإيمان ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .

١٣ ـ الدعوات الكبير ، تحقيق بدر بن عبد الله البدر ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار غراس ، الجهراء ، الكويت .

١٤ ـ الزهد الكبير ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

١٥ ـ السنن الكبير ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .

١٦ ـ المدخل إلىٰ علم السنن ، تحقيق العلامة الشيخ محمد عوامة ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار اليسر ، المدينة المنورة ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

١٧ ـ مناقب الشافعي ، تحقيق العلامة السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

الحكيم الترمذي

أبو عبد الله محمَّد بن علي بن الحسن المؤذن الشَّافعي (ت نحو ٢٩٥ هـ)

١٨ ـ نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، تحقيق الدكتور نور الدين جيلار البوردري ، ط ١ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

الترمذي

أبو عيسىٰ محمَّد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)

١٩ ـ السنن (الجامع الصحيح) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر

(ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

التنوخي

أبو علي المحسّن بن علي بن محمَّد التنوخي (ت ٣٨٤ هـ)

٢٠ ـ الفرج بعد الشدة ، تحقيق الأديب عبود الشالجي (ت ١٤١٦ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

الثعالبي

أبو منصور عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ)

٢١ ـ ديوان الثَّعالبي ، تحقيق الدكتور محمود عبد الله الجادر ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق .

ابن الجزري

شمس الدِّين أبو الخير محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الدمشقي الشَّافعي (ت ٨٣٣ هـ)

٢٢ ـ النشر (نشر القراءات العشر) ، تحقيق وتعليق الدكتور أيمن رشدي سويد ، ط ٢ ، (١٤٤٠ هـ ، ٢٠١٩ م) ، دار الغوثاني ، دمشق ، سورية .

الجهشياري

أبو عبد الله محمَّد بن عبدوس بن عبد الله الكوفي البغدادي (ت ٣٣١ هـ)

٢٣ ـ الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذ الأديب إبراهيم بن حسين صالح (ت ١٤٤٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، أبو ظبي ، الإمارات .

إمام الحرمين الجويني

ضياء الدِّين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الشَّافعي (ت ٤٧٨ هـ)

٢٤ ـ التَّلخيص في أصول الفقه ، تحقيق الدكتور عبد الله جولم النيبلي

وشبير أحمد العمري ، ط ٢ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

الحارث ابن أبي أسامة

أبو محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي البغدادي (ت ٢٨٢ هـ)

٢٥ ـ مسند الحارث بن محمد بن أبي أسامة ، علق عليه وخرج أحاديثه الدكتور مسعود أحمد الأعظمي ، ط ١ ، (١٤٤١ هـ ، ٢٠١٩ م) ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، دبي ، الإمارات .

الحاكم

أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن محمَّد النيسابوري الشَّافعي (ت ٤٠٥ هـ)

٢٦ ـ المستدرك على الصحيحين ، وبهامشه تعليقات الأئمة البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة عن النشرة الهندية لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ابن حبان

أبو حاتم محمَّد بن حبان بن أحمد البستي الشَّافعي (ت ٣٥٤ هـ)

٢٧ ـ صحيح ابن حبان (المسند الصحيح على التَّقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها) ، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد علي سونمز والأستاذ المشارك الدكتور خالص آي دمير ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٢ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ابن حنبل

أبو عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ)

٢٨ ـ الزهد ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٩ ـ فضائل الصحابة ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، ط ٤ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .

٣٠ ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

الخرائطي

أبو بكر محمَّد بن جعفر بن محمَّد السامري الشَّافعي (ت ٣٢٧ هـ)

٣١ ـ اعتلال القلوب ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، السعودية .

ابن خُزيمة

أبو بكر محمَّد بن إسحاق السلمي النيسابوري الشَّافعي (ت ٣١١ هـ)

٣٢ ـ صحيح ابن خُزيمة (مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط ٣ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

هناد الدارمي

أبو السري هناد بن السري بن مصعب التميمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ)

٣٣ ـ الزهد ، تحقيق عبد الرحمٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، حَوَلِّي ، الكويت .

أبو داوود

أبو داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)

٣٤ ـ الزهد ، تحقيق ياسر إبراهيم وغنيم عباس ، ط ٢ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، مؤسسة أبي عبيدة ، القاهرة ، مصر .

٣٥ ـ السنن ، تحقيق العلامة الشيخ محمد عوامة ، ط ٣ ، (١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م) ، دار اليسر ، المدينة المنورة ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ابن أبي الدنيا

أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن عبيد القرشي البغدادي (ت ٢٨١ هـ)

٣٦ ـ ذم الدنيا ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

٣٧ ـ قضاء الحوائج ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

٣٨ ـ مكارم الأخلاق ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

الدؤلي

أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني الدؤلي (ت ٢٩٠ هـ)

٣٩ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي ، برواية أبي سعيد الحسن السكري (ت ٢٩٠هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين (ت ١٤٢٧هـ) ، ط ١ ، (١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .

أبو منصور الديلمي

أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الهمذاني الشافعي (ت ٥٥٨ هـ)

٤٠ ـ مسند الفردوس ، مخطوطة مصورة رقم (٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤١٥) ، مكتبة جار الله ، إستنبول ، تركية .

٤١ ـ نسخة أخرىٰ ، مخطوطة مصورة رقم (٦٤٨) ، مكتبة لاله لي ، إستنبول ، تركية .

الديلمي

أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الشافعي (ت ٥٠٩ هـ)

٤٢ ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

الذهبي

شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان الشَّافعي (ت ٧٤٨ هـ)

٤٣ ـ سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، تحقيق مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨ هـ) ، ط ١١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

الرافعي

إمام الدِّين أبو القاسم عبد الكريم بن محمَّد القزويني (ت ٦٢٣ هـ)

٤٤ ـ التَّدوين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردي الحوشاني ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

الزبيدي

أبو الفيض محمَّد مرتضى بن محمَّد بن محمَّد الحسيني الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ)

٤٥ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

التاج السبكي

تاج الدِّين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الشَّافعي (ت ٧٧١ هـ)

٤٦ ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

السخاوي

شمس الدِّين أبو الخير محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن بن محمَّد الشَّافعي (ت ٩٠٢ هـ)

٤٧ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري (ت ١٤١٣ هـ) وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

الشافعي

أبو عبد الله محمَّد بن إدريس بن العباس المطلبي القرشي (ت ٢٠٤ هـ)

٤٨ ـ ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار الفجر ، دمشق ، سورية .

أبو الشيخ ابن حيان

أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن جعفر الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ)

٤٩ ـ العظمة ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار العاصمة ، الرياض ، السعودية .

الطبراني

أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي (ت ٣٦٠ هـ)

٥٠ ـ مسند الشاميين ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٥١ ـ المعجم الأوسط ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .

٥٢ ـ المعجم الكبير ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

الطوسي

أبو نصر عبد الله بن علي بن محمَّد السراج الصوفي (ت ٣٧٨ هـ)

٥٣ ـ اللمع ، تحقيق محمد أديب الجادر ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار الفتح ، عمَّان ، الأردن .

عبد الرزاق

أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١١ هـ)

٥٤ ـ المصنف ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

أبو العتاهية

أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد الكوفي (ت ٢١١ هـ)

٥٥ ـ ديوان أبي العتاهية (أبو العتاهية أشعاره وأخباره) ، تحقيق العلامة الدكتور شكري فيصل (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، دار الملاح ، دمشق ، سورية .

ابن عدي

أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني الشَّافعي (ت ٣٦٥ هـ)

٥٦ ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار (ت ١٤٤١ هـ) ، والثالثة بقراءة وتدقيق يحيىٰ مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

العراقي

زين الدِّين أبو الفضل عبد الرَّحيم بن الحسين المهراني الشَّافعي (ت ٨٠٦ هـ)

٥٧ ـ المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من

الأخبار ، عني به أشرف عبد المقصود ، ط ١ ، (١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م) ، مكتبة دار طبرية ، الرياض ، السعودية .

ابن عساكر
أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشَّافعي (ت ٥٧١ هـ)

٥٨ ـ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط ١ ، (١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٥٩ ـ معجم الشيوخ (شيوخ ابن عساكر) ، تحقيق الدكتورة وفاء تقي الدين ، ط ١ ، (١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

ابن حجر العسقلاني
شهاب الدِّين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني الشَّافعي (ت ٨٥٢هـ)

٦٠ ـ الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس (زهر الفردوس) ، تحقيق مجموعة من الباحثين بعناية الدكتور أبو بكر أحمد جالو ، ط ١ ، (١٤٣٩هـ ، ٢٠١٨م) ، جمعية دار البر ، دبي ، الإمارات .

العسكري
أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل الأهوازي (ت بعد ٣٩٥هـ)

٦١ ـ جمهرة الأمثال ، تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام ومحمد سعيد بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

العقيلي
أبو جعفر محمَّد بن عمرو بن موسى بن حماد (ت ٣٢٢هـ)

٦٢ ـ الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روى ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة

يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، الرياض ، السعودية .

سيدنا علي رضي الله عنه

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي (ت ٤٠ هـ)

٦٣ ـ ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه (أنوار العقول لوصي الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد همو ، ط ١ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

الغزالي

زين الدِّين أبو حامد محمَّد بن محمَّد الطوسي الشَّافعي (ت ٥٠٥ هـ)

٦٤ ـ إحياء علوم الدِّين ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ الإصدار ٣ ، (١٤٤٣ هـ ، ٢٠٢١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٦٥ ـ معيار العلم ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ الإصدار ٢ ، (١٤٤٠ هـ ، ٢٠١٩ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٦٦ـ المنقذ من الضلال ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ الإصدار ٣ ، (١٤٤٠ هـ ، ٢٠١٩ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ابن قتيبة

أبو محمَّد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)

٦٧ ـ غريب الحديث ، بعناية تميم زرزور ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

القشيري

زين الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري الشَّافعي (ت ٤٦٥ هـ)

٦٨ ـ الرسالة القشيرية ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (١٤٣٨ هـ ، ٢٠١٧ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

القضاعي

أبو عبد الله محمَّد بن سلامة بن جعفر الشَّافعي (ت ٤٥٤ هـ)

٦٩ ـ مسند الشهاب (مسند القضاعي) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ابن ماجه

أبو عبد الله محمَّد بن يزيد الربعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ)

٧٠ ـ السنن ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور العلامة أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، طبعة خاصة عن نشرة جمعية المكنز الإسلامي لدىٰ دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

الماوردي

أبو الحسن علي بن محمَّد بن حبيب البغدادي الشَّافعي (ت ٤٥٠ هـ)

٧١ ـ أدب الدِّين والدنيا ، تشرفت بخدمته والعناية به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ٢ الإصدار ٢ ، (١٤٤٣ هـ ، ٢٠٢٢ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ابن المبارك

أبو عبد الرَّحمـٰن عبد الله ابن واضح الحنظلي المروزي (ت ١٨١ هـ)

٧٢ ـ الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن حماد عليه ،

تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

المتنبي

أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي الكوفي (ت ٣٥٤ هـ)

٧٣ ـ ديوان المتنبي ، ط ٢ ، (١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٣ م) ، مطبعة هندية ، القاهرة ، مصر .

مسلم

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)

٧٤ ـ صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم) ، تشرف بخدمته والعناية به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، السعودية . بيروت ، لبنان .

أبو طالب المكي

أبو طالب محمَّد بن علي بن عطية الحارثي الشَّافعي (ت ٣٨٦ هـ)

٧٥ ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التَّوحيد ، بعناية العلامة محمد الزهري الغمراوي (ت بعد ١٣٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٠ هـ ، ١٨٩٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

أبو يعلى الموصلي

أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧ هـ)

٧٦ ـ المسند ، تحقيق الشيخ حسين سليم أسد الداراني (ت ١٤٤٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

النسائي

أبو عبد الرَّحمـٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ)

٧٧ ـ السنن الكبير ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٧٨ ـ السنن الصغرى (المجتبىٰ) ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م) ، نسخة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

النووي

محيي الدِّين أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي الشَّافعي (ت ٦٧٦ هـ)

٧٩ ـ الأذكار من كلام سيد الأبرار (حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ٩ الإصدار ١ ، (١٤٤٢ هـ ، ٢٠٢١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

الهيثمي

نور الدِّين أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي الشَّافعي (ت ٨٠٧ هـ)

٨٠ ـ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ، تحقيق الدكتور حسين أحمد صالح الباكري ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، مركز خدمة السنة النبوية بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، السعودية .

٨١ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة ، تحقيق العلامة حبيب الله الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

❋ ❋ ❋

محتوى الكتاب

❊ ❊ ❊